

تَهْدِيَةُ النَّفْسِ
وَجَهْدُ التَّائِبِ
مِمَّا أَحَقَّ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَرَدِيءِ الْأَفَاوِيلِ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ

عُضُوهُنَّ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا
بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَاقِياً
وَالْمُدَرِّسُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

ح) عبد القادر شيبية الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبية الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء
الأقوال. /عبد القادر شيبية الحمد- ط 2..- الرياض، 1432هـ
٦ مج.

ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٤)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي ٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٤)

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ
الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا .﴾

قد ذكرت في مطلع تفسير هذه السورة الكريمة أنها سميت سورة النساء لأن الله تعالى شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء ، وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث استنشقن عير العزة والكرامة ، وجعل لهن نصيباً من الميراث بعد أن كن نصيباً من الميراث ، وفرض الله لهن على الأزواج مهراً جعله حقاً خالصاً للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء ، وحرّم على الرجال عضلهن في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام ، وقد صدّر الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بأمر جميع المكلفين بتقوى الله عز وجل الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وأشار إلى تأكيد حق الأرحام ووجوب الإحسان إليهم ، وبعد أن ساق في تقرير حقوق النساء نحو خمس وثلاثين آية من صدر هذه السورة المباركة ، ونبه أثناء ذلك إلى وجوب رعاية حقوق اليتامى عامة وحقوق يتامى النساء بخاصة ، ثم أمر عز وجل بعبادته وحده لا شريك له وبوجوب الإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت يمين الإنسان ، ونهى عن الاختيال والفخر والبخل والرياء والكفر بالله واليوم الآخر ، وحض على وجوب طاعة رسول الله ﷺ وضرورة الاحتكام إلى شريعته ، وأشار إلى منزلته ﷺ عند ربه ، وبيّن ما تفضل الله به على عباده من تيسير التشريع ، ونذّر بمن يعادي رسول الله ﷺ من المنافقين واليهود وسائر

الكفرة، وفضح مواقفهم المخزية لهم في الدنيا والآخرة وحرّض المسلمين على قتال أعداء الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وشرع لهم صلاة السفر وصلاة الخوف ثم شرح لهم خطوات الشيطان التي يضل بها من ينقاد له حتى يحذرهما المسلمون وختم ذلك ببيان الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ولما كان بعض المسلمين من شدة حرصهم على صيانة حقوق النساء واليتامى وخوفهم من الله عز وجل أن يقصروا في هذه الحقوق صاروا يسألون رسول الله ﷺ مزيداً من البيان عن حقوق النساء واليتامى فأنزل الله عز وجل هنا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا.﴾ وقد أخرج البخاري في الشركة في باب شركة اليتيم وأهل الميراث ومسلم واللفظ لمسلم من طريق يونس عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ قالت يا ابن أخي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه ماله وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي

اليتامى فَاَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴿١﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن . ثم ساق مسلم من طريق أبي صالح عن ابن شهاب أخبرني عروة أنه سأل عائشة عن قول الله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قال مسلم : وساق الحديث بمثل حديث يونس عن الزهري وزاد في آخره : من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال ، ثم ساق مسلم من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت : أنزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال ، وليس لها أحد يخاصم دونها ، فلا ينكحها لما لها فيضُرُّ بها ويسىء صحبتها ، فقال : إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، يقول : ما أحللت لكم ، ودع هذه التي تضرُّ بها . ثم ساق مسلم من طريق عبدة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة في قوله : ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت : أنزلت في اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يزوجه غيرها فيشركه في ماله ، فيعضلها ، فلا يتزوجها ولا يزوجه غيرها . حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة أخبرنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ الآية ، قالت : هي اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون قد شركته في ماله حتى في العذق ، فيرغب عن أن ينكحها ويكره أن ينكحها رجلاً فيشركه في ماله فيعضلها اهـ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : باب قوله : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وما يتلى عليكم في الكتاب في

يَتَامَى النِّسَاءُ ﴿ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قَالَتْ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِيمَةُ هُوَ وَلِيهَا وَوَارِثُهَا فَتَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَدَقِ فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يَزَوِّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرَكْتَهُ فَيَعْضِلُهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اهـ وَأَصْلُ الاسْتِفْتَاءِ فِي اللُّغَةِ هُوَ السُّؤَالُ عَنْ أَمْرٍ أَوْ عَنْ حَكْمٍ مَسْأَلَةٌ وَهَذَا السَّائِلُ يُسَمَّى الْمُسْتَفْتَى وَالْمُسْتَوَلُ الَّذِي يُجِيبُ : هُوَ الْمُفْتَى وَقِيَامُهُ بِالْجَوَابِ هُوَ الْإِفْتَاءُ وَمَا يُجِيبُ بِهِ يُسَمَّى الْفَتْوَى بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالْفَتْيَا بِضَمِّ الْفَاءِ وَفِي إِسْنَادِ الْإِفْتَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِشْعَارٌ بِخَطَرَةِ مَنْصَبِ الْإِفْتَاءِ وَجَلَالَتِهِ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي الْفَتْوَى إِنَّهَا تَوْقِيعٌ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالْمَعْلُومُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِاسْمٍ أَوْ يَصِفَهُ بِصِفَةٍ إِلَّا بِمَا سَمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَ بِهِ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَوْ أَخْبَرَ بِذَلِكَ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ ، فَأَسْمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصِفَاتُهُ إِنَّمَا تَطْلُقُ إِذَا ثَبَتَتْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ ، وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ؛ وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُسْتَفْتَيْنِ فِي النِّسَاءِ : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَبَيِّنُ لَكُمْ مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَحْكَامِ النِّسَاءِ ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تَوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ إِحَالَةٌ إِلَى الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ وَمَا بَعْدَهَا مِمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حَقُوقَ يَتَامَى الْإِنَاثِ وَيَتَامَى الذُّكُورِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي غَيْرِهَا مِمَّا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ تَنْفِيرٌ مِنْ ظُلْمِ

اليتامى وحضّ على الإحسان إليهم بسبب ضعفهم وعجزهم عن مقاومة من يريد ظلمهم ، وقد شدد الله تبارك وتعالى النكير على من ظلمهم وتوعد ظالمهم بعذاب النار حيث قال تبارك وتعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۖ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾ تأكيدٌ لوجوب المحافظة على حقوق اليتامى والعدل في معاملتهم سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ، كما قال عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۖ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : ومهما يكن منكم أيها المؤمنون من عدل في أموال اليتامى ، التي أمركم الله أن تقوموا فيهم بالقسط والانتهاى إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۖ ﴾ لم يزل عالماً بما هو كائن منكم ، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم ، حافظٌ له ، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة اهـ ولاشك أن تذييل هذه الآية الكريمة بهذا التذييل هو تهيج وحضّ على المسارعة والمبادرة إلى فعل الخيرات والمبرات لليتامى وغيرهم للفوز في الجنان بأعلى الدرجات .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أجاب الله تبارك وتعالى المستفتين رسول الله ﷺ في شئون النساء عما سألوا عنه وفوق ما سألوا عنه حيث زادهم وصيةً بحقوق يتامى النساء خاصة واليتامى عامةً شرع هنا يبين لهم مزيداً من الأحكام التي تُربّي في نفوسهم حسن العشرة الزوجية، ووجوب الإمساك بالمعروف أو التيسير بإحسان حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا.﴾ وظاهر هذا السياق الكريم يشعر أن المرأة في هذا المقام حريصة على بقاء الحياة الزوجية راغبةً في زوجها لكنها تخشى أن يفارقها إما لكبر سنّها أو لغير ذلك، كما حدث لسودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها حين تقدم بها السنُّ وخافت أن يفارقها رسول الله ﷺ وهي حريصةٌ على أن تموت وهي في عصمة رسول الله ﷺ رجاء أن تبعث في نساءه يوم القيامة لتكون مع رسول ﷺ في منزله في الجنة وقد عرفت حبَّ رسول الله ﷺ لعائشة، فطلبت منه ﷺ أن تتنازل عن ليلتها لعائشة رضي الله عنهما، فقد روى البخاري في الهبة والشهادات من طريق يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نساءه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأةٍ منهن يوماً وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يوماً وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا

رسول الله ﷺ ، وقال البخاري في كتاب الصلح من صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ أَنْ يَصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ قالت : هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه : كبراً أو غيره ، فيريد فراقها ، فتقول : أمسكني واقسم لي ما شئت ، قالت : فلا بأس إذا تراضيا . وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ قالت : الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأني في حل ، فنزلت هذه الآية في ذلك . وقال البخاري في كتاب النكاح من صحيحه : باب ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ حدثني محمد بن سلام أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ قالت : هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها ، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها ، تقول له : أمسكني ولا تطلقني ، ثم تزوج غيري فأنت في حل من النفقة علي والقسمة لي ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما أن يَصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقال البخاري في كتاب النكاح أيضاً : باب المرأة تهب يومها من زوجها لضررتها ، وكيف يقسم ذلك ؟ حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة ، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة اهـ وقال مسلم في كتاب الرضاع من صحيحه : حدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ما رأيت امرأة أحب إليّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدة ، قالت : فلما

كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله: قد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين، يومها ويوم سودة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي وإن توقعت زوجة من زوجها ﴿نشوزاً﴾ أي ترفعاً عليها بترك مضاجعتها أو التقصير في نفقتها لبغضه لها وطموح عينه عنها ﴿أو إعراضاً﴾ بأن لا يكلمها ولا يأنس بها، وهي حريصة على البقاء في عصمته فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل منها ذلك فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا حرج عليه في قبوله منها، مادام قد تصالحا على ذلك، وقد قرأ عاصمٌ وحمزة والكسائي ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وقرأ الباقر: ﴿أَنْ يَصَّالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بفتح الياء وتشديد الصاد وفتح اللام، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: فلا حرج على الزوجة والزوج أن يوقعا بين نفسيهما صلحاً، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: فلا حرج على الزوجة والزوج أن يتصالحا بينهما صلحاً حيث تتنازل المرأة عن حقها أو بعضه ويقبل الرجل منها ذلك على أن يمسكها في عصمته. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي والصلح بترك بعض الحق استدامة للرابطة الزوجية وتماسكاً بعقد النكاح خير من الفرقة والطلاق لأن الوفاق أحب إلى الله من الفراق. قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك ﴿خيرٌ﴾ أي خير من الفرقة، فإن التماذي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر، وقال عليه السلام في البغضة: إنها الحالقة يعني حالقة الدين لا حالقة الشعر اهـ وقد

روى أبو داود والترمذي وقال : هذا حديث صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال : قلنا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الخالقة . ومعنى قوله ﷺ : هي الخالقة أي هي الماحية المزيللة للمثوبات والخيرات . هذا ولا ينبغي للزوجة أن تعتبر الزوج معرضاً عنها بمجرد الصدود عنها فإن مطلق الإعراض والصدود قد يحدث للإنسان مع من يحب كما قال الشاعر :

إني لَأَمْتَحُكِ الصُّدُودَ وإنني قَسَمًا إليك مع الصَّدود لَأَمْتِيلُ
بل المراد : الإدبار عنها بالكلية . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ ﴾ أي وقد جبلت أنفس النساء على شدة الحرص على أنصباتهن من أنفس أزواجهن وأموالهم ، فشح المرأة بنصيبتها من زوجها في المبيت والنفقة ملازمٌ لها كأنه حاضرها لا يغيب عنها ولا تكاد تنساه . قال ابن جرير رحمه الله : والشح : الإفراط في الحرص على الشيء ، وهو في هذا الموضع : إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقته اهـ وفي قوله عز وجل هنا : ﴿ وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ ﴾ تنبيه للزوجين بأن يحذرا من اتباع الهوى ، وتحريض لهما على الصلح ، فإن من حارب شح نفسه أفلح ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَحْسَنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ﴾ حُصُّ للزوجين على أن يحسن كل واحد منهما صحبة الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يخاف الله عز وجل فيه بعد أن شرع لهما جواز تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه قبله في مقابلة بقاء عقدة النكاح لما في ذلك من المصالح كرجبة سودة بنت زمعة في أن ترافق رسول الله ﷺ في الجنة وتحشر في نسائه ﷺ ورضى الله عنهن جميعا ، وقد يكون للمرأة أولاد من هذا الزوج وترضى بالبقاء في عصمته لتكون

بالقرب منهم لترعاهم وتحسن إليهم ، وفي سبيل ذلك تتنازل للزوج عن حقها عليه أو عن بعض حقها . وفي قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَعَدَ بِحَسَنِ الْمَثُوبَةِ الْمُحْسِنِينَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَعِيدَ بِالْعُقُوبَةِ لِلْمُسِيئِينَ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ اللَّهَ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۝ أَي وَلَنْ تَقْدَرُوا أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ عِنْدَ تَعَدُّدِ زَوْجَاتِكُمْ أَنْ تَقِيمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ بَيْنِ الضَّرَائِرِ مَهْمَا حَاوَلْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا الْعَدْلَ بَيْنَهُنَّ ، لأنكم بحكم جبلتكم وطبيعتكم لن تستطيعوا أن تساووا بين الضرائر من جميع الوجوه لتفاوت النفوس في الميول والشهوات والغرائز الجنسية ، والله تبارك وتعالى إنما يكلفكم من العمل ما تطيقون ، ولا يحملكم ما لا تستطيعون ، وميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من غيرها مما لا يدخل تحت طاقة الإنسان وقدرته ، غير أنه لا يجوز للزوج إذا أحب إحدى زوجاته أكثر من الأخرى أن يندفع وراء هذا الحب فيجور على من كان ميله لها أقل ويتركها كأنها معلقة بين السماء والأرض فهي محرومة من الصعود أو الاستقرار والمراد تركها كأنها ليست متزوجة وليست مطلقة ، وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا كرهوا المرأة أهملوها بالكلية وصارت كالشيء المعلق الذي لا يستفاد منه ، ومنه ما جاء في حديث أم زرع : قالت الثالثة : زوجي العشيق ، إن أنطق أطلق ، وإن أسكت أعلق . والأصل وجوب العدل في المبيت والنفقة وهذا شيء في مقدور الإنسان بخلاف الحب والميل الغريزي ، ولذلك روى أحمد وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك . يعني القلب ، وقد تواعد الإسلام من يجور من الأزواج في هذا القسم المقدور عليه ، فقد روى أبو داود والترمذي

والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط . فإذا تصالح الزوج والزوجة على إمساكها مع ترك حقها في القسم وكان الزوج على خوف من الله عز وجل وتقوى فلاحرج عليه كما تقدم ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيمًا﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا .
 والله ما في السموات وما في الأرض ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
 قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . والله ما في السموات وما في الأرض ، وَكَفَى
 بِاللَّهِ وَكِيلًا . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ
 قَدِيرًا . مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ
 سَمِيعًا بَصِيرًا . ﴿

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى الزوجة إذا أحست من زوجها نشوزا أو
 إعراضا أنه لا حرج عليها ولا على زوجها إذا تصالحا على أن تتنازل الزوجة
 لزوجها عن حقها أو بعض حقها قبله مقابل بقائها في عصمته مادام الزوج
 يوافقها على ذلك ، وحضهما تبارك وتعالى على الصلح ، وبين لهما أن الصلح
 خير ، مع تنفير الزوجة والزوج من الشح الذي قد يحول بين الزوجين وبين
 التصالح الذي قد يثمر بقاء عقدة النكاح وجمع الشمل بين الزوجين . وحذر
 الزوج أشد التحذير من الجور على الزوجة وإهمالها حتى تصير كالمعلقة التي
 لا هي أيم ولا هي متزوجة ، أشار عز وجل هنا إلى الحالة التي يبلغ فيها
 النفور بين الزوجين إلى حد لا يتمكن فيه الزوجان من إقامة حدود الله التي
 رسمها لكل واحد منهما ، وأن بقاء عقدة النكاح في هذه الحالة لن تزيدهما إلا
 نفورا وتقصيرا في حق بعضهما وارتكاب بعض المآثم والمعاصي مما يجعل
 الطلاق خيرا من بقاء الحياة الزوجية لأن بقاء الحياة الزوجية حينئذ لا يجلب
 لهما إلا نكد العيش ومرارة الحياة كما قال الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
 لذلك طمأن الله تبارك وتعالى الزوجين هنا بأنه لن يضيعهما ، وأنه سيجود

على كل واحد منهما من واسع عطائه بما يغنيه عن صاحبه الذي لم يتمكن معه من إقامة حدود الله التي رسمها للحياة الزوجية السعيدة حيث يقول تبارك وتعالى هنا: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾. قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أبت المرأة التي قد نشز عليها زوجها — إذ أعرض عنها بالميل منه إلى ضررتها لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميل النفوس له إليها — الصلح بصفحتها لزوجها عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه وأبى الزوج الأخذ عليها بالإحسان الذي ندبه الله إليه بقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. وإلحاقها في القسم لها والنفقة والعشرة بالتي هو إليها مائل، فتفرقا بطلاق الزوج إياها ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ يقول: يغن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه، فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق أوسع وعصمة، وأما هذا، فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ يعني: وكان الله واسعاً لهما في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها، وفي غير ذلك من أحكامه وتدبيره وقضاياه في خلقه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وجميع ما في السموات وما في الأرض لله تبارك وتعالى ملكاً ومُلكاً، فهو المالك الحاكم في السموات وجميع العالم العلوي وهو المالك الحاكم في الأرض وجميع العالم السفلي، فلا يوجد شيء في السموات أو في الأرض إلا وهو في ملك الله وتحت سلطانه يتصرف فيه كيف يشاء ويحكم فيه بما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وفي هذا طمأنة لقلب الزوجين المتفارقين بأن مالك السموات والأرض

وملكهما الذي يعلم السر والنجوى لن يضيع أحدا من الزوجين اللذين تفارقا خوفا من تضييع حدود الله التي رسمها للحياة الزوجية السعيدة وأن التفارق لم يكن بطراً ولا اتباعاً للشهوات الجاحمة والطيش والتهور، والملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر مالكيته للسموات والأرض في هذا «الثمن» أربع مرات حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ في الآية السادسة والعشرين بعد المائة، وقال هنا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.﴾ في الآيتين الواحدة والثلاثين بعد المائة والثانية والثلاثين بعد المائة. ولاشك أن ذكره لمالكيته للسموات والأرض في هذه المواضع يقتضي تقريره وتأكيدَه لِمُضمون ما يقع هذا الذكر في حيزه، وقد أشار إلى ذلك ابن جرير رحمه الله حيث قال: يعني بذلك جل ثناؤه: والله جميع ملك ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها، وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ تنبيهاً منه خَلَقَهُ على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كل ذي وحشة أهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي ولقد أمرنا جميع أهل الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن العظيم كما أمرناكم في القرآن الكريم بتقوى الله تبارك وتعالى، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والخوف منه في السر والعلن، والحذر من معاصيه وتعدى حدوده، وإسلام الوجه لله

وحده، واتباع رسله، وذلك هو الدين الحق الذي بعث الله به جميع الرسل
 وأنزل به جميع الكتب، وهو ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، فإن تطيعوا الله
 ورسوله محمداً ﷺ تهتدوا وتفلحوا وتفوزوا بسعادة الدارين، وإن تكفروا فلن
 تضروا إلا أنفسكم ولن تضروا الله شيئاً لأنه غني حميد، لا تنفعه طاعة
 الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذلك قال هنا: ﴿وإن تكفروا فإنَّ
 الله ما في السموات وما في الأرض، وكان الله غنياً حميداً﴾ أي وإن تعرضوا
 عن وحي الرحمن، وتنقادوا إلى وسوسة الشيطان، فلن تضروا من له ملك
 السموات والأرض، الذي يؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز
 من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء
 ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لأن الخلق خلقه، هم
 الفقراء إليه، وهو الغني عنهم، وهو المحمود لذاته، وصفاته، وأفعاله،
 المستحق للحمد في السراء والضراء، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في
 غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله
 والله هو الغنيُّ الحميدُ. إن يشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وما ذلك على
 الله بعزيز﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض
 جميعاً فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حميدٌ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن يتولَّ فإنَّ الله هو
 الغنيُّ الحميدُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم
 بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِرُوا وتَوَلَّوْا، واستغنى الله، والله غَنِيٌّ حميدٌ.﴾
 وكما قال عز وجل: ﴿له ما في السموات وما في الأرض، وإنَّ الله هو الغنيُّ
 الحميدُ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض، وكفى
 بالله كيلاً.﴾ هذا تأكيد لما لكفته عز وجل لجميع ما حوت السموات
 والأرض وبيان لحفظه عز وجل لخلقه ولتدبيره إياهم على ما يريد، وأنه القائم
 على كل نفس بما كسبت، الرقيب الحفيظ الشهيد على كل شيء، وقوله

تبارك وتعالى : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ﴾ ، وكان الله على ذلك قديرا . ﴿تقرير وتأکید لتمام قدرته ، وكمال مشيئته ، وتهديد لأعدائه بأنه لو أراد استئصالهم لاستأصلهم ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، ولا يمتنع عليه شيء ، ولا يعجزه إذهاب الكافرين وإفناؤهم وتبديلهم بناس صالحين يؤيدون رسله ، ويؤمنون بكتبه ، كما قال عز وجل : ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . وما ذلك على الله بعزيز . ﴿وكما قال عز وجل : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ . هذا ترغيب للمنحرفين عن الصراط المستقيم بالرجوع إليه ، وتوجيههم إلى الإقبال على الله عز وجل ، وتأنيب لمن كان لا هم له إلا حطام الحياة الدنيا بأنه لو أراد الخير لنفسه لم يقتصر على ثواب الدنيا الذي لا بقاء له ولا دوام ، بل جعل همته متعلقة بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول ، على أن كل نعيم في الدنيا والآخرة إنما هو بيد الله وحده الذي له ملك السموات والأرض ، وله الدنيا والآخرة ، كما قال عز وجل : ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ . على أن طلاب الدنيا وحدها لا يحصل لهم كُلُّ ما يريدون ، بخلاف طلاب الآخرة فإنه يحصل لهم كل ما يريدون ، وفوق ما يريدون ، كما قال عز وجل : ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ . تذييل لتوبيخ المرائين ، وتنبيههم إلى أن أعمالهم لا تخفى على السميع البصير .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .﴾

لما كان القرآن العظيم إنما أنزل على رسول الله ﷺ لدلالة الخلق على الحق ، وإقامة العدل ، كما قال عز وجل : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذه السورة المباركة صوراً مشرقة رسم فيها حقوق النساء واليتامى وبخاصة يتامى النساء والوالدين وذوي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، والمماليك ، وأوجب على جميع المكلفين تقوى الله عز وجل وضرورة الاحتكام إلى شريعته والكفر بالطاغوت ، ونبه عباده إلى أنه وصى جميع الأمم بتقوى الله عز وجل ، الذي له ما في السموات وما في الأرض الغني الحميد ، المهيمن على جميع خلقه ، القادر على كل شيء الذي بيده وحده ثواب الدنيا والآخرة ، وجَّه الخطاب هنا للمؤمنين حيث أمرهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، وأن يلتزموا بذلك في جميع أحوالهم وأقوالهم مهما كانت ، وأن الله تبارك وتعالى أولى بجميع العباد من أنفسهم ، وأنه لا يجوز أن يحول الهوى دون إقامة الحق والعدل ، وفي ذلك يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴿١﴾ أي يامعشر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ، المصدقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، احرصوا أشد الحرص، وابدلوا كل ما في وسعكم لإقامة العدل وإزالة الجور والظلم، ولا تعدلوا عن العدل يمينا أو شمالاً، ولا تأخذكم في إقامة لومة لائم، ولا يصرفكم عنه صارفٌ مهما كان، وأقيموه حتى على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، ولا تنحرفوا عنه من أجل غنى غنيٍّ، أو فقر فقير، فالله عز وجل أولى بكل إنسان من نفسه، إذ هو رب الجميع وسيدهم ومالكهم ورازقهم والمهيمن عليهم، واجتهدوا غاية الاجتهاد أن تكون إقامتكم للعدل ابتغاء وجه الله ورغبة فيما عنده من جميل المثوبة وعظيم الأجر، وطلباً لمرضاته، وهو وحده الذي بيده ثواب الدنيا والآخرة، وقولوا الحق ولو كان مرأً فإنه أحلى عاقبة ومآلاً، إذ بالعدل قامت السموات والأرض، والمراد بكون الإنسان قواماً بالقسط شهيداً لله على نفسه أو والديه والأقربين هو أن يقر الإنسان بما عليه من حق لغيره، أو أن يقر بما على والده أو والدته أو أقاربه من حق للغير تحقيقاً للعدالة وإقامة للقسط، ولا نزاع عند أهل العلم في جواز شهادة الإنسان على والديه أو أقاربه بما يعرفه من الحقوق عليهم، ولا تعتبر الشهادة على الوالدين والأقربين من باب قطيعة الرحم بل هو من باب صلة الرحم بتخليصهم من أسباب سخط الله، وعقوبته لمن أكل الحقوق وضيعها، فهي إعانة لهم وليست إعانة عليهم، وهذا بخلاف الشهادة لهم فإنها لا تقبل من الإنسان لنفسه أو لوالديه أو أقاربه دفعاً للتهمة، وكما يجب ويتحتم على المؤمن أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على نفسه أو والديه أو أقاربه فإنه يجب ويتحتم عليه أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على عدوه، وأن يلتزم بالعدل في الرضا والغضب والحب

والبغض وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى القائمين بالقسط بأن يجعل لهم منابر من نور يوم القيامة ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا . كما توعّد تبارك وتعالى القاسطين الجائرين بأنهم يكونون حطب جهنم يوم القيامة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . ﴾ وحذر عز وجل من اتباع الهوى وبين أنه يضل عن سبيل الله حيث يقول عز وجل : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ . ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصية وحب من تحبون أو بغض من تبغضون على ترك العدل في أموركم وشئونكم بل الزموا العدل وقوموا بالقسط في جميع أحوالكم وقضاياكم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : تلووا أي تحرقوا الشهادة وتغيروها ، واليُّ هو التحريف وتعمد الكذب ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ الآية ، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ وقال النبي ﷺ : خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها ، ولهذا توعدهم الله بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . ﴾ أي وسيجازيكم بذلك اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ

يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. ﴿١﴾ هذا الخطاب الكريم يشمل المؤمنين حقاً، وليس المقصود منه تحصيل الحاصل، بل المراد حضُّ المؤمنين على الثبات على الإيمان وأركانه والإعلام بأن من ضيع منها ركناً فقد كفر وضل ضلالاً بعيداً، كما يشمل من آمن من المنافقين ثم مرض قلبه ووافق كما أشار إلى ذلك المثل الذي ضربه الله عز وجل للمنافقين في أوائل سورة البقرة حيث قال عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.﴾ ﴿٢﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل هنا في الآية التي تلي هذه الآية حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا.﴾ الآية. ثم قال بعدها مباشرة: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.﴾ والمراد من توجيه الخطاب لهم في هذا المقام هو ترغيبهم في الإيمان الدائم ودعوتهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب وتعريفهم بأركان الإيمان، كما يشمل الخطاب الكريم هنا أهل الكتاب الذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، والمقصود من مخاطبتهم حضهم على الإيمان المطلق وتعريفهم بالإيمان النافع، وإرشادهم إلى أركان الإيمان، وأن من ضيع ركناً منها فقد ضل ضلالاً بعيداً. والمقصود بالكتاب الذي نزل الله على رسوله هو القرآن العظيم المنزل على محمد ﷺ، والمقصود بالكتاب الذي أنزل الله من قبل هو جميع الكتب المنزلة على المرسلين قبل نزول القرآن، فالمراد بالكتاب هو جنس الكتاب المنتظم لجميع الكتب السماوية السابقة، فهو وإن كان لفظه مفرداً فالمقصود منه العموم كلفظ الطفل في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ إذ المقصود بالطفل هنا هم الأطفال وقد ذكرت هذه الآية الكريمة خمسة من أركان الإيمان الستة التي بيّنها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عندما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان

وعلم الساعة ، حيث أجابه عن سؤاله : ما الإيمان؟ فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره كما جاء في لفظ مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحدٌ ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق ، فلبثت ملياً ، ثم قال لي : يا عمر ، أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . ففي هذا الحديث الصحيح ذكر أركان الإيمان الستة بزيادة ركن الإيمان بالقدر خيره وشره عما ذكرته الآية الكريمة ، ومن المسلّمات أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليهم كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيْتَتُونَهُمْ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالثبات على الإيمان وأركانها وأعلمهم بأن من ضيَّع ركناً من هذه الأركان فقد كفر وضل ضللاً بعيداً، ورجب المنافقين الذين لاحت لهم أنوار الإيمان ثم مرضت قلوبهم وعميت بأن يرجعوا عن ضلالهم ويستمروا على الإيمان الدائم، ودعاهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب بين الإيمان والكفر، وعرفهم بأركان الإيمان، وحض أهل الكتاب الذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبياء ويبعض الكتب السماوية ويكفرون ببعض الأنبياء ويبعض الكتب السماوية ودعاهم إلى الإيمان المطلق، وعرفهم بالإيمان النافع، وأرشدتهم إلى أركان الإيمان، حذر هنا أشد التحذير من التذبذب بين الإيمان والكفر، وتوعد من فعل ذلك واستمر عليه ولم يثبت على الإيمان إلى الموت بأن الله لن يغفر له ولن يهديه سبيلاً حيث يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . ﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا: قيل لنفاقهم، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفْرًا﴾ وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا.﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا، قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره، فلم يَزِدْ بل نقص، بخلاف المصر إلى حين المعاينة، فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه، وفي الآية الأخرى قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه، فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يارسول الله أنؤاخذ بها عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم

يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر. فلو قال: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك، وهو المرتد التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يُغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا، فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. هذا وعيد شديد لمن استمر على نفاقه ولم يرتدع بالتحذير والإنذار الذي ذكره الله عز وجل في الآية السابقة تخويفا للمذبذبين بين الإيمان والكفر، ومعنى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي وأخبر أيها الرسول العظيم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإسلام خبراً مؤلماً موجعاً يظهر أثره على بشرة وجوههم حتى تنكمش حزنا وألما بما أعد الله عز وجل لهم من العذاب في نار جهنم. وأصل البشارة الخبر بما يسر أو يسوء مما يظهر أثره على البشرة حيث تنطلق الأسارير عند سماع الخبر السار، وتنكمش وتتجعد عند سماع الخبر المحزن المفجع المؤلم، والبشرة هي ظاهر الجلد. وأكثر ما تستعمل البشارة في الخبر السار، فإذا استعملت في الخبر المسيء المحزن قُيدت بما يدل عليه كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وكقوله عز وجل هنا: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أُلْبِغُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. بيان لصفة من صفات المنافقين الذين أمر رسول الله ﷺ أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما، وإبراز للعلة التي دعت هؤلاء المنافقين إلى أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين حيث ظن هؤلاء المنكوسون المركوسون أن موالاتهم لليهود تجلب العزة والقوة والمنعة لهؤلاء الرعايد

المنافقين ، وهم في هذا كالغريق يتعلق بالغريق ، فإن الله تبارك وتعالى كتب الذلة والمسكنة على اليهود وضربها عليهم أينما ثقفوا ، والعزة لله وحده ، فهو الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، وقد أعلن أن العزة والغلبة والمنعة والقوة قد كتبها عز وجل لأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين كما قال عز وجل : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ، وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لِنُرجِعَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْوَسِيلُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ فمن أراد العزة فليطلبها من الله ، وليعتصم بحبله ، كما قال عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۝ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝ ﴾ تحذير للمسلمين من مجالسة من يظهر الكفر بآيات الله أو من يستهزئ بها ، وأنه لا يحل لمسلم أن يقعد معهم إلا إذا كفوا ألسنتهم عن إظهار الكفر بآيات الله وعن الاستهزاء بها ، وأن من جالس هؤلاء الكافرين والمستهزئين بآيات الله راضيا بعملهم مقرًا لهم فهو كافر مثلهم مشارك لهم في المآثم والمعاصي مركوس معهم في نار جهنم حيث يجمع الله فيها المنافقين والكافرين جميعا . والذي نزل الله في الكتاب للتحذير من مجالسة الذين يظهرون الكفر بآيات الله أو الاستهزاء بها هو قوله عز وجل في سورة الأنعام : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ والمراد بآيات الله في هذا المقام هو القرآن العظيم والذكر الحكيم ، أي وإذا سمعتم الكفر بآيات الله أو سمعتم الاستهزاء بها في مجلس

فلا تجلسوا مع الكافرين بآيات الله أو المستهزئين بها حتى يتركوا هذا الكفر وهذا الاستهزاء، وقد أوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام أي سمعت اللوم في عبد الله. وهذه الآية الكريمة وإن كانت مسوقة للتحذير من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه فقد حملها كثير من الأئمة على النهي كذلك عن مجالسة أهل الباطل الذين يُظهرون باطلهم في مجلسهم ويتبجحون به. قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي غير الكفر ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم، وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأولوا منهم هذه الآية أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه، ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ حدثني المثنى قال حدثنا إسحاق

قال : حدثنا عبد الله بن إدريس عن العلاء بن المنهال عن هشام بن عروة
قال : أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب فضربهم ، وفيهم صائم ،
فقالوا : إن هذا صائم ، فتلا : ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث
غيره ، إنكم إذا مثلهم ﴾ اهـ .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرٍ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يبشر المنافقين بما أعد الله لهم من العذاب الأليم ، وذكر بعض صفاتهم القبيحة ، وحذر المسلمين من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه شرع يبين هنا مزيداً من صفات المنافقين البشعة فقال عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرٍ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين ينتظرون ما يحل بكم من نصر أو هزيمة فإن فتح الله لكم ونصركم على أعدائكم وجعل لكم الظفر والغلبة وغنمتم تظاهروا بأنهم معكم وتوددوا إليكم بألستهم ، وإن كانت الجولة للكاferين على المؤمنين وأصابتكم هزيمة ابتلاء وامتحاناً توددوا للكاferين وازدلفوا إليهم ، وادعوا لهم أنهم إنما انتصروا على المسلمين بسببهم حيث أحاطوهم وصاروا كأنهم حصن لهم ولم يمكنوا المسلمين منهم ، فهؤلاء المنافقون جبناء رعايد ، لا هم لهم إلا أن يسانعوا من تكون الجولة له ، فهم كالنبات المعروف باسم «عباد الشمس» الذي يوجه وجهه إلى جهة الدفء والشمس ، وقد فضح الله عز وجل خبيثتهم ، ونبه المسلمين إلى أن يبيّنوا للمنافقين أن المسلمين على خير عظيم سواء كانت الجولة لهم أو كانت عليهم ، فهم على إحدى الحسنيين : إما النصر على أعداء الله وإما الشهادة

في سبيل الله ، والعاقبة للمتقين ، حيث يقول عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ
 بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
 أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
 بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي فالله تبارك وتعالى يقضي بين عباده يوم القيامة وهو عز
 وجل لا تخفى عليه خافية ، فلا تغتروا أيها المنافقون ولا تظنوا أن حقن
 الإسلام لدمائكم ورفع السيف عنكم في الحياة الدنيا ومعاملتكم معاملة
 المسلمين ينجيكم من عقاب الله يوم القيامة الذي تبلى فيه السرائر وينكشف
 ما في الضمائر ، وإنما أجرى الإسلام عليكم أحكام المسلمين في الحياة الدنيا
 ظاهرا لإظهاركم الإسلام . والله الحكمة البالغة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنْ
 يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما
 قوله : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يجعل الله للكافرين على المؤمنين
 سبيلا . ﴾ فلا خلاف بينهم في أن معناه : ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على
 المؤمنين سبيلا ، ذكر الخبر عن ذلك : حدثنا ابن وكيع قال : حدثنا
 جرير عن الأعمش عن ذرٍّ عن يُسَيعِ الحضرمي قال : كنت عند علي ابن أبي
 طالب رضوان الله عليه فقال رجل : يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله : ﴿ وَلَنْ
 يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟
 قال له عليٌّ : ادنه ادنه ثم قال : ﴿ فَاللَّهُ يحكم بينكم يوم القيامة ، وَلَنْ يجعل
 الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ يوم القيامة ، حدثنا الحسن بن يحيى قال
 أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا الشوري عن الأعمش عن ذرٍّ عن يسيع
 الكندي في قوله : ﴿ وَلَنْ يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . ﴾ قال :
 جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية : ﴿ وَلَنْ يجعل الله
 للكافرين على المؤمنين سبيلا . ﴾ ؟ فقال علي : ادنه : ﴿ فَاللَّهُ يحكم بينكم يوم
 القيامة ، وَلَنْ يجعل الله ﴾ يوم القيامة : ﴿ للكافرين على المؤمنين سبيلا . ﴾

اهد وفي هذا ردع للمنافقين وترهيب لهم من موالاة الكافرين ببيان أن ما قد يحدث من جولة للكافرين على المؤمنين في بعض الأحيان فلا دوام له ولا بقاء، لأنه إنما يحدث للابتلاء وتكون العاقبة للمؤمنين، إذ العز الأبدي والنصر السرمدي فإنه للمؤمنين وحدهم يوم القيامة، ولن يكون للكافرين فيه جولة أبداً على المؤمنين، فلا توالوا الكافرين أيها المنافقون لأن دولتهم لا دوام لها، ووالوا المؤمنين أصحاب العز الأبدي والنعيم السرمدي. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا.﴾ هذا بيان لطرف آخر من قبائح أعمال المنافقين وكشف لما هم عليه من الجهل ونقص العقل وقلة العلم، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة في وصف المنافقين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ.﴾ أن هذا بيان جلي لما عليه المنافقون من جهلهم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنون بالله ظن السوء ويحسبون أنه تجوز عليه حيلهم وأنه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك، وأنهم ينجون من عذابه إذا نطقوا بالشهادتين وإن خالف ذلك سريرتهم وطويتهم وأنهم يحسبون أنه يروج على الله كما قد يروج على بعض المؤمنين، والواقع أن خداعهم إنما يرجع وباله عليهم وحدهم، وأن الله تعالى يدفع عن المؤمنين مكرهم ويدراً في نحورهم ولذلك قال عز وجل في سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالآيمان الكاذبة الفاجرة كما كانوا يفعلون ذلك مع المؤمنين في الدنيا حيث كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقون بالإسلام وأنهم

يشهدون أن محمدا رسول الله واتخذوا أيمانهم جنةً وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ .﴾ والخِداع أن يوهم الإنسان صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يشعر، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك . اهـ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿وهو خادعهم﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وبئس المصير .﴾ وقد ورد في الحديث : من سَمِعَ سَمَعَ الله به ، ومن رايَا رايَا الله به . اهـ وقوله عز وجل : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ بيان لتباطؤهم وتشاغلهم وتكاسلهم إذا قاموا إلى أفضل الأعمال وأشرفها بعد الشهادتين وهي الصلاة ، لا ينشطون لها ولا يفرحون بها بل هي ثقيلة عليهم ، وهذه الصفة من أخص صفاتهم الظاهرة كما قال عز وجل : ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق الأعمش قال : حدثني أبو صالح عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ، ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبواً ، لقد هممت أن أمر المؤذن فيقيم ، ثم أمر رجلا يؤم الناس ، ثم أخذ شُعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد . وأخرجه مسلم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بَيْتَهُمْ بِالنَّارِ . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ثقل

الصلاة على غير النبيين إلى الله حيث يقول : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة
 وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث
 أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تلك صلاة
 المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها
 أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا
 يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ كشف
 لخبث بواطنهم وفساد سرائرهم وانحراف طوياتهم وكفرهم بالله واليوم الآخر
 وحيرتهم في سلوكهم ، وانغماسهم في الشك والتردد والتذبذب . فهم إن
 حضروا الصلاة أو عملوا شيئا من المعروف فعلوا ذلك رياء وسمعة لا رغبة
 فيما عند الله ، ولا يكاد يخطر على بالهم ذكر الله وهم ليسوا مع المؤمنين ظاهرا
 وباطنا ، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا ، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم
 مع الكافرين وهم أشبه شيء بالشاة العائرة بين الغنمين أي المتحيرة المترددة
 لا تدري أي الغنمين تتبع فهي تكرر في هذه مرة وفي هذه مرة لا تستقر على
 حال كما وصفهم بذلك أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم محمد رسول
 الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن
 النبي ﷺ قال : مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة
 وإلى هذه مرة . وفي لفظ : تكرر في هذه مرة وفي هذه مرة . وقوله تبارك وتعالى :
 ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ . تذييل لبيان أسباب حيرتهم وذبذبتهم
 إذ حرمهم الله عز وجل من توفيقه ، وخذلهم فلم يسددهم ، ومن يضلل الله
 فلا هادي له .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .
مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنَّ شُكْرَكُمْ وَأَمْنَتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا . ﴿

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بأن لهم عذابا
أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وأوضح بعض صفات
المنافقين التي فضحتهم ، وجه الخطاب هنا للمؤمنين وحذرهم أن يتخذوا
الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يامعشر من استجاب لله
ولرسوله ﷺ وأقر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره :
لا تجعلوا أعداء الله ورسوله بطانتكم وخاصتكم ، ولا تصاحبوهم ولا
تصادقوهم ولا تسروا إليهم بالمودة ، ولا تفشوا إليهم أسرار المؤمنين ، لأنهم لا
يألونكم خبالا ، ودُّوا ما عنتهم ، وقد أعقب الله تبارك وتعالى نهي المؤمنين عن
اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بتحذيرين شديدين رادعين أشد الردع
عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين الأول منهما قوله عز وجل :
﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ والثاني منهما قوله عز وجل :
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .﴾ وقد أفاد
التحذير الأول من هذين التحذيرين أن من ادعى الإيثار وهو موال
للكافرين فهو كاذب في دعواه سالك سبيل المنافقين ساع في تعريض نفسه
لعقوبة الله وعذابه الذي يسلطه عز وجل على أعدائه من المنافقين
والكافرين ، وأفاد التحذير الثاني أن عقوبة المنافقين يوم القيامة هي أشد

العقوبات التي لن يستطيع أحد دفعها عنهم ، وهم وإن جمعهم الله في جهنم مع الكافرين لكنهم يكونون في الدرك الأسفل من النار، ومعنى : ﴿أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا .﴾ أي أتحبون أن تعرضوا أنفسكم لغضب الله وعذابه بإيجابكم الحجة الظاهرة على أنفسكم بأنكم مستحقون لسخط الله وأليم عقابه حيث واليتم أعداءه ، وقد علمتم أن من وإلى أعداء الله فليس من الله في شيء كما قال عز وجل : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .﴾ والمراد بالدرك الأسفل من النار هو الطبقة الأسفل من أطباق جهنم وقعرها السحيق ، قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الطَّبَقِ الْأَسْفَلِ مِنَ أطباق جهنم وكل طبقٍ من أطباق جهنم «درك» وفيه لغتان : دَرَكٌ بفتح الراء ودَرَكٌ بتسكينها اهـ وظاهر القرآن الكريم يشعر أن المنافقين وآل فرعون يكونون في قعر جهنم وفي أشد العذاب كما قال عز وجل : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .﴾ وبعد هذا الترهيب من سلوك طريق المنافقين رغب الله عز وجل المنافقين ومن نحا نحوهم وسلوك منهجهم في التوبة إلى الله عز وجل والرجوع إليه وإصلاح أعمالهم ، والاعتصام بالله عز وجل ، وإخلاص الدين لله ، وبشرهم بأن من أقلع عن النفاق وتاب إلى الله عز وجل وأصلح أعماله واعتصم بالله وأخلص دينه لله فسيحشره الله عز وجل مع المؤمنين الذين يمنحهم من فضله الأجر الجزيل والثواب الجميل يوم القيامة ، ويسعى نورهم على الصراط بين أيديهم وبأيامهم ، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا .﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق

الأعمش قال : حدثني إبراهيم عن الأسود قال : كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا، فسلم ثم قال : لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم، قال الأسود : سبحان الله، إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرق أصحابه، فرماني بالحصى، فأتيته، فقال حذيفة : عجبت من ضحكك، وقد عرف ما قلت، لقد أنزل النفاق على قوم، كانوا خيرا منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم والمراد بعبد الله في هذا الحديث : هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإنما تبسم رضي الله عنه عند سماع كلام حذيفة رضي الله عنه لأنه عرف مراد حذيفة وصدق مقالته وأن مقصوده ألا يغتر الإنسان بما هو عليه من الاستقامة والصلاح لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء فلا ينبغي للعبد أن يأمن مكر الله قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث : قوله «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم» أي ابتلوا به لأنهم كانوا من طبقة الصحابة، فهم خير من طبقة التابعين لكن الله ابتلاهم فارتدوا، وناققوا فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأن حذيفة حذر الذين خاطبهم وأشار لهم ألا يغتروا، فإن القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان، لأن الأعمال بالخاتمة، وبيّن لهم أنهم وإن كانوا في غاية الوثوق بإيمانهم، فلا ينبغي لهم أن يأمنوا مكر الله، فإن الطبقة الذين من قبلهم وهم الصحابة كانوا خيرا منهم، ومع ذلك وجد بينهم من ارتد وناقق، فالطبقة التي هي من بعدهم أمكن من الوقوع في مثل ذلك، وقوله «فتبسم عبد الله» كأنه تبسم تعجباً من صدق مقالته اهـ والاستثناء في قوله عز وجل : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية يدل على أن من ارتكب ذنباً مهما كان ثم تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحاً وأصلح واعتصم بالله

وأخلص دينه لله فإن الله عز وجل يتوب عليه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما . ﴾ قال أبو جعفر : وهذا استثناء من الله جل ثناؤه ، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا ، وأخلصوا الدين لله وحده ، وتبرأوا من الآلهة والأنداد ، وصدقوا رسوله ، أن يكونوا مع المصرين على نفاقهم حتى توافيهم مناياهم — في الآخرة ، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم ، بل وعدهم جل ثناؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة ، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة ، ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء فقال : ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما . ﴾ قال أبو جعفر : فتأويل الآية : ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ أي راجعوا الحق ، وآبوا إلى الإقرار بوحدانية الله ، وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم ، ﴿ وأصلحوا ﴾ يعني : وأصلحوا أعمالهم فعملوا بما أمرهم الله به ، وأدوا فرائضه ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، وانزجروا عن معاصيه ، ﴿ واعتصموا بالله ﴾ يقول : وتمسكوا بعهد الله ، وقد دللنا فيما مضى قبل على أن الاعتصام التمسك والتعلق فالاعتصام بالله : التمسك بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته وترك معصيته ، ﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ يقول : وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله فأرادوه بها ، ولم يعملوها رياء الناس ، ولا على شك منهم في دينهم وامترأ منهم في أن الله محص عليهم ما عملوا ، فمجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه ، وجزاء المسيء على إساءته ، أو يتفضل عليه فيعفو ، متقربين بها إلى الله ، مريدين بها وجه الله ، فذلك معنى

إخلاصهم لله دينهم . ثم قال جل ثناؤه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول :
فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين بعد توبتهم ، وإصلاحهم ،
واعتصامهم بالله ، وإخلاصهم دينهم ، أي : مع المؤمنين في الجنة ، لا مع
المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم ، الذين أوعدهم الدرك الأسفل من النار .
ثم قال : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يقول : وسوف يعطي الله
هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله
وإخلاصهم دينهم له ، وعلى إيمانهم ثوابا عظيما ، وذلك درجات في الجنة ،
كما أعطى الذين ماتوا على النفاق منازل في النار وهي السفلى منها ، لأن الله
جل ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك ، كما أوعد المنافقين
على نفاقهم ما ذكر في كتابه اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَمْتُمْ ﴾ ، وكان الله شاكرا عليا . ﴿ هذا تقرير لما تقدم في الآية
السابقة من إثابته عز وجل التائبين وتأكيده على أنه لا حاجة لله عز وجل في
تعذيب من يعذب من العصاة وإثابة من يثيب من الطائعين لأنه عز وجل لا
تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين فهو الغني عن العالمين ،
وإنما مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم بالله ورسله وجحودهم لآلاء
الله ونعمه فمن شكر وآمن فله الجزاء الجميل ومن كفر وجحد فله العذاب
الويليل ، وما في قوله عز وجل : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَمْتُمْ ﴾
استفهامية مفيدة للنفي على أكمل وجه وأكده كأنه قيل : أي شيء يفعل الله
سبحانه بتعذيبكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ؟ أم يدرك به الثأر ؟ أم يستجلب به
نفعا وهو الغني الحميد ، أم يستدفع به ضرا وهو الفعال لما يريد ، إنما
يعذبكم بذنوبكم ، ويثيبكم بشكركم وإيمانكم ، فمن فعل خيرا فليحمد الله
ومن فعل شرا فلا يلومن إلا نفسه ، والله شاكرا للطائعين طاعتهم فيثيبهم على
العمل الصالح القليل الأجر الجميل الجزيل ، وهو العليم الخبير ولا يظلم
ربك أحدا .

قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُغْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه لا يعذب الشاكرين المؤمنين الذين أحسنوا سريرتهم بالإيمان وعلا نيتهم بالشكران، وأوماً إلى حبه لهم ولسلوكتهم لأنه لا يعذب من يحب، ولذلك رد على اليهود والنصارى لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أشار هنا تبارك وتعالى إلى حبه للقسط بين عباده وأنه لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وأنه يكره من العبد أن يجهر بالسوء من القول لأحد من الناس إلا أن يكون مضطراً إلى ذلك ببيان ظلم من ظلمه حيث لا سبيل إلى دفع ظلمه عنه إلا بذلك فإن له حينئذ أن يخبر عنه من يدفع ظلامته عنه سواء كان قد ظلمه في نفسه أو ماله حيث يقول عز وجل: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ وهو عز وجل يشير بذلك إلى أن الظالم مستحق لعذاب الله لأن الله لا يحب الظالمين، فمن جهر لأحد بالسوء من القول بلا حق كان ظالماً يشمل هذا الوعيد، ويندرج عمله ضمن الأعمال التي يبغضها الله ولا يحبها، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن مطل الغنى ظلم يحل عرضه وعقوبته فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ قال : مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع . وقال البخاري في كتاب الاستقراض من صحيحه : باب لصاحب الحق مقال ، ويذكر عن النبي ﷺ : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . قال سفيان : عرضه : يقول : مطلنتي وعقوبته : الحبس اهـ وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا عبد الله بن المبارك عن وبر بن أبي ديلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . قال ابن المبارك : يحل عرضه : يغلظ له ، وعقوبته : يحبس له . وقال النسائي : أخبرني محمد بن آدم قال : حدثنا ابن المبارك عن وبر بن أبي ديلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال : حدثنا وكيع ، قال حدثنا وبر بن أبي ديلة الطائفي عن محمد بن ميمون بن مسيكة وأثنى عليه خيرا ، عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح قول البخاري : ويذكر عن النبي ﷺ : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته : والحديث المذكور وصله أحمد وإسحاق في مسندهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه ، وإسناده حسن اهـ ومعنى : لي الواجد أي مطل الغنى . وقال ابن ماجه في الصدقات من سننه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا : ثنا وكيع ثنا وبر بن أبي ديلة الطائفي حدثني محمد بن ميمون بن مسيكة « قال وكيع : وأثنى عليه خيرا » عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . والتنصيص على التحذير من الجهر بالسوء أي من رفع الصوت بالطعن في عرض المستور لغير المظلوم هو لبيان الواقع ، فالجهر ليس قيدا بل مثله الإصرار كذلك إلا أن الجهر أشد أذى من

الإسرار، وكما يحرم الجهر بالسوء من القول فإنه يحرم الجهر بالسوء من الفعل كذلك، فقيّد القول لا مفهوم له كذلك، والتنصيص عليه لأنه الغالب. ولا شك عند أهل العلم في جواز جرح الشهود والرواة بما يعرفه الجارح فيهم من شر وسوء إقامة للقسط وحفظ للحق، ولا يحل لمسلم أن يجرح مسلماً بما ليس فيه، فقد روى البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات في باب الشهداء العدول، وقول الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ و﴿مَنْ تَرَصَّوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناً وقرباً، وليس إلينا من سريره شيء، والله يحاسبه في سريره، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه، ولم نصدق، وإن قال: إن سريره حسنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. تذييل متضمن لوعده الوقافين عند حدود الله، ولوعيد المنتهكين لحرمات الله ومقرر لمضمون ما قبله وأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه يسمع دبيب النملة ويرى حركاتها في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى هنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. وهو تحذير من التعدي في الجهر المأذون فيه، يعني: فليتق الله، ولا يقل إلا الحق، ولا يقذف مستوراً بسوء، فإنه يصير عاصياً لله بذلك، وهو تعالى سميع لما يقوله، عليم بما يضمره اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: اعلم أن معاهد الخيرات على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق وخلق مع الخلق، والذي يتعلق بالخلق محصور

في قسمين : إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم ، فقوله : ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ
تَخَفُوا﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم ، وقوله : ﴿أَوْ تَغْفُوا﴾ إشارة إلى دفع
الضرر عنهم ، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر اهـ
ومجيء كان في مثل قوله عز وجل : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ومثل قوله عز
وجل : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا قَدِيرًا﴾ لتنبية العباد بأن هذه الصفات ثابتة لله عز
وجل وهو متصف بها أزلا ولا يزال متصفا بها ، فهي صفات ذات الله تبارك
وتعالى ، قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة : مازال بصفاته قديما
قبل خلقه ، لم يزد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته
أزليا ، كذلك لا يزال عليها أبديا ، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم
الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري ، له معنى الربوبية ولا
مربوب ، ومعنى الخلق ولا مخلوق ، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق
هذا الاسم قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ، ذلك
بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج
إلى شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اهـ قال ابن أبي العز في
شرح قول الطحاوي : مازال بصفاته قديما قبل خلقه إلخ : أي أن الله
سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال : صفات الذات وصفات
الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن
صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدتها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد
حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده ، ولا يرد على هذه صفات الفعل
والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير ، والإماتة والإحياء ، والقبض
والبسط والطّي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضى ، ونحو
ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته
التي هي تأويله ، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ،

ولكن أصل معناه معلوم لنا ، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما .﴾ بعد أن حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من سلوك سبيل المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وأن هؤلاء المنافقين إن استمروا على نفاقهم إلى الموت صاروا في الدرك الأسفل من النار ، وبين عز وجل عدله مع عباده وفضله عليهم ، وأنه يكره أن يجهر أحد بالسوء من القول إلى أحد إلا من كان مظلوما فله أن يجهر ببيان ظلم من ظلمه وحض عباده على بذل الخير سراّ وعلنا ، والعفو عن المسيئين رجاء ما عند الله وترغيبا للمسيئين في الرجوع إلى الله شرع هنا يوضح السبيل المعوج الذي يسلكه أهل الكتاب وبين عز وجل حكمه فيهم حتى يرتدع المنافقون عن موالاتهم وتقليدهم ، وبين السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يسلكه المؤمنون ترغيبا لمن يريد الخير لنفسه في سلوك سبيلهم حيث ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب يكفرون بالله ورسله ويرغبون في التفريق بين الله ورسله حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله ويكفرون ببعض الأنبياء ككفر اليهود بعميسى ومحمد عليهما السلام وكفر النصارى بسيد المرسلين محمد ﷺ ويزعمون أن هذا السبيل المعوج هو سبيل الله ، وجهلوا أن الكفر برسول واحد أو بنبي واحد هو كفر بجميع أركان الإيمان ، ولذلك أخبر عز وجل أن هؤلاء هم الكافرون حقا وأنه هيا لهم عقابا مذلا لهم في نار جهنم ، وأوضح أن العبد لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع أركان الإيمان وأن

من سلك سبيل المؤمنين مبشر بعظيم الدرجات وتكفير السيئات . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه حيث يقول : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ مع أنه لم يجهنم إلا نوح عليه السلام ولكن الله عز وجل جعل تكذيب نوح تكذيباً لجميع المرسلين ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿ كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ وقوله : ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ وكذلك قوله ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ وقوله : ﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . ﴾ وكما قال في سورة القمر : ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ ﴾ وقال : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴾ .

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغِيرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ﴿

بعد الترهيب من سلوك سبيل أهل الكتاب المعوج والترغيب في سلوك طريق المؤمنين المستقيم شرع عز وجل هنا يذكر فضائح اليهود وتناقضاتهم وتعتهم مع أنبياء الله ورسله وانتهاكهم لحرمت الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق وغير ذلك من المخازي التي يندى لها الجبين مما يُنفّر من له مسكة من عقل أن يسلك سبيلهم أو أن ينقاد لهم ويواليهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى آخر هذه الآيات ، وقد ذكر الله عز وجل في هذا المقام من فضائح اليهود وقواصم

ظهورهم وكبريات جرائمهم خمس عشرة جريمة قاصمة، الأولى: تعنتهم مع شيخ المرسلين وخاتم النبيين وأفضل خلق الله أجمعين محمد ﷺ حيث طلبوا منه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يبصرون نزوله بأعينهم، يكون موجهاً إليهم بأشخاصهم يخبرهم أن محمدا هو رسول الله، وتعامى إخوان القردة والخنازير والجبت والطاغوت عن الكتاب الكريم والذكر الحكيم والقرآن العظيم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا.﴾ وقد شارك اليهود لعنهم الله إخوانهم أهل الجاهلية من مشركي قريش حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا.﴾ أما القاصمة الثانية من القواصم والجرائم التي ارتكبتها أهل الكتاب فقد وجهوها لكليم الله موسى عليه السلام الذي خلصهم الله به من العذاب المهين من فرعون، وبعد أن أمره الله فضرب لهم طريقا في البحر يبسا، وأغرق الله عدوهم فرعون وهم ينظرون، مع ما شاهدوه من المعجزات الأخرى التي أجراها الله عز وجل على يد موسى عليه السلام ومع هذه الآيات الكبرى قالوا لموسى عليه السلام: أرنا الله جهرة، ونسبة السؤال لمعاصري رسول الله ﷺ من اليهود وإن كان السائلون هذا السؤال القبيح أباؤهم الأقدمين لكن هؤلاء الموبخين راضون بما فعل آباؤهم ماشون على منهجهم، وقد وصف الله عز وجل هذه القاصمة بأنها أكبر من القاصمة الأولى حيث قال مواسيا لرسوله وحبيه محمد ﷺ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقد

تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. أما القاصمة الثالثة فهي ما ذكرها الله عز وجل بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون. ﴿وَفِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، ومعنى قوله عز وجل هنا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. أي وقد ارتكبوا هذه الجريمة الشنيعة مع مشاهدتهم لما أيد الله عز وجل به موسى عليه السلام من الحجة الظاهرة القاهرة التي تُعرّف عباد الله بجلال الله وعظمته، وأنه لا إله إلا الله، أما القاصمة الرابعة فهي عدم امثالهم لأمر الله عز وجل لما أمرهم أن يدخلوا الباب سجداً، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة البقرة، أما القاصمة الخامسة من قواصم وجرائم اليهود فهي اعتداؤهم في السبت، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين. ﴿أما القاصمة السادسة فهي دأبهم على نقض العهود والمواثيق الغليظة، والقاصمة السابعة: كفرهم بآيات الله، والقاصمة الثامنة: قتلهم الأنبياء بغير حق، وقد تقدم بيان ذلك في سورتي البقرة وآل عمران. أما القاصمة التاسعة فهي قولهم: قلوبنا غلف. وقد تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، بل لعنهم الله بكفرهم قليلا ما يؤمنون. ﴿وقال عز وجل هنا: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. والطبع الرين والختم، وقد شابه اليهود إخوانهم مشركو العرب كما ذكر الله عز

وجل عنهم حيث يقول : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ . ﴾ وقد طبع الله عز وجل على قلوب جميع الكافرين كما قال : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ﴾ أما القاصمة العاشرة فهي قولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، حيث نسبوها إلى الزنى وهي الطيبة الطاهرة العذراء البتول ، وقد جعل الله عز وجل رمي مريم بهذا البهتان كفراً كما توعد من رمى الصديقة بنت الصديق الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنهم لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، أما القاصمة الحادية عشرة فهي دعواهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وتباهيهم بذلك وافتخارهم به ، ولفظ : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ إن اعتبر من تنمة قول اليهود فهو من تهكمهم به على حد قول مشركي قريش في حق محمد ﷺ : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . ﴾ وعلى حد قول فرعون في حق موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . ﴾ كأنهم قالوا : قتلنا المسيح عيسى ابن مريم هذا الذي يدعي أنه رسول الله ، ويمكن أن يكون منصوباً بأعنى مقدرة ، تفضيلاً لعظم ما تباهوا به ، وقد أكد الله تبارك وتعالى عدم تمكنهم من قتله وأنهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما ألقى الله عز وجل شبهه على أحد الماكرين بعيسى عليه السلام فقتلوا هذا الماكر ، وأشار الله عز وجل إلى أنهم في شك من القتل ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَكْرُوهٌ لَّكَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . ﴾ أن إنجيل متى وإنجيل مرقس يقران أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه ، وسقت نص الفقرة السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من الفصل (الإصحاح) السادس والعشرين من إنجيل متى ونص الفقرة الثالثة والأربعين والرابعة والأربعين من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس ما

يجزم بأنهم في شك واختلاف فيمن قُتل ، وذكرت أنه قد جاء في أناجيل
النصارى المعتمدة عندهم أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين
فصاروا يترددون : هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره .
وقلت هناك : وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا
المسيح ، وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن
إله ، كيف يخطر على بال من له أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله
يصلب أو يقتل . ونقلت هناك ما ذكره «جورج سايل» الإنجليزي في ترجمته
للقرآن أن فرقة من أقدم فرق النصارى أنكرت صلب المسيح وصرحوا بأن
الذي صلب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً . وقوله
تبارك وتعالى : ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة
يكون عليهم شهيدا﴾ . هذا تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن عيسى عليه
السلام لم يقتل ولم يصلب ولم يمت ، وفيه إشارة إلى أنه ينزل إلى الأرض آخر
الزمان ليقتل المسيح الدجال ويقيم شريعة محمد ﷺ ويكسر الصليب
ويقتل الخنزير ويريق الخمر ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ،
وأن جميع اليهود والنصارى يتيقنون يومئذ أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم
يصلب ، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ
للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : والذي
نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ،
ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى
تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة ، وقرأوا
إن شئتم : ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون
عليهم شهيدا﴾ . والأحاديث الصحيحة الثابتة في نزول عيسى عليه السلام
قبل يوم القيامة وقتله الدجال قد بلغت حد التواتر ، وهو من عقائد أهل

السنة والجماعة ، وقد حكى غير واحد من الأئمة كفر من أنكر نزول المسيح قبل يوم القيامة ، أما القاصمة الثانية عشرة فهي انغماسهم في الظلم الذي عجل الله بعض عقوبتهم بسببه حيث حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت أحلت لهم ، والقاصمة الثالثة عشرة هي صدهم عن سبيل الله والمبالغة في صرف الناس عن الدين الحق ، والقاصمة الرابعة عشرة هي تعاطيهم الربا مع تحذير أنبياء بني إسرائيل لهم عن تعاطيه ، وفي قوله عز وجل : ﴿وقد نُهوا عنه﴾ رد على واضعي التلمود الذين زعموا لليهود أن الربا غير الفاحش جائز مع اليهودي وأن هذا شرع موسى وصموائيل افتراء على الله ورسوله ، وأن الربا الفاحش جائز مع غير بني إسرائيل . أما القاصمة الخامسة عشرة فهي أكلهم أموال الناس بالباطل ، وفي قوله عز وجل : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ترهيب لمن استمر على كفره وارتكابه هذه القواصم من اليهود وترغيب في الرجوع إلى الدين الحق والاستجابة إلى إمام المرسلين وشيخ النبيين محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُوْثِيْهِمْ أَجْرًا عَظِيْمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللّٰهُ مُوسَى تَكْلِيْمًا . رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا .﴾

بعد أن ندد الله تبارك وتعالى بالسلوك اليهودي الشائن وذكر خمس عشرة قاصمة من كبريات جرائم اليهود أوضح عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواء ، وبين أن منهم طائفة راسخة في العلم صاروا في جملة المؤمنين ، قد استجابوا للحق الذي بعث الله به رسوله محمدا ﷺ وآمنوا بالقرآن العظيم وبالحق الذي أنزله الله على جميع رسله وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا صادقا ، وأن الله عز وجل أعد لهم أجرا عظيما حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية . وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللّٰهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن

يُكْفَرُوهُ، واللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَيْ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ذُوو الْقَدَمِ الثَّابِتَةِ عَلَى الْحَقِّ ، الْمُسْتَقْرُونَ عَلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى ، وَنُصِبَ الْمُقِيمِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ عَلَى الْمَدْحِ ، أَيْ وَأَمْدَحَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ بِنُصْبِ الصَّابِرِينَ عَلَى الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا لَفْتَ الْإِتِّبَاهِ إِلَى شَيْءٍ يَمْدَحُونَهُ أَوْ يَذْمُونَهُ غَيَّرُوا إِعْرَابَهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ عَلَى نَسْقٍ مَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ الْآيَةُ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْخُرْنَقِ بِنْتِ هَفَانَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَعْدِ بْنِ ضَبِيعَةَ رَهْطِ الْأَعْشَى فِي رِثَاءِ زَوْجِهَا بَشْرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ مَرْثَدٍ وَابْنِهَا عُلْقَمَةَ بْنِ بَشْرٍ وَأَخْوِيهَا حَسَانَ وَشَرَحْبِيلَ ، وَمَنْ قَتَلَ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهَا :

لَا يَبْعِدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هَمُّوا سَمِ الْعِدَاءِ وَآفَةُ الْجَزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مَعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزْرِ

فَقَدْ نَصَبْتَ النَّازِلِينَ عَلَى الْمَدْحِ مَعَ أَنَّ مَا قَبْلَهُ مَرْفُوعٌ ، وَمَا بَعْدُهُ مَرْفُوعٌ ، لَكِنِّهَا لَمَّا أَرَادَتْ لَفْتَ الْإِتِّبَاهِ إِلَى شَجَاعَتِهِمْ نَصَبْتَهُ قَبْلَ تَمَامِ كَلَامِهَا وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّصْبَ عَلَى الْمَدْحِ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الْخَبَرِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَثُرَ النَّصْبُ عَلَى الْمَدْحِ قَبْلَ تَمَامِ الْخَبَرِ ، كَمَا تَقَدَّمَ وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثَ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمَزْدَحِمِ
وَذَا الرَّأْيِ حِينَ تَغْمُ الْأُمُورُ بِذَاتِ الصَّلِيلِ وَذَاتِ اللَّجْمِ
فَقَدْ نَصَبَ «لَيْثَ الْكُتَيْبَةِ» وَ«ذَا الرَّأْيِ» عَلَى الْمَدْحِ مَعَ أَنَّ الْأَسْمَ قَبْلَهُمَا مَخْفُوضٌ ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَيْتَ الَّتِي فِيهَا النُّجُومُ تَوَاضَعَتْ عَلَى كُلِّ غُثٍّ مِنْهُمْ وَاسْمِينَ

غيوث الورى في كل محل وأزمة أسود الشرى يحمين كل عرين
فقد نصب غيوث الورى وأسود الشرى على المدح وكما قال الشاعر ابن
خياط :

وكل قوم أطاعوا أمر مرشدهم إلا نميرا أطاعت أمر غاويها
الظاعنين ولما يُظعنوا أحداً والقائلون لمن دار نُخليها

وفي قوله عز وجل : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لفت انتباه إلى بطلان
دعوى عامة اليهود والنصارى بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر حيث زعموا أن
العزير ابن الله وكما زعمت النصارى أن المسيح ابن الله فمن ادعى أن الله ولدأ
لم يكن إيمانه بالله إيماناً صحيحاً ، وكذلك من زعم أن البعث يوم القيامة
بعث أرواح لا بعث أجسام وأن أجسام البشر لا تحيا بعد الموت فإن إيمانه
باليوم الآخر إيمان غير صحيح ، ولذلك يقول عز وجل : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ
الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .
وقالت اليهودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وقالت النصارى المسيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلك قولهم
بأفواهم يُضَاهِئُونَ قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ .
اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . ﴿ وقوله تبارك وتعالى :
﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . ﴿ إشارة إلى علو مرتبة الذين استجابوا لله
وآمنوا برسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه
وجماعة القسيسين والرهبان الذين بكوا عند سماع القرآن وسارعوا إلى الإيـان
بالله ورسوله واليوم الآخر وسائر أركان الإيمان الذين أشار الله عز وجل إليهم
في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهَبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وإذا
سمعوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرِّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ

يقولون ربنا آمنة فاكثبنا مع الشاهدين . ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصالحين . فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ، وذلك جزاءُ المحسنين . ﴿ وفي الإشارة بقوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ﴾ المتضمنة لمعنى البعد إشعارٌ بعلو درجتهم وارتفاع منزلتهم في الفضل ، وقوله عز وجل : ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ أي سنعطيههم جزاء حسنا كبيرا في جنات الخلد حيث يمتعون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم ، وقد ثبت بالكتاب والسنة أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ أن الله عز وجل يعطيه أجره مرتين حيث يقول عز وجل : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآيتين . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، وفي تذييل هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ . مع تذييل الآية السابقة بقوله عز وجل بعد تعداد قصائمه وجرائم اليهود : ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ . ﴿ ضرب في الفصاحة والبلاغة والإعجاز القرآني رفيع ، وتناسب وتناسق بلغ الذروة في باب التهيب والترغيب ، لا جرم أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيناهم داودَ زبوراً . ورسلا

قد قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
 تَكْلِيمًا * رَسَلْنَا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
 الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾ تقرير وتأکید علی أَنَّ محمدا رسول الله ﷺ
 ليس بدعًا من الرسل، ولم يسلك غير درب المرسلين، وأن علماء أهل
 الكتاب يعلمون ذلك، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لكنَّ أشقياءهم
 يكتُمونه والراسخين في العلم منهم طُلَّابُ الهدى يؤمنون به ويستجيبون له،
 وليس على الرسل إلا البلاغ، ولا يُعْجِزُ الله شيءٌ. وفي هاتين الآيتين تنديد
 وتهديد لليهود الذين حملهم بُغْضُهُمْ للحق الذي جاء به محمد ﷺ على أن
 يَدْعُوا أَنَّ الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك
 عنهم حيث يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ
 شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ
 قُرْآنًا يَتَذَكَّرُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ
 ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وقد تَضَمَّنَ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا
 أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ
 زَبُورًا. وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
 عَلَيْكَ﴾. الآيتين، تضمن مماثلة رسول الله ﷺ لسائر رسل الله صلى الله
 عليهم وسلم في الوحي والرسالة وإيتاء الكتاب، وهو شبيه بقوله تبارك
 وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تقتضي
 هذه المماثلة أن تكون شرائع الأنبياء واحدة، بل لكل نبي شرعته ومنهاجه
 الملائم لأمرته كما قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾
 فأصول الدين لجميع الأنبياء والمرسلين واحدة، وفروع الدين متفاوتة بحسب

الأمم وما يلائمها من الأحكام، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾. ﴿رد على من نفى صفة الكلام عن الله عز وجل، فإن التأكيد بالمصدر ينفي المجاز والتأويل، قال النحاس : أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً. اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾، وكان الله عزيزاً حكيماً. ﴿أي أرسلت رسلاً يبشرون المؤمنين بالجنة وكريم ثوابها وينذرون العاصين بالنار وأليم عقابها حتى لا يحتج الجاحدون الضالون فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم البشير النذير عليه وعلى إخوانه النبيين من ربهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.﴾

قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.﴾

بعد التنديد باليهود وسياق صور من جرائمهم مع أنبياء الله ورسله، والثناء على المؤمنين من أهل الكتاب الذين سارعوا إلى تصديق محمد رسول الله ﷺ واستقاموا على شرائع الإسلام، وبيان ما أعد الله لهم من الأجر العظيم والثواب الجليل، وبعد إعلان أن محمدا رسول الله ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن صفة الوحي الذي أنزل عليه ﷺ كصفة الوحي الذي أنزله الله على نوح وسائر النبيين، وخص بالذكر منهم من يعلن أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم من النبيين، نبه تبارك وتعالى هنا إلى أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له وشهادة الملائكة المكرمين، وكفى بالله شهيدا. وفي هذا مواساة كافية شافية لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجهها لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا رسول الله ﷺ، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعَلْمِهِ﴾ أي أنزل عليك القرآن العظيم الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم من يستحق أن ينال هذا الشرف العظيم ومن هو أهل أن ينزل عليه الكتاب من السماء، والله وحده هو الذي يعلم حيث يجعل رسالته، كما قال عز وجل ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ

فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يتضمن الثناء العظيم على رسول الله ﷺ وأنه خيرة الله من خلقه، وصفيه من عباده، المتأهل لأن ينزل الله عليه هذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم، كما يتضمن أن القرآن فيه علم الله الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والحاضر والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته العلي وأسمائه الحسنی التي لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا أن يعلمه الله عز وجل بها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام. ﴿فصل﴾ وكذلك قوله : ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾، وكفى بالله شهيداً. ﴿فإن شهادته بما أنزله إليه هي شهادته بأن الله أنزله منه، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خبرٌ عن علم الله ليس خبراً عمن دونه، وهذا كقوله : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وليس معنى مجرد كونه أنزله أنه هو معلوم له، فإن جميع الأشياء معلومة له، وليس في ذلك ما يدل على أنها حق، لكن المعنى : أنزله فيه علمه، كما يقال : فلان يتكلم بعلم، ويقول بعلم، فهو سبحانه أنزله بعلمه، كما قال : ﴿قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يقل تكلم به بعلمه، لأن ذلك لا يتضمن نزوله إلى الأرض، فإذا قال : «أنزله بعلمه» تضمن أن القرآن المنزل إلى الأرض فيه علم الله، كما قال : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه، منه نزل، ولم ينزل من عند غيره، لأن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم — ونفسه هي ذاته المقدسة — إلا أن يعلمه الله بذلك، كما قال

المسيح عليه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلَّامُ الْغُيُوبِ . ﴾ وقالت الملائكة : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ وقال : ﴿ وَلَا
 يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وقال : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا
 مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من
 ارتضى من رسول ، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به ، وأما ما
 أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء ، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق
 الشياطين بعضه ، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به ، بل
 هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه ، وهو سبحانه قال : ﴿ لَكُنِ اللَّهُ يَشْهَدُ
 بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل
 على أنه كلامه وأن الرسول صادق ، وكذلك قال في هود : ﴿ فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُوْرٍ
 مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ﴾ لما
 تحداهم بالإتيان بمثله في قوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ ثم تحداهم أن يأتوا
 بعشر سور مثله ، فعجزوا عن ذا وذاك ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله
 فعجزوا ، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله ، وإذا كان
 الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله ، ومحمد منهم علم أنه منزل من
 الله ، نزل به علمه ، لم ينزله بعلم مخلوق ، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم
 الله ، وقوله : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأن فيه من
 الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله ، فذكره ذلك يستدل
 به تارة على أنه حق منزل من الله لكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات
 والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله ، فمن هنا
 نستدل بصدق أخباره أنه من الله ، وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا
 بذلك على أن خبره حق ، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به
 عن الأنبياء وأممهم ، وتارة عن يوم القيامة وما فيها ، والخبر الذي يستدل به

لا بد أن نعلم صحته من غير جهته ، وذلك كإخباره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر ، وكإخباره بالأمم الماضية بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم منهم ، وإخباره بأمور هي سرٌّ عند أصحابها ، كما قال : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ إلى قوله : ﴿تَبَايَأَ الْعُلَمَاءُ الْخَبِيرُ﴾ فقوله : ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلال بإخباره ، ولهذا ذكره تكذيباً لمن قال هو ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ . وقوله : ﴿أَنْزَلَهُ﴾ استدلال على أنه حق وأن الخبر الذي فيه عن الله حق ، ولهذا ذكر ذلك بعد ثبوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثله اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ زيادة تقرير وتأكيد لسلوك اليهود الشنيع حيث يكفرون بالله ويصدون غيرهم عن سبيل الله ووسمهم بأنهم قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً ، لا يلتفتون إلى داعي الهدى ، ولا يستجيبون للنداء الحق ، قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : إن الذين جحدوا بإحمد نبوتك بعد علمهم بها ، من أهل الكتاب الذين اقتضت عليك قصتهم ، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه أوحى إليك كتابه ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني عن الدين الذي بعثك الله به إلى خلقه ، وهو الإسلام ، وكان صدهم عنه : قيلهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك : ما نجد صفة محمد في كتابنا وادعائهم أنهم عهد إليهم أن النبوة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود ، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يشبطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله ، وقوله : ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعني : قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً ، وزالوا عن المحجة ، وإنما يعني جل ثناؤه بجورهم عن المحجة وضلالهم عنها

إِخْطَاءَهُمْ دِينََ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَابْتَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ، يَقُولُ: مَنْ جَحَدَ
رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَدَّ عَمَّا بَعَثَ بِهِ مِنْ الْمِلَّةِ مِنْ قَبْلِ مَنْهُ، فَقَدْ ضَلَّ فِزْهَبَ
عَنِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ. ضَلَالًا بَعِيدًا. أَهـ
وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا.﴾ هُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ
وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الظَّالِمِينَ لِأَنفُسِهِمْ بِجُحُودِهِمْ دِينََ اللَّهِ وَبِصُدْهِمْ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَقَدْ أَجْرَمُوا فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ سَلَكُوا بِهَا طَرِيقَ الضَّلَالِ، وَأَجْرَمُوا فِي
حَقِّ عِبَادَةِ اللَّهِ حَيْثُ صَدَّوْهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ حَسَدًا لِلْعَرَبِ، وَبَغْيًا عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ
إِلَى أَنْ يَمُوتُوا، فَقَضَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَعْفُو عَنْهُمْ، بَلْ
لَا بُدَّ مِنْ عِقَابِهِمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَفُضِّحَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ
اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَخْذِلُهُمْ فَلَا يُوَفِّقُهُمْ وَلَا يَسُدُّهُمْ وَلَا يَعِينُهُمْ وَلَا يُؤَيِّدُهُمْ بَلْ
يَكْلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَسْلُكُونَ إِلَّا الطَّرِيقَ الَّذِي يُوصلُهُمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ،
حَيْثُ يَكْبَهُمْ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا، وَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا، بَلْ كَلِمَا
نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْهِمُ اللَّهِ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرٌ.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .﴾

بعد أن نبه الله تبارك وتعالى إلى أن محمدا ﷺ ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له بذلك وكفى بالله شهيدا ، وقد شهدت الملائكة لمحمد ﷺ بأنه رسول الله ، وفي إعلان ذلك مواساة لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجها لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا هو رسول من عند الله ، وجه الخطاب هنا إلى جميع المكلفين على طريقة تلوين الخطاب فأمرهم بأن يؤمنوا بأن محمدا هو رسول من الله وشفع هذا الأمر بتنبية المكلفين إلى أن إيمانهم بالله وبرسوله محمد ﷺ يجلب لأنفسهم خير الدنيا والآخرة ، وأن من كفر فلا يضر إلا نفسه ، تنبيهها على أن الحجة قد لزمتم وأن البرهان قد سطع ولم يبق لأحد بعد ذلك عذر في عدم القبول حيث يقول عز وجل هنا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .﴾ قال أبو السعود العمادي : وقوله عز وجل : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالإيمان ، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته ، والمراد بالحق هو القرآن الكريم اهـ ومعنى : ﴿فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي فصدقوا بالله

وبالرسول الذي قد جاءكم بالحق من ربكم يكن ذلك خيرا لكم، وفي هذا ترغيب، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو ترهيب من الكفر بالله وبالرسول ﷺ، ومعنى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وكان الله عليهما حكيمًا. ﴿أَيَّ وَإِنْ تَجْحَدُوا وَتَكْذِبُوا﴾ محمداً ﷺ فيما جاءكم به من الحق من ربكم فإنكم لن تضروا الله شيئا ولن تضروا إلا أنفسكم لأن الله غني عنكم فوبال معصيتكم وجحودكم عائد عليكم، وذلك أن الله ما في السموات والأرض ملكا وخالقا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شيء من السموات والأرض ومن كان هذا شأنه فهو قادرٌ على تعذيبكم بسبب كفركم وجحودكم لا محالة، وهو عز وجل عالم بأحوال جميع خلقه، يقضي بالحكمة في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وبعد التنديد بقواصم وكبريات جرائم اليهود في حق رسل الله عليهم الصلاة والسلام، من التعتن معهم وقتل بعضهم، وبعد توجيه النصيح لجميع المكلفين وتعريفهم بأن محمداً ﷺ قد جاء بالحق من ربه وأن من أطاعه سعد ومن عصاه خاب وخسر ولا يضر إلا نفسه، وجه الخطاب هنا بعنوان أهل الكتاب الذي يشمل في الأصل اليهود والنصارى ونهاهم عن أمرين خطيرين هما الغلو في الدين والقول على الله بغير الحق، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلًا. ﴿وَلَا شَكَّ أَنْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، انتهوا خيرا لكم، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ يدل

على أن المخاطب بهذا الخطاب أولاً وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلهاً وابن إله وقالوا: الله ثالث ثلاثة، وإنما جاء الخطاب عاماً لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزيز هو ابن الله، سبحانه أن يكون له ولد، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم قال: زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله. ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك، ولفظه: إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله. وقال علي بن المديني: هذا حديث صحيح مُسْنَدٌ، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيان بن عيينة عن الزهري به، ولفظه: فإنما أنا عبد فقولوا: عَبْدُ اللَّهِ ورسوله اهـ والغلو هو مجاوزة الحد، والإطراء هو الغلو في المدح والكذب فيه، ومن المقرر عند أهل العلم أن سبب كفر بني آدم وخروجهم من الدين الحق هو الغلو في الصالحين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من الغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه حمايةً لجناب التوحيد وسدّاً لذريعة الشرك، كما نهى عن التنطع في الدين، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنطعون. قالها ثلاثاً.

كما روى أحمد والترمذي وابن ماجه واللفظ له قال : حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة عن عوف عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته : القط لي حصى . فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفذهن في كفه ويقول : أمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين ، والغلو والإطراء هو الطغيان الذي ذكر الله تبارك وتعالى أنه يجلب لمرتكبه غضب الله وقد حذر الله تبارك وتعالى عنه أشد التحذير حيث يقول : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ هذا تعريف بحقيقة المسيح ، وبيان للقول الحق فيه ، وردع للنصارى الذي غلوا فيه وأفرطوا واتخذوه إلها من دون الله وقالوا : هو ابن الله ، وردع لليهود الذين فرطوا فيه فجعلوه ولد زنى وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً وجحدوا رسالته وكذبوه ، وقد قصر الله تبارك وتعالى المسيح على الرسالة فمن جاوز به هذه المنزلة فقد غلا وأفرط وقال على الله غير الحق وافترى إفكاً كبيراً . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي خلقه الله تعالى بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنشأ عن الكلمة التي قال الله له بها كن فكان وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة آل عمران : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أي بولد عظيم له شأن كبير ، وسمى الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له : كن فكان ، وصار يطلق على عيسى عليه السلام كلمة الله على سبيل التغليب أعني صار علماً بالغلبة ، وإن كان لا يتم شيء إلا إذا قال الله له كن

فيكون اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي هو رُوحٌ من الأرواح التي خلقها الله عز وجل وأرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام ، ولهذا كان يسمى كلمة الله وروح الله والإضافة فيهما للإشعار بعلو مرتبة عيسى عليه السلام وطهارته . وقد قال البخاري في صحيحه : قوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً » قال أبو عبيد : كلمته : كن فكان ، وقال غيره : وروح منه : أحياء فجعله روحا ، ولا تقولوا ثلاثة ، حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، قال الوليد : حدثني ابن جابر عن عمير عن جنادة وزاد : من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء اهـ وقال مسلم : حدثنا دواد بن رشيد حدثنا الوليد يعني ابن مسلم ، عن ابن جابر قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية حدثنا عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء اهـ ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله

وكيلاً . ﴿ أي فصدقوا وأيقنوا بأن الله واحد أحد ليس له ولد ولا صاحبة
واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله رسوله ، فآمنوا به كإيمانكم بسائر الرسل
ولا تجعلوه إلهاً ولا ابن إله ، ولا تدَّعوا أن عيسى وأمه إلهين مع الله ، واحذروا
ذلك أشد الحذر لتسعدوا وتفلحوا ، فإنه لا إله إلا الله تنزه وتقدس أن يكون
له ولد أو صاحبة ، لأنه مالك السموات والأرض ، فجميع ما فيها ملكه
وخلقه وعبيده وهم تحت تدبيره ومشيتته وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء
فكيف يكون له صاحبةٌ أو ولد ، كما قال عز وجل : ﴿ بديع السموات
والأرض أنى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كل شيء وهو بكل شيء
عليم . ﴾

قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . ﴿

بعد أن بين الله عز وجل أن عيسى ابن مريم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى صفة فوقها وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأنه ليس لأحد أن يرفعه فوق منزلته فيدعي له الألوهية أو أنه ابن الله أو شريكه كما ادعت النصارى عليهم لعائن الله أو أن يجحد رسالته أو يحط من قدره كما فعلت اليهود ، لعنهم الله ، وساق في ذلك البرهان القاطع والحجة الساطعة الشافية الكافية على أن جميع ما في السموات وما في الأرض مملوكون لله عز وجل وتحت قهره وهيمته وسلطانه مما ينفي أن يكون له ولد أو شريك أو صاحبة أوضح عز وجل هنا أن عيسى عليه السلام خاضع لله عز وجل يبذل لربه أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب ، وأن الملائكة المقربين خاضعون لله عز وجل يبذلون له أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب ، وأن من استنكف عن عبادة ربه واستكبر فله العذاب الأليم الذي لا يستطيع أحد أن يدفعه عنه وأن عباد الله الذين يبذلون له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل المستمسكين بشريعة المرسلين سيجدون عند الله عز وجل الأجر العظيم والثواب الجزيل مع ما يتفضل الله عز وجل عليهم به من النظر إلى وجهه الكريم ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ

عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ﴿الآيتين﴾، وأصل الاستنكاف هو الأنفة والامتناع، فمعنى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي لن يأنف ولن يمتنع ولن ينقبض المسيح عيسى عليه السلام ولا الملائكة المقربون من كونهم عبيدًا لله بل بذهم أقصى غاية الحب وأقصى غاية الذل لله وحده هو قرة أعينهم وراحة نفوسهم، ولا يرضون أبدًا لأحد أن يشرك بالله شيئاً ولذلك ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وقال عز وجل عن الملائكة: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ. يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ.﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَٰهُ جَمِيعًا.﴾ وعيد شديد لكل من استنكف واستكبر عن عبادة الله، والاستكبار التعاضم والتعالي، والنسبة بين الاستنكاف والاستكبار هي العموم والخصوص المطلق والاستكبار أعم مطلقاً، فكل استنكاف استكبار وليس كل استكبار استنكافاً، فمن تعالى عن الشيء أنفةً يقال له مستنكف، ومن تعالى ولو بدون أنفة يقال له: مستكبر ومتكبر. وجواب الشرط محذوف تقديره: فله عذاب أليم في نار الجحيم، وقد حذف جواب الشرط للدلالة ما بعده عليه، وهو قوله عز وجل: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَٰهُ جَمِيعًا.﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفَّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيُعَذِّبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. ﴿ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَٰهُ جَمِيعًا.﴾ أي فسيبعث الله عز وجل الخلائق ويجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ويجازي كل

عامل بها عمل فمن استنكف واستكبر عن عبادة ربه عذبه يوم الجزاء عذاباً أليماً ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن آمن وعمل الصالحات وفاه أجره الجميل وأثابه جنات النعيم وتفضل عليه بالنظر إلى وجهه الكريم ، قال أبو السعود العمادي في قوله عز وجل : ﴿ فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي المستنكفين ومقابلتهم المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام ، وقد ترك ذكر أحد الفريقين في المفصل تعويلاً على إنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا بالله ﴾ الآية مع عموم الخطاب لهما اعتماداً على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل اهـ وقال ابن جرير : القول في تأويل قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . ﴾ قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بذلك : فأما المؤمنون المقرون بوحداية الله ، الخاضعون له بالطاعة ، المتذللون له بالعبودية ، والعاملون الصالحات من الأعمال ، وذلك : أن يردوا على ربهم قد آمنوا به وبرسله وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم ، من فعل ما أمرهم به ، واجتناب ما أمرهم باجتنابه ﴿ فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ ﴾ يقول : فيؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وأفيا تاماً ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني جل ثناؤه : ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها ، من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم مبلغه ، ولم يحدّ لهم منتهاه ، وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشر أمثالها من الثواب والجزاء ، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدودُ مبلغه ، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم ، وإن كان كل

ذلك من فضله على عباده غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفيههم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حد لقدرة يوقف عليه، ثم قال رحمه الله : وقوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ فإنه يعني : وأما الذين تعظموا عن الإقرار لله بالعبودية، والإذعان له بالطاعة، واستكبروا عن التذلل لألوهته وعبادته، وتسليم الربوبية والوحدانية له، ﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني : عذابا موجعا ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول : ولا يجد المستنكفون من عبادته والمستكبرون عنها إذا عذبهم الله الأليم من عذابه سوى الله لأنفسهم ﴿وَلِيًّا﴾ ينجيهم من عذابه وينقذهم منه، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يعني : ولا ناصرا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم، ويدفع عنهم بقوته ما أحل بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم اهـ هذا وبعد أن أورد الله تبارك وتعالى الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار الوثنيين واليهود والنصارى وأجاب عن جميع شبهاتهم، وألزمهم بالبراهين القاطعة التي تخبرها صم الجبال بما يقرر أن محمدا هو رسول رب العالمين عمم الخطاب ووجهه إلى جميع المكلفين فدعا جميع الناس وسائر الفرق والطوائف إلى الاعتراف بالنور والبرهان الذي بعث به إليهم أفضل خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمدا ﷺ فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا.﴾ والبرهان هو الدليل القاطع والحجة المزيله للشبهات، والنور المبين هو الضياء الواضح الذي يبين للسالكين المحجة الواضحة، ويكشف لهم سبل السلام حتى ينهجوها، ويحذرهم من مخاطر الطريق التي يحاول الشيطان أن

يوقعهم فيها، فمن آمن بالله واعتصم به هده الصراط المستقيم ومن انقاد للشيطان أوصله إلى نار الجحيم، والعاقل من سلك سبل السلام والمخدول من سلك السبيل المعوج كما قال الشاعر:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج
وقد وصف الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ والقرآن العظيم الذي أنزله عليه بأنه برهان ونور وسراج منير كما قال هنا: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا.﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿أو من كان ميثا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون.﴾ وقال في سورة الأعراف: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.﴾ وقال في سورة الأحزاب: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.﴾ وقال في سورة الشورى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور.﴾ وقال في سورة الجاثية: ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون.﴾ وقال في سورة التغابن: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا، والله بما تعملون خبير.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما.﴾ أي فأما الذين صدقوا بالله جل جلاله ورضوا به ربا وأقروا بوعده ووعيده وصدقوا كتبه ورسله واستمسكوا بالعروة

الوثقى مدة حياتهم الدنيوية فسيدخلهم ربهم في جنته ويزيدهم من فضله ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليهم من أهل طاعته ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات اهـ .

قال تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنَّ امْرؤَ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِيْهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ﴿١٠﴾

هذه الآية الكريمة هي ختام المسك من هذه السورة العظيمة ، واختتام السورة بها للفت الانتباه إلى عظمة شأن المواريث ووجوب العناية بها ، والوقوف عند حدودها كما نبه إلى ذلك عز وجل بعد ذكر أكثر أحكام المواريث في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من هذه السورة عقب ذكر آية الشتاء في الكلاله حيث قال : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ . ﴿١١﴾ وهذه آية الكلاله التي ختم بها سورة النساء تسمى آية الصيف لأن آية الكلاله التي في أوائل السورة نزلت في الشتاء وآية الكلاله هذه نزلت في الصيف . وقد تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة أن الكلاله في أصل اللغة تطلق على معان كثيرة منها الإعياء ومنه قول الأعشى :

فَالَيْتَ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَلَاقِي مُحَمَّدًا
وقيل هي من قولهم : تكلله الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس كما قال امرؤ القيس :

أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أَرِيكَ وَمِیْضَهُ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِي مَكْلَلٍ
وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكلاله في موضعين في هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل : ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ﴿١٢﴾

وحيث قال هنا: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية، وقد أجمع
 العلماء على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة للأُم، وأن المراد بالإخوة في
 هذا الموضع الذي ذكرته آية الصيف هم الإخوة الأشقاء أو الإخوة لأب.
 واتضح من الآيتين الكريمتين أن الكلاله هو من مات وليس له والد ولا ولد
 ودلت الآيتان على أن الإخوة كلهم كلاله. وهذه الآية الكريمة التي ختمت
 سورة النساء هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم، قال البخاري في كتاب
 التفسير من صحيحه: باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن امرؤ
 هَلَكَ ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد
 والكلالة مَنْ لم يرثه أب أو ابن وهو مصدر من تكلمه النسب، حدثنا سليمان
 ابن حرب حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء رضي الله عنه قال: آخر
 سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾
 وقال في كتاب الفرائض من صحيحه: حدثنا عبيد الله بن موسى عن
 إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: آخر آية نزلت خاتمة
 سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وقال مسلم في
 صحيحه: حدثنا علي بن خشرم أخبرنا وكيع عن ابن أبي خالد عن أبي
 إسحاق عن البراء قال: آخر آية أنزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ
 يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ حدثنا محمد بن المنثري وابن بشار قالا: حدثنا محمد بن
 جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يقول:
 آخر آية أنزلت آية الكلاله وآخر سورة أنزلت براءة، حدثنا إسحاق بن
 إبراهيم الحنظلي أخبرنا عيسى (وهو ابن يونس) حدثنا زكرياء عن أبي إسحاق
 عن البراء أن آخر سورة أنزلت تامة سورة التوبة، وأن آخر آية أنزلت آية
 الكلاله، وقد أخرج الشيخان رحمهما الله أن سبب نزول آية الكلاله هذه هو
 جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقد قال البخاري في كتاب الوضوء من

صحيحه : باب صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه ، حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابرا يقول : جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ، وصب عليّ من وضوئه ، فعقلت ، فقلت : يا رسول الله لمن الميراث ، إنما يرثني كلاله ، فنزلت آية الفرائض ، وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه : باب وضوء العائد للمريض ، حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : دخل عليّ النبي ﷺ وأنا مريض ، فتوضأ ، فصب عليّ أو قال : صبوا عليه ، فعقلت ، فقلت : لا يرثني إلا كلاله ، فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الفرائض . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا سفيان ابن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبد الله قال : مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين ، فأغمى عليّ ، فتوضأ ثم صب عليّ من وضوئه فأفقت ، قلت : يا رسول الله كيف أقضي في مالي ؟ فلم يرد عليّ شيئا حتى نزلت آية الميراث : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وقال أبو داود في سننه : باب في الكلاله ، حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان سمعت ابن المنكدر أنه سمع جابرا يقول مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر ماشيين ، وقد أغمى عليّ فلم أكلمه ، فتوضأ وصبه عليّ ، فأفقت ، فقلت : يا رسول الله كيف أصنع في مالي ولي أخوات ؟ قال : فنزلت آية المواريث : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ باب من كان ليس له ولد وله أخوات ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا كثير بن هشام ثنا هشام — يعني الدستوائي — عن أبي الزبير عن جابر قال : اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل عليّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي ، فأفقت ، فقلت : يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلث ؟ قال : أحسن قلت : الشطر ؟ قال : أحسن ، ثم خرج

وتركني، فقال: يا جابر، لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فيين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلاثين، قال: فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية في: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ كما روى مسلم في صحيحه من طريق سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلاله، ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلاله، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يعني في الكلاله ولم يذكرها في السؤال اكتفاء بورودها في الجواب في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ والمستفتي هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وإنما أورده بصيغة ضمير الجماعة لإفادة تعميم هذا الحكم لجابر وغيره، والسائل قد يكون واحداً لكنه لم يرد بسؤاله حكماً خاصاً به، ولذلك اعتبر السؤال عاماً منه ومن غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلْكَ﴾ أي إن مات إنسان، فامرؤ فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده. وقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي مات هذا الميت غير ذي ولد وقد ترك أختاً من أبيه وأمه أو من أبيه فقط فللهذه الأخت نصف تركه أخيها هذا، وقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يعني ولا والد، وإنما ترك ذكر الوالد لأنه معلوم، إذ لو كان الوالد موجوداً لم ترث الأخت من أخيها شيئاً بالإجماع، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي وإذا كانت الأخت هي الميتة ولم يكن لها ولد ولا والد فإن أخاها سواء كان شقيقاً لها أو كان من أبيها فقط فإنه يرث جميع تركه أخته هذه. وهذا كله إذا لم يكن مع هذا الأخ وارث آخر من ذوي الفرض كزوج أو أخ لأم فإن قدر أن معه من له فرض كزوج أو أخ من أم فإن صاحب الفرض

يأخذ فرضه ويصرف الباقي للأخ لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبَقَتِ الْفَرَائِضُ فَلأولى رجل ذكر وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أي وإن كان الميت الموروث كلاله قد ترك أختين فإنهما يستحقان ثلثي التركة بينهما مناصفة ، وقوله عز وجل : ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ بعد قوله تبارك وتعالى : ﴿ كَانَتَا ﴾ الدال على اثنتين تنبيه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون أي وصف آخر من صغر أو كبر أو صالح أو طالح أو غير ذلك من الصفات . وقد سئل الأخفش : ما فائدة قوله ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ و﴿ كَانَتَا ﴾ لا يفسر إلا باثنتين ؟ فقال : أفادت العدد العاري عن الصفة لأنه يجوز في ﴿ كَانَتَا ﴾ صغيرتين أو حرتين أو صالحتين أو طالحتين ، فلما قال : ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ أفاد إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه اهـ وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى ﴾ أي وإن كان الورثة كلاله إخوة مختلطة ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين مهما كان العدد ، وهذا بخلاف الإخوة من الأم فقط المذكورين في آية الكلاله الشتوية فإن نصيب الذكر منهم كنصيب الأنثى على حد سواء كما تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي يوضح الله عز وجل لكم منهاج السعادة ويعطي كل ذي حق حقه كراهية أن تضلوا أولئلا تضلوا أي تنحرفوا عن قصد السبيل والله وحده هو المحيط بجميع خلقه الخير بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

تفسير

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .﴾

هذه سورة المائدة، وإنما سميت سورة المائدة لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر قصة المائدة في هذه السورة في الآية الثانية عشرة بعد المائة وفي الآية الثالثة عشرة بعد المائة وفي الآية الرابعة عشرة بعد المائة وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائة حيث قال تبارك وتعالى ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قالوا نريد أن نأكل منها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قال عيسى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قال الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ .﴾ ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه عز وجل لما ذكر في ختام سورة النساء أنه بين الأحكام والشرائع ويضع أكمل المناهج لعباده المؤمنين حتى لا يضلوا، شرع في هذه السورة الكريمة بين لعباده جملة عظيمة من الأحكام الشرعية والقواعد الدينية والمناهج الربانية قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي اهـ وقد افتتح الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يفتح بهذه الافتتاحية سوى هذه السورة وسورة الحجرات وسورة الممتحنة، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى خاطب المؤمنين

في سورة المائدة هذه بقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في ستة عشر موضعا ، ومن المعلوم بالاستقراء أن الله تبارك وتعالى إذا خاطب المؤمنين بهذا الخطاب أعقبه بأمرهم بخير أو بنهيهم عن شر ، ولذلك أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إذا سمعت الله يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه فقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر حدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إليّ ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه ، ولا شك أن نداء المؤمنين بهذا الوصف من أعظم أسباب الخس على سرعة الامتثال والانقياد لما يأمرهم الله عز وجل به أو ينهاهم عنه عقب هذا النداء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أي أدوا لكل ذي حق عليكم حقه الذي تعاهدتم على أدائه والوفاء به سواء كان حقا لله عز وجل عليكم مما يقتضيه إيمانكم وانقيادكم لأوامره عز وجل وأوامر رسوله ﷺ أو كان حقا لبعضكم على بعض تعاهدتم على الوفاء به من الأمانات والبيوع والأنكحة والشركات والأيمان وسائر المعاهدات مما لا يتناقض مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله ﷺ ، وسواء كان إيجابه عليكم من الله عز وجل ابتداء أو أن تكونوا قد أوجبتموه على أنفسكم والتزمت به من نذر أو يمين أو نحو ذلك مما حض الشرع على الوفاء به ، وهذه الجملة الموجزة قد وضعت قاعدة كلية يندرج تحتها من الجزئيات ما لا يحيط به إلا الله عز وجل مما يجلب للناس سعادة الدنيا والآخرة في كل عصر ومصر وجيل وقبيل ولو لم يكن للناس إلا هذه الجملة لكفتهم ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم وصف المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، ووصف الكافرين والمنافقين بأنهم ينقضون العهود والمواثيق حيث يقول تبارك

وتعالى : ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون . ﴾ وقال عز وجل : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يوصل وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أولئك لهم عقبى الدار . جناتٌ عدنٌ يدخلونها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أولئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدارِ . ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ معرضون . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . ﴾ وقال تعالى في المؤمنين : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . ﴾ وقال في الكافرين : ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . ﴾ كما وصف رسول الله ﷺ المنافقين بالغدر ونقض العهد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . زاد مسلم في رواية له : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدث

كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . وأنذر رسول الله ﷺ الغادر بأنه سترفع له راية غدرة أمام الأولين والآخرين يوم القيامة ، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواءً ، فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان . وفي رواية لمسلم : لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يعرف به ، يقال : هذه غدرة فلان . كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره . وقد جعل الله تبارك وتعالى في قمة أعمال الأبرار الوفاء بالنذر حيث يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرِبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرِبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بالنذر ويخافون يوما كان شرُّهُ مستطيرًا . وَيُطْعَمُونَ الطعامَ عَلَى حُبِّهِ مسكينا ویتيما وأسيرا . ﴾ الآيات . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مَحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . ﴾ شروع في تفصيل وبيان ما عهد به إلى أمة محمد ﷺ الذين انقادوا إلى أمر الله الذي أمرهم وطالبهم أن يوفوا به ، وتذكير لهم بما تفضل به عليهم حيث أحل لهم أكل ما ذكروا اسم الله عليه من لحوم ذبيحة بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية المذكورة في قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَوْلَةٌ وَفَرَسًا ، كُلُوا مما رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . ثمانية أزواج من الضأن اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبُؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ومن الإبل اثْنين ومن البقر اثْنين ، قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذَا وَصَاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ

النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ . ﴾ وإضافة البهيمة إلى الأنعام للبيان كثوب الخبز ، وإفرادها لإرادة الجنس ، وقد ألحق الله تبارك وتعالى بقوله عز وجل : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ نوعين من الاستثناء ، الأول : قوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ والثاني : قوله : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ وقد بيّن عز وجل بالاستثناء الأول ما حرّمه من بهيمة الأنعام تحريماً مؤبداً ، وبيّن بالاستثناء الثاني ما حرّمه من بهيمة الأنعام تحريماً مؤقتاً ، إذ المراد بقوله عز وجل : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا ما يقرأ في كتاب الله تعالى تحريمه عليكم وهو ما ذكره في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ وفي قوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، كما بين عز وجل بالاستثناء الثاني أن ما كان من بهيمة الأنعام صيداً كالبقرة الوحشية والطيوس البرية فإنه يحرم عليهم صيده في حالة الإحرام بالحج أو بالعمرة فإذا تحلل المحرم من إحرامه جاز له صيد البر ما لم يكن في الحرم كما قال عز وجل : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ وكما قال : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ وكما قال : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ ومعنى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ أي وأنتم محرمون ، وواحد الحرم حرام يقال : رجل حرام ، وقوم

حرم قال المضرب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني :
فقلت لها فيئي إليك فإنني حرام وإني بعد ذاك لبيب
فمعنى قوله : حرام أي محرم ومعنى قوله : لبيب أي ملب ، وقد استعمل
الشاعر هنا «بعد» بمعنى مع كما في قوله تعالى : «والملائكة بعد ذلك ظهير»
وكما في قوله تعالى : ﴿عُتِلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضُ
بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي مع ذلك وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله :
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ للتنبيه على أنه عز وجل يقضي في خلقه بما يشاء
من التحليل والتحريم ، ولا يُحِلُّ الحكيم العليم إلا الطيبات التي تُصلح
أبدان العباد وأرواحهم ، ولا يحرم إلا الخبائث التي تضر أبدان العباد أو
أرواحهم وأخلاقهم كما قال عز وجل في وصف حبيبه محمد ﷺ : ﴿يَأْمُرُهُم
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يوفوا بالعقود وامتن عليهم بما أباح لهم من بهيمة الأنعام ونبههم إلى وجوب اجتناب ما حرمه عليهم من هذه البهائم تحريماً مؤبداً وما حرمه عليهم منها تحريماً مؤقتاً بوقت كونهم محرمين، ولفت انتباههم إلى جليل حكمته وحُكمه فيما يحرم ويحلل، شرع عز وجل يعهد إلى عباده المؤمنين ويوصيهم بالمحافظة على شعائر الله وينهاهم عن التعدي عليها ويحذرهم من انتهاكها ويطلب منهم أن يحترموا الشهر الحرام فلا يقاتلوا فيه وأن يحترموا الهدى والقلائد وقاصدي بيت الله الحرام، وأباح لهم الصيد بعد التحلل من الإحرام وحضهم على أن يعدلوا في معاملة أعدائهم وألا يحملهم صد مشركي قريش لهم عن المسجد الحرام يوم الحديبية أن يعتدوا عليهم، وأمرهم بالبر والتقوى وأن يتعاونوا على ذلك، وحذرهم من التعاون على الإثم والعدوان، وأكد عليهم بملازمة تقوى الله عز وجل والخوف من أليم عقابه حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ الآية. وشعائر الله تطلق على حرمان الله وحدوده ومراسيم شريعته وأمره ونهيه وفرائضه وسائر معالم دينه كما تطلق على مناسك الحج ومشاعره والهدي والبدن المهداة قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بقوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قول عطاء الذي ذكرناه من

توجيهه معنى ذلك إلى : لا تحلوا حرمة الله ، ولا تضيعوا فرائضه ، لأن الشعائر جمع «شعيرة» والشعيرة فعيلة من قول القائل : قد شعر فلان بهذا الأمر إذا علم به ، فالشعائر : المعالم من ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك ، كان معنى الكلام : لا تستحلوا أيها الذين آمنوا معالم الله ، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج : من تحريم ما حرم الله إصابته فيها على المحرم ، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيها ، وفيما حرم من استحلال حرمة حرمة ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه ، وحلاله وحرامه ، لأن كل ذلك من معالمه ، وشعائره ، التي جعلها أمارات بين الحق والباطل ، يعلم بها حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وإنما قلنا : ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى : ﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها نهياً عاماً من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء ، فلم يجوز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولا حجة بذلك كذلك اه ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي ولا تستحلوا الشهر الحرام فتستبيحوا قتال أعدائكم من المشركين فيه ، والمراد بالشهر الحرام هنا الجنس أي الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، وقد نص الله تبارك وتعالى على أنه حرم هذه الأشهر الأربعة منذ خلق السموات والأرض حيث يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ ، فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . ﴾ وقد ندد عز وجل بتلاعب المشركين بهذه الأشهر الحرم حيث كانوا إذا أرادوا الغارة فيها على أعدائهم غيروا اسم الشهر الحرام وأجلوه إلى الشهر الذي بعده وأطلقوا اسم الشهر الحرام على الشهر الذي يليه وهذا العمل الذي كانوا يعملونه يسمى

النسيء، فبين الله عز وجل أن عملهم هذا زيادة في الكفر حيث يقول : ﴿ إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيَجْرَمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْجِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . ﴾ وقد شدد رسول الله ﷺ التأكيد على حرمة الأشهر الحرم في خطبته يوم النحر في حجة الوداع فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، وقال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى ، قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى ، قال : فأأي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم ، فيسألکم عن أعمالکم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا الْهُدْيَ ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدى بسوء ولا تحبسوه عن بلوغ محله ، وقد كان المشركون من قريش قد صدوا رسول الله ﷺ ومنعوه من الوصول إلى المسجد الحرام عام الحديبية ومنعوا الهدى أن يبلغ محله يعني بيت الله الحرام كما قال عز وجل : ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدْيِ مَعَكُمْ فَآنُ يَبْلُغُ مَحَلَّهُ ﴾ والهدى هو ما يهdy إلى بيت

الله الحرام من ناقة أو بقرة أو شاة تقربا إلى الله تبارك وتعالى . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل : ﴿ هَذِيَا بِالْعِ كَعْبَةِ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالْقَلَانْدُ ﴾ أي ولا تستحلوا القلاند ولا تنتهكوا حرمتها ، والقلاند جمع قلادة وهي في الأصل ما يجعل حول العنق للزينة أو لغيرها والمراد بالقلاند هنا ما كان العرب يفعلونه بأنفسهم أو بهداياهم المهداة إلى البيت الحرام ليعلم من يرى ذلك بأن صاحبه مسلم لا يرغب في قتال أحد ، وأن بهيمة الأنعام التي وضعت عليها القلادة هي هدى الله عز وجل وقد أقر الإسلام تقليد الهدي ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : أهدى النبي ﷺ مرة إلى البيت غنما فقلدها . وفي رواية لهما عنها قالت : فَكَلْتُ قَلَانْدَهَا مِنْ عَهْنٍ كَانَ عِنْدِي ، ثُمَّ بَعَثَ بِهَا مَعَ أَبِي . وفي رواية لهما أيضا من حديثها رضي الله عنها قالت : فَكَلْتُ قَلَانْدَ بَدَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِيَدَيَّ ، ثُمَّ قَلَدَهَا وَأَشْعَرَهَا ، وَأَهْدَاهَا ، فَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ شَيْءٌ كَانَ أَحْلَى لَهُ . كما روى مسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ الظهر بذي الحليفة ، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وَسَلَّتْ الدَّمَّ عَنْهَا ، وَقَلَدَهَا نَعْلَيْنِ ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ بِهِ عَلَى الْبِيدَاءِ أَهْلَ بِالْحِجِّ . وقد كان من عادة العرب أنهم يتخذون قلاندهم التي يعلنون بها مسالمتهم من لحاء الشجر أي من قشره ويضفرونه وَيُحْكَمُونَ جَدْلَهُ وَفَتْلَهُ ثُمَّ يَجْعَلُونَهُ قِلَادَةً ، وَيَعْيِيُونَ أَشَدَّ الْعَيْبِ مِنْ اعْتَدَى عَلَى أَصْحَابِ هَذِهِ الْقَلَانْدِ كما قال الشاعر حذيفة بن أنس الهذلي :

أَلَا أَبْلُغَا جُلَّ السَّوَارِي وَجَابِرَا	وَأَبْلُغَ بَنِي ذِي السَّهْمِ عَنِي وَيَعْمَرَا
وَقُولَا لَهُمْ عَنِي مَقَالَةَ شَاعِرٍ	أَلَمْ يَقُولْ لَمْ يَحَاوِلْ لِيْفَخْرَا
لَعَلَّكُمْ مَا قَتَلْتُمْ ذُكِرْتُمْ	وَلَنْ تَتْرَكُوا أَنْ تَقْتُلُوا مِنْ تَعْمَرَا

ألم تقتلوا الحرجين إذ أعرضنا لكم يمران بالأيدي اللحاء المضفرا

قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط في مادة «حرج»: إنما عني بالحرجين رجلين أبيضين كالودعة، فإما أن يكون البياض لونهما، وإما أن يكون كنى بذلك عن شرفهما، وكان هذان الرجلان قد قشرا لحاء شجر الكعبة ليتخفرا بذلك، والمضفر: المفتول كالضفيرة اهـ أما ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الأمر بقطع الأوتار والقلائد من أعناق الإبل فإن المراد منه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حيث كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لثلاث تصيبها العين بزعمهم فنهى النبي ﷺ عن ذلك كما نهى عن كل تيممة وهي ما يعلق خشية العين فمن تعلق تيممة فلا أتم الله له، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصاري أخبره أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولا قال عبد الله بن أبي بكر: حسبت أنه قال: والناس في ميئتهم: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت، قال مالك: أرى ذلك من العين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا آمِنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَتِغَوْنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضَوَانَا﴾ أي ولا تتعرضوا بأذى لقاصدي البيت الحرام وزوار الكعبة المشرفة الذين يعتمرون أو يحجون طلبا لفضل الله ومرضاته، وهذا وإن كان الخطاب فيه للمؤمنين ففيه تنديد بكفار قريش الذين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية فهو على حد قول الشاعر:

إياك أعني واسمعي يا جارة، وهو مع ذلك نصيحة للمؤمنين إلى يوم القيامة حتى لا يصد أحد من المسلمين المعروفين بالاستقامة وعدم الإفساد في الأرض عن الحج أو العمرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي وإذا حللتكم من إحرامكم وكنتم في غير الحرم جاز لكم صيد البر الذي كان محرما عليكم بسبب الإحرام المستفاد من قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة:

﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ أَنْ
صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم منعوكم
من زيارة المسجد الحرام يوم الحديبية أن تظلموهم ، ثم أمر عز وجل المؤمنين
بقواعد الخير وأصول التكافل الاجتماعي حيث قال : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ﴾

هذا شروع في بيان المحرمات من المطاعم ، وتفصيل لما أجمله الله عز وجل من محرمات بهيمة الأنعام في قوله تبارك وتعالى في الآية الأولى : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من محرمات المطاعم أحد عشر نوعا ، تقدم تفسير الأنواع الأربعة الأول منها وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به في تفسير الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة ، أما النوع الخامس من هذه الأنواع فهو المنخنقة أي الحيوان الذي فارق الحياة بسبب الخنق سواء كان بعصر حلقه والضغط على عنقه حتى يموت كما كان أهل الجاهلية يفعلون حيث كانوا يخنقون البهيمة فإذا ماتت أكلوها ، أو كان هذا الخنق لها بغير قصد كأن تتخبل في وثاقها فتموت أو أن تخنق بحبل الصائد أو أن تدخل رأسها بين عودين في شجرة عند الرعي أو غيره فتموت من ذلك فبأي وجه اختنقت فهي حرام لا يحل أكلها ، والنوع السادس هو الموقوذة وهي التي تضرب أو ترمى بشيء ثقيل غير محدد كخشب أو حجر أو غيرها حتى تفارق الحياة ، وقد كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها ، فقد روى البخاري ومسلم من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن المعراض فقال : إذا أصبت بحده فكل ، فإذا أصاب

بعرضه فقتل فإنه وقيد فلا تأكل . وفي لفظ للبخاري من حديث عدي رضي
 الله عنه قال : قلت : وإنما نرمي بالمعراض ؟ قال : كُلُّ ما خزق ، وما أصاب
 بعرضه فلا تأكل . وفي لفظ مسلم : قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد
 فأصيب ؟ فقال : إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرضه فلا
 تأكله . قال ابن التين : المعراض عصا في طرفها حديدة يرمى الصائد بها
 الصيد فما أصاب بحده فهو ذكي فيؤكل ، وما أصاب بغير حده فهو وقيد
 اهـ ومعنى خزق أي نفذ فيه السهم وجرحه . والنوع السابع : المتردية وهي
 البهيمة التي تقع من مكان مرتفع كجبل أو نحوه أو تسقط في بئر فتموت
 بذلك . والنوع الثامن : النطيحة وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي
 حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها لأن القرن ليس آلة
 تذكية . واعلم أن دخول الهاء في هذه الكلمات الأربع ، أعني : المنخنقة
 والموقوذة والمتردية والنطيحة إنما كان لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو البهيمة
 كأنه قيل : حرمت عليكم البهيمة المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة قال
 الفخر الرازي : فإن قيل : لم أثبت الهاء في النطيحة مع أنها كانت في الأصل
 منطوحة فعدل بها إلى النطيحة ، وفي مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة
 كقولهم : كف خضيب ، ولحية دهين ، وعين كحيل ؟ قلنا : إنما تحذف الهاء
 من الفعلية إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها ، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت
 الصفة وضعتْها موضع الموصوف ، تقول : رأيت قتيلة بني فلان بالهاء لأنك
 إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أو امرأة اهـ والنوع التاسع من محرمات
 المطاعم ما أكل السبع وهي البهيمة التي عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو
 ذئب أو كلب ونحو ذلك من كل حيوان له ناب يفترس به ويعدو على الناس
 والدواب ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وما أكل السَّبُع ﴾ أي وما أكل السبع
 بعضه وأفضل بعضه وماتت البهيمة من ذلك ، ففي الكلام محذوف تقديره

وما أكل منه السبع ، لأن ما أكله السبع فقد نفذ ولا حكم له لأنه قد صار معدوما لا وجود له بين أيدي الناس ، وقد أجمع علماء المسلمين على تحريم ما أكل السبع منه وماتت البهيمة من ذلك حتى لو كان السبع قد جرحها وسال منها الدم ولو من مذبحتها ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين . فإن قال قائل : أليست المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع في معنى الميتة وقد نص على تحريم الميتة في أول هذه الآية فلماذا هذا التنصيص على هذه الخمس ؟ فالجواب أن العرب كانوا يفرقون بين الميتة التي ماتت حتف أنفها وبين هذه الخمس ولا يطلقون على هذه الخمس اسم الميتة كما يسمون من مات من الناس حتف أنفه ميتاً ويسمون من فارق الحياة بضربه بالسيف ونحوه قتيلاً كما كانوا يفرقون بين الميتة وبين هذه الخمس في الاستعمال حيث كان الكثير من أهل الجاهلية لا يأكلون الميتة ويأكلون المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموها أي فريتم أوداجها وأنهرتم دمه بمحدد قاطع من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر أو غيره مما يقطع المرء والحلقوم والودجين مع ذكر اسم الله ، ولا يجوز الذبح بالسن والظفر فقد روى البخاري ومسلم من حديث رافع بن خديج قال : قلت : يا رسول الله إنا لا قوا العدو غدا وليست معنا مدى ؟ فقال : اعجل أو أرن ، ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل ، ليس السن والظفر ، وسأحدثك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة . الحديث . والعرب يطلقون التذكية على الذبح وعلى النحر والنحر هو الطعن في اللبة والمنحر . والنوع العاشر من محرمات المطاعم ما ذبح على النصب قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة قال

ابن جريج : وهي ثلثمائة وستون نصبا كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، وكذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله ، فالذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله اهـ والنوع الحادي عشر من محرمات المطاعم ما كان يذبحه أهل الجاهلية على طريق القمار والميسر حيث كانوا يضربون بقداح الميسر ويستقسمون بها لها ولعبا وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدمين وأصل الاستقسام طلب القسم والنصيب ، والأزلام جمع زلم بفتح الزاي وضمها وهو القِدْحُ قال في القاموس : القدح بالكسر السهم قبل أن يراش وينصل اهـ وقال في باب الميم فصل الزاي : الزلم محرّكة وكسرد الظلف أو الذي خلفه ، وقِدْح لا ريش عليه ، وسهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية اهـ وكان للعرب ثلاثة أنواع من الأزلام ، النوع الأول ثلاثة قداح يتخذها كل إنسان منهم لنفسه ، مكتوب على أحدها : افعل وعلى الثاني : لا تفعل ، ويترك الثالث مهملا بدون كتابة ويضع هذه الثلاثة في خريطة وهي وعاء من جلد ، فإذا رغب في عمل شيء أدخل يده في الخريطة وأخرج واحدا منها فإن كان الأمر أقدم على الفعل ، وإن كان الناهي أنزجر عنه ، وإن كان المهمل أعاد الضرب . وهذه هي التي استقسم بها سراقة بن مالك حين هم بالنبي ﷺ يوم الهجرة ، والنوع الثاني من أزلام العرب سبعة قداح كانت عند هبل وكانت كذلك عند الكهان وقد كتب فيها ما يدور بين الناس من النوازل كالديات ، ومنكم ، ومن غيركم ، وملصق ، ونحو ذلك ، وكانوا يضربون بها ويحكمون بحكمها . والنوع الثالث قداح الميسر التي كانوا يضربون بها

مقامرة ولها ليلتزم ما يقع عليه السهم بتقديم الذبائح ، وهذه هي المرادة هنا والعلم عند الله عز وجل ، ولما كان الاستقسام بالأزلام لا خير فيه سواء كان لطلب الخيرة في الأمور أو كان للتقامر فقد أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الاستخارة المبنية على التوكل على الله وطلب الخيرة من العليم الخبير القدير فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به ، قال : ويسمي حاجته . والإشارة في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ فَسُقْ ﴾ للمحرمات من المطاعم المذكورات في هذه الآية أي تناول هذه المحرمات خروج على طاعة الله وتمرد على شرع الله ، وعدم وفاء بالعقود التي أخذها الله عز وجل على عباده وأمرهم بالوفاء بها في قوله عز وجل : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ﴾ أي الآن قد انقطع طمع الكفار في القضاء على الإسلام وحصل لهم اليأس من قهركم وتغيير دينكم ، فقد ارتفعت رايته وأشرقت أنوار تعاليمه ، فليكن أكبر همكم العض عليه بالنواجذ ، وتطبيق تشريعاته وانزعوا من قلوبكم الخوف من أن يقضي المشركون على دينكم ، وليكن خوفكم من الله وحده ، فعليه توكلوا ، فقد تمت لكم النعمة ، ولذلك قال بعدها : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴿١﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه اهـ وقد روى البخاري ومسلم من طريق سفيان عن قيس أن طارق بن شهاب قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً ، فقال عمر : إني لأعلم حيث أنزلت وأي يوم أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت ، أنزلت بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة . قال سفيان : أشك أن كان يوم جمعة أم لا يعني ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم اهـ وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة بسبب المجاعة إلى أكل شيء من هذه المطاعم المحرمة ليسلم من الموت فمادام لم يعمل إلى المعصية فإن الله لا يؤاخذ به أكله من هذه المحرمات حالة كونه مضطراً .

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .﴾

بعد أن فصل عز وجل ما حرمه من المطاعم على المؤمنين إلا ما اضطروا إليه شرع عز وجل يفصل لهم ما أحله وأباحه لهم من المطاعم والطيبات من الرزق التي كان أهل الجاهلية يحرمون بعضها على غير بصيرة كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، ويعلمهم عز وجل حكم الزواج من الكتابيات حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ الآيتين . ومعنى قوله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يستفتونك ويطلبون منك تفصيل وبيان ما أباح لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم عليهم منها ويقولون لك أيها النبي الكريم : ماذا أحل لنا؟ وقد أجابهم الله عز وجل بأكثر مما سألوا عنه حيث بين لهم أنه أباح لهم الطيبات وكذلك ما صادته لهم الجوارح الملعنة التي أرسلوها لتصيد لهم وذكروا اسم الله عليها عند إرسالها ، وأنه أحل لهم المستلذات التي لا ضرر فيها ولا خبث ، وأنه أباح لهم ذبائح أهل الكتاب ، وأذن لهم في إطعام أهل الكتاب من ذبائحهم ، كما أباح لهم نكاح الحرائر العفيفات من المؤمنات ونكاح الحرائر العفيفات من الكتابيات ، ولا شك عند أهل العلم أن جواب السائل بأكثر مما سأل عنه مما يحتاجه أمر تقتضيه الحكمة وهو داخل تحت أسلوب

الحكيم ، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء بماء البحر أجاب بطهارة ماء البحر وحل ميتته فقد روى أصحاب السنن وصححه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . والمراد بالطيبات في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ المستساغات من الأطعمة والأشربة التي طيبها الله عز وجل ، ولا تضر من طعمها ، ولم يرد نص عن الله أو عن رسوله ﷺ يقتضي تحريمها والمنع من تناولها ، وقد خلت من الخبث . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ ﴾ أي وأحل لكم صيد المعلمة من السباع والكلاب والطيور الكواسب التي ترسلونها على الصيد وتؤدبونها بما ألهمكم الله عز وجل فتعرف أداب الصيد فلا تصيد لنفسها بل تصيد لكم ولا تأكل من الصيد بسبب تدريبكم لها على ذلك إلا ما أطعمتموها أنتم منه بعد أن توصله لكم ، فكلوا من الصيد الذي أمسكته لكم هذه الجوارح المعلمة ، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد ، وخافوا ربكم . والجوارح جمع جارحة ، وهي الكواسب من السباع والكلاب والطيور التي تقبل التعليم ، وأصل الاجتراح : الاكتساب يقال : فلان جارحة أهله أي كاسبهم ومنه قوله تعالى : ﴿ اجترحوا السيئات ﴾ أي اكتسبوا المعاصي والذنوب ومعنى : ﴿ مكليين ﴾ أي مرسلين هذه الجوارح على الصيد لتصيدكم بعد تعليمها وتدريبها على ذلك قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : ومُكَلِّبٌ : مضرٌ للكلاب على الصيد ، معلَّم لها ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ ﴾ فقد دخل في هذا الفهد ، والبازي ،

والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح، والكلاب صاحب الكلاب،
 والمكلب الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، وفي حديث الصيد: إن لي كلاباً
 مكلبة فأفتني في صيدها، المكلبة: المسلطة على الصيد، المعودة بالاصطياد
 التي قد ضربت به، والمكلب بالكسر: صاحبها والذي يصطاد بها اهـ
 والعرب قد يطلقون اسم الكلب على سائر السباع كما تطلق على النابح سواء
 كان ضارياً أو غير ضار. قال الجوهري في الصحاح: وقد ضرى الكلب
 بالصيد يضري ضراوة أي تعود، وكلب ضار وكلبة ضارية، وأضره صاحبه
 أي دربه وعوده، وأضره به أيضاً أي أغراه اهـ ومعنى قوله عز وجل:
 ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي تدربونهن وترشدونهن إلى طرق الاصطياد
 التي هداكم الله إليها وعرفكموها وتؤدبونهن حتى لا يأكلن من الصيد
 لتعلموا أنها صادت لكم لا لأنفسها، وحتى إذا أرسلتموها استرسلت وإذا
 زجرتموها انزجرت، وإذا دعوتموها استجابت، وإذا أردتموها لم تفر منكم،
 وصار ذلك معلوماً منها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ
 واذكروا اسم الله عليه﴾ أي فمتى كان الجارح معلماً وخرج إلى الصيد بإرسال
 صاحبه الذي ذكر اسم الله عليه عند إرساله وأمسك الصيد على صاحبه حل
 صيده لكم وإن قتله، وقد أجمع على ذلك أهل العلم، وقد روى البخاري
 من طريق زكرياء عن عامر عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت
 النبي ﷺ عن صيد المعارض قال: ما أصاب بحده فكله وما أصاب بعرضه
 فهو وقيد، وسألته عن صيد الكلب، فقال: ما أمسك عليك فكل، فإن
 أخذ الكلب ذكاة، وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره فخشيت أن
 يكون أخذه معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره
 على غيره، ثم ساقه من طريق عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي، وفيه:
 فقلت: أرسل كلبتي؟ قال: إذا أرسلت كلبك، وسميت فكل، قلت: فإن

أكل؟ قال: فلا تأكل، فإنه لم يمسك عليك، إنما أمسك على نفسه، قلت أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر؟ قال: لا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على آخر، ثم ساقه البخاري من طريق همام بن الحارث عن عدي رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله إنا نرسل الكلاب المعلمة؟ قال: كل ما أمسكن عليك، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن. الحديث. وقد ساقه مسلم من طريق عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أمسك عليك فأدرته حياً فاذبحه وإن أدرته قد قتل ولم يأكل منه فكله، وإن وجدت مع كلبك كلباً غيره وقد قتل فلا تأكل فإنك لا تدري أيهما قتله. الحديث. وأخرجه من طريق همام بن الحارث عن عدي بن حاتم قال: قلت: يارسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليّ وأذكر اسم الله عليه فقال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل. قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس معها. الحديث، ثم ساقه من طريق بيان عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ قال: إنا قوم نصيّد بهذه الكلاب؟ فقال: إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل. وساقه من طريق عبد الله ابن أبي السفر عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: وسألت رسول الله ﷺ عن الكلب فقال: إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، فإن أكل منه فلا تأكل فإنه إنما أمسك على نفسه، قلت: فإن وجدت مع كلبى كلباً آخر فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله، إن الله سريع الحساب﴾ أي وراقبوا الله

عز وجل في جميع شئونكم ولا تعتدوا بتحليل ما حرم أو تحريم ما أحل فإنه عز وجل حافظ لجميع أعمالكم لا يثقله محاسبتكم جميعاً في مثل طرفة عين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ المراد باليوم الزمن الحاضر بمعنى الآن كما ذكر ذلك الزجاج وابن الأنباري ونظيره قولك : كنت بالأمس شاباً واليوم قد صرت شيخاً ، ولا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك الذي أنت فيه ، وتقول : قد كنت في غفلة واليوم استيقظت أي الآن استيقظت ، وتقول : كان فلان يزورنا واليوم يحفوننا أي والآن ومنه قول الشاعر النمر بن تولب :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساءً ويوم نسر

أي فرمان لنا وزمان علينا ولم يقصد يوماً لا ينضم إليه غيره . وقد كرر الله تبارك وتعالى تحليل الطيبات تأكيداً على جزيل فضله وواسع عطائه وتنديداً بمن يتجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾ أي وذبائح أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى حلال لكم وذبائحكم حلال لهم قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين اهـ والمقصود من قوله عز وجل : ﴿وطعامكم حل لهم﴾ كما قال الزجاج : معناه حلال لكم أن تطعموهم اهـ قال أبو محمد البغوي الملقب بمحيي السنة في تفسيره : فيكون خطاب الحل مع المسلمين ، وقيل لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال : حلال لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تزوجوهم اهـ وإطلاق الطعام هنا على الذبائح من إطلاق العام الذي أريد به الخصوص لأن ما سوى الذبائح

محللة قبل أن تكون لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم، فلا يحرم من طعامهم إلا ما نص الشرع على تحريمه على المسلمين. وقوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي وأحل لكم التزوج من الحرائر العفيفات المؤمنات وأحل لكم كذلك التزوج من الحرائر العفيفات من النصرانيات واليهوديات إذا فرضتم لهن مهورهن حالة كونكم أعفَاء عن الزنا جهرا وسرا، وقد تقدم في تفسير الآية الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من سورة النساء بيان معاني الأجور والإحصان والسفاح والأخذان. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ تحذير من الله عز وجل لمن تشكك في تحريم ما حرم الله أو تحليل ما أحل، وتنبيه لمن تزوج يهودية أو نصرانية أن يكون على حذر من أن يعجبه جماها فيتأثر بدينها، بل عليه أن يبذل الوسائل لنقلها إلى دين الإسلام، فإن تأثر هو بدينها فقد حبط عمله وبطل ما فعل من الخير وإن مات على ذلك كان في الآخرة من الخاسرين، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل ما أحله لعباده من المطاعم والمناكح التي لا غنى لهم عن التزود بها في الحياة الدنيا وقد ذيل الآية السابقة بما يلفت الانتباه إلى أن تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم هو من شرائع الإيمان حيث قال ﴿ومن يكفر بالإيمان فقط حبط عمله﴾ الآية . شرع هنا يبين لهم ما لا غنى لهم عنه من زاد الآخرة وبدأ بأهم ما يجب الوفاء به من العهود بعد الإيمان وهو الصلاة التي هي عماد الدين والتي قد سماها الله عز وجل إيماناً حيث قال : ﴿وما كان الله ليضيّع إيمانكم﴾ يعني صلاتكم عند البيت ولما كانت الصلاة لأبد لها من الوضوء ولا يقبلها الله من أحد إلا إذا كان متطهراً لها ، لا جرم بدأ عز وجل بذكر شرائط الوضوء فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ ومعنى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ، وهذا أسلوب مشهور في اللسان العربي كما تقول : إذا آخيت فأخ الصالحين ، وكذلك قال عز وجل : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .﴾ والاستعاذة إنما تطلب قبل الشروع في قراءة القرآن ولا يخطر ببال عاقل أن المقصود من قوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلخ أن يتوضئوا أثناء قيامهم إلى الصلاة وعند تلبسهم بفعلها إذ لا يجوز تأدية

أي جزء من الصلاة بدون الطهارة فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ . كما روى مسلم من طريق مصعب بن سعد قال : دخل عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما على ابن عامر يعوده وهو مريض فقال : ألا تدعو الله لي يا ابن عمر؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول ، وكنت على البصرة ، وفي لفظ لمسلم من طريق همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ . وقد وصف رسول الله ﷺ الوضوء بأنه شطر الإيمان أي الصلاة ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . وهذه الآية حرية أن تسمى آية الوضوء ، إذ قد بدأ الله عز وجل الأحكام فيها ببيان أعضاء الوضوء ما يغسل منها وما يمسح ، وهي أربعة أعضاء ، أمر بغسل ثلاثة منها وهي الوجه واليدين إلى المرفقين والرجلان إلى الكعبين وأمر بمسح الرأس ، وهذه هي الطهارة الصغرى التي تفرض على من أراد الصلاة إذا كان محدثاً حدثاً أصغر ، أما الحدث الأكبر وهو الجنابة الموجبة لغسل جميع الجسم فقد بينها عز وجل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ والمقصود الطهارة الكبرى بغسل جميع البدن ، والوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء ، وحدّه في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى أسفل الذقن ومنتهى اللحيين ، وحده عرضاً ما بين الأذنين . ومعنى قوله عز

وجل : ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، فالمرافق هي نهاية ما يجب غسله في اليدين ، والغاية هنا داخلية في المغيّا ، والمرافق جمع مرفق وهو موصل الذراع بالعضد ، ولما كانت اليد تطلق عند العرب من أطراف الأصابع إلى الكتف حدد الله عز وجل ما يجب غسله منها بحد المرافق ، كما أن الرّجل تطلق من أطراف الأصابع إلى الحد الأعلى من الفخذ ولذلك حدد الله تبارك وتعالى ما يجب غسله منها بحد الكعبين ، والكعبان هما العظمان الناشزان عند ملتقى الساق والقدم في جانب القدم ، ولكل قدم كعبان عن يمينها ويسرتها ، وقد قرأ ابن عامر والكسائي ونافع ويعقوب وحفص عن عاصم بنصب اللام من قول عز وجل : ﴿وأرجلكم﴾ وقرأ ابن كثير وحزمة وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالجر ، وقد بينت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن فرض الرّجلين في الوضوء هو الغسل لا المسح فتكون قراءة الجر جاءت للمجاورة ، وقد أفرد النحاة للجر على المجاورة بابا خاصا ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية عن الجر على المجاورة : وهذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع . وقال الإمام الحسين بن مسعود الفراء محيي السنة البغوي في تفسير هذه الآية : خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم كما قال تبارك وتعالى : ﴿عذاب يوم أليم﴾ فالأليم صفة العذاب ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة ، وكقولهم : جحرُ ضبٍّ خربٍ فالخرب نعت الجحر وأخذ إعراب الضب للمجاورة اهـ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه كان يغسل رجليه في الوضوء ولم يثبت قط أنه مسح عليهما إلا أن يكون لابسا للخفين ، وتوعد من ترك شيئا من القدمين دون غسل في الوضوء بالويل وعذاب النار فقد قال البخاري في كتاب العلم من صحيحه : باب من رفع صوته بالعلم ، حدثنا أبو النعمان عارم بن الفضل قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن

عمرو قال : تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا ، فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا ، ثم قال البخاري في كتاب الوضوء من صحيحه : باب غسل الرجلين ولا يمسخ على القدمين ، حدثنا موسى قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا العصر ، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا ، فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار ، مرتين أو ثلاثا . وقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق مخزومة بن بكير عن أبيه عن سالم مولى شداد قال : دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفي سعد بن أبي وقاص فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر فتوضأ عندها فقالت : يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب من النار ثم ساق مسلم من طريق هلال بن يساف عن أبي يحيى عن عبد الله بن عمرو قال : رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر فتوضئوا وهم عجال ، فانتبهنا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء ، فقال رسول الله ﷺ : ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء . ثم ساق من طريق أبي عوانة عن أبي بشر عن يوسف ابن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه ، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر فجعلنا نمسح على أرجلنا ، فنادى : ويل للأعقاب من النار . ثم ساق مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال : ويل للأعقاب من النار كما روى البخاري من طريق محمد بن زياد قال سمعت أبا هريرة وكان يمر بنا والناس يتوضئون من المطهرة قال : أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم ﷺ قال : ويل للأعقاب من النار . وقد أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من طريق محمد

ابن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى قوماً يتوضئون من المطهرة فقال :
أسبغوا الوضوء فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : ويل للعراقيب من النار ،
وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزبير عن جابر أخبرني عمر بن الخطاب أن
رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه ، فأبصره النبي ﷺ فقال : ارجع
فأحسن وضوءك فرجع ثم صلى . وقد فسر رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ بقوله وفعله ﷺ أوضح
تفسير وبين ذلك أعظم تبين ، ونبه إلى وجوب غسل الكفين قبل إدخالهما في
المطهرة لمن استيقظ من النوم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من
نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدرى أين باتت
يده . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ : إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثاً فإن الشيطان
يبيت على خيشومه . كما روى البخاري ومسلم عن حمران بن أبان مولى عثمان
ابن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بوضوء فغسل كفيه ثم تمضمض
واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق
ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجله اليمنى
إلى الكعبين ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ
توضأ نحو وضوئي هذا . الحديث . كما روى البخاري ومسلم من حديث
عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنهما في صفة وضوء النبي ﷺ قال :
ومسح رسول الله ﷺ برأسه فأقبل بيديه وأدبر . كما أخرج أبو داود من حديث
المقدام أنه ﷺ لما بلغ مسح رأسه وضع كفيه على مقدم رأسه فأمرهما حتى بلغ
القفأ ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه ، كما أخرج أبو داود والنسائي

وصححه ابن خزيمة من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما - في صفة الوضوء - قال : ثم مسح برأسه وأدخل إصبعيه السباحتين في أذنيه ، ومسح بإبهاميه ظاهر أذنيه . كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله ابن زيد رضي الله عنهما - في صفة الوضوء : ثم أدخل ﷺ يده فمضمض واستنشق من كف واحدة . هذا ومع كون الطهارة شرطاً في صحة الصلاة ومع حب الله تبارك وتعالى للمتطهرين فقد بشر رسول الله ﷺ من يحسن وضوءه بدرجات عالية فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ أي وإن أصابتكم جنابة فلا تقربوا الصلاة حتى تغتسلوا وتفيضوا الماء على جميع بدنكم . وقد تقدم بيان معنى قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ في تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء . والإرادة في قوله عز وجل : ﴿ مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هي الإرادة الشرعية لا الإرادة الكونية القدريّة ، أي ما يحب الله عز وجل أن يجعل عليكم فيما يشرعه لكم من الدين وما ألزمكم به من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة حرجاً وضيقاً وعنتاً ومشقة وإنما يريد الله عز وجل نظافة بواطنكم وظواهركم وطهارة نفوسكم وأبدانكم ومغفرة ذنوبكم وتكفير سيئاتكم ، وأن يُذهب الرجس عنكم وأن يُكَمِّلَ لكم أكمل المناهج بما اشتملت عليه من الشمول والكمال والدوام والصلاحية لكل زمان ومكان لكي تشكروا لله عز وجل على ما خصكم به من هذه النعم العالية والتشريعات السامية .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل في صدر هذه السورة الكريمة المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وعهد إليهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به من تحليل ما أحل الله لهم وتحريم ما حرم عليهم ، وبين لهم أكمل المناهج وأحسنها مما يجلب لهم سعادة الدنيا والآخرة إن استمسكوا بها وساروا على منوالها ، وأعلمهم أنه أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة ، وختم الآية السابقة بتأكيد ذلك حيث قال : ﴿وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أمر المؤمنين هنا ونبههم إلى أن يجعلوا هذه النعم وتلك العهود والمواثيق التي التزموا بها لله عز وجل بمقتضى عقد الإيمان نُصِبَ أعينهم ، فلا ينسوها ولا يغفلوا عنها حيث يقول عز وجل : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ والمراد بالنعمة هنا جنسها فتشمل سائر نعمه عز وجل وبخاصة ما لفت انتباههم إليه منها ههنا . والمراد بذكرها شكر الله عز وجل عليها والإقرار بأنه تبارك وتعالى هو مسديها والمتفضل بها ، والمراد بذكر الميثاق هو الوقوف عند حدود الله والالتزام بأمره والانزجار عما زجر عنه ، وطاعة رسول الله ﷺ في السر والعلن والمنشط والمكره ، والوفاء ببيعته كما قال عز

وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي وراقبوا الله تبارك وتعالى في أعمالكم وأيقنوا أنه لا يخفى عليه شيء مما في صدوركم وخفيا نفوسكم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أي كونوا قوامين لله بالحق ، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل مع كل أحد عدواً كان أو صديقاً . وقوله عز وجل : ﴿ هُوَ ﴾ ضمير راجع إلى العدل المستفاد من قوله عز وجل : ﴿ اْعْدِلُوا ﴾ ودلالة اعدلوا على العدل هنا من باب دلالة التضمن ، وهي دلالة اللفظ على جزء معناه ، إذ الفعل يدل على الحدث والزمان ، أما المصدر فإنه يدل على الحدث وحده ، فلفظ : ﴿ اْعْدِلُوا ﴾ يدل على الحدث والزمن المستقبل ، والعدل مصدر يدل على الحدث فقط بغض النظر عن زمانه . وقد استعمل القرآن الكريم دلالة التضمن في مواضع كثيرة كما هو هنا وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ فقول عز وجل : ﴿ هُوَ ﴾ ضمير يعود على الرجوع المدلول عليه بقوله : ﴿ اَزْجِعُوا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي عدلكم مع أوليائكم وأعدائكم أقرب إلى أن تكونوا من المتقين ، وأن تصانوا من عذاب النار يوم القيامة ، وقال ابن كثير رحمه الله : وقوله ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإنه يعني :

واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيه حكمه وقضاه الذي بين لكم ، فيحل بكم عقوبته ، وتستوجبوا منه أليم نكاله ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، من عمل به أو خلاف له ، محص ذلكم عليكم كله ، حتى يجازيكم : المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فاتقوا أن تسيئوا ، اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ بيان لما اقتضاه قوله عز وجل في تذييل الآية السابقة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الوعد والوعيد ، حيث وعد هنا المستجيبين لله ولرسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم وتوعد الكافرين المكذبين بملازمة الجحيم ، وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا البيان هنا بأسلوب بلاغي حيث قال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فذكر الوعد ولم يذكر الموعود مما يجعل النفوس تتطلع إليه وتشرئب لمعرفته فجاء به على سبيل الاستئناف البياني كأن السائل يسأل : ماذا وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ فكان الجواب ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لهم تكفير خطاياهم ومنحهم الثواب الجزيل وإسكانهم جنات النعيم ، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية : فإن قال قائل : إن الله جل ثناؤه أخبر في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يخبر بما وعدهم فأين الخبر عن الموعود ؟ قيل : بلى ، إنه قد أخبر عن الموعود ، والموعود هو قوله : ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وقال الفخر الرازي : فإن قيل : لم أخبر عن هذا الوعد مع أنه لو أخبر بالموعود به كان ذلك أقوى ؟ قلنا : بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى ، وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ والإله هو الذي يكون قادراً على جميع المقدورات ، عالماً بجميع المعلومات ، غنياً عن كل

الحاجات ، وهذا يمتنع الخلف في وعده ، لأن دخول الخلف إنما يكون إما للجهل حيث ينسى وعده ، وإما للعجز حيث لا يقدر على الوفاء بوعده ، وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد ، وإما للحاجة ، فإذا كان الإله هو الذي يكون منزهاً عن كل هذه الوجوه كان دخول الخلف في وعده محالاً ، فكان الإخبار عن هذا الوعد أؤكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به ، وأيضاً فلأن هذا الوعد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشدائد ، وبعد الموت يسهل عليه بسببه البقاء في ظلمة القبر وفي عرصة القيامة عند مشاهدة تلك الأحوال اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ بيان لوعيد الكفار المكذبين بعد بيان وعد المؤمنين الصالحين قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية : من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حض للمؤمنين على أن يوفوا بعقودهم وأن يشكروا نعمت الله عليهم ، حيث أعزهم بالإسلام وأعز الإسلام بهم ، وحماهم من كيد أعدائهم ، ومكن لهم في الأرض ، وألقى الرعب في قلوب من يريد بهم شراً وصانهم من شرهم وأمرهم عز وجل بتقواه والتوكل عليه ، لأنه وحده القادر على كل شيء ، وقد وقعت حوادث كثيرة هم فيها بعض الكافرين بقتل رسول الله ﷺ أو قتل أصحابه رضي الله عنهم وكانت للكافرين في ذلك قدرة على تنفيذ مرادهم الشرير ، ولكن الله عز وجل حمى رسوله ﷺ وحمى أصحابه من شرور أعدائهم وحال بينهم وبين ما يشتهون صيانة لرسوله ﷺ وإعزازاً لدينه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ،

فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاء ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاء ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر : فمنا نومة ، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتا ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله ، فهاهو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ ، ثم قال البخاري : وقال أبان : حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة ، فاخرطه ، فقال : تخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله ، فتهدده أصحاب النبي ﷺ . الحديث . وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا أبان بن يزيد حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع قال : كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ ، قال : فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة ، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخرطه ، فقال لرسول الله ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله ، قال : فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف ، وعلقه . الحديث . قال البخاري رحمه الله بعد سياقه حديث جابر رضي الله عنه من طريق أبان : وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث اهـ وقد حاول نحو ثمانين رجلاً من مشركي قريش يوم الحديبية أن يميلوا على المسلمين يريدون غرة رسول الله ﷺ وأصحابه فكفهم الله عز وجل عنهم ، واستسلموا للمسلمين فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على

رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه
فأخذهم سلماً فاستحياهم فأنزل الله عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله تبارك
وتعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي واحرصوا أيها المؤمنون
على ملازمة تقوى الله وحافظوا على العهود والمواثيق ، واعتمدوا على الله وحده
وألحقوا أزمة أموركم إليه ، واستسلموا لقضائه ، وثقوا بنصره وعونه ، إذ أن هذا
هو دأب المؤمنين المقرين بالله ورسله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله
بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . فَبِمَا نَقُضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وأن يشكروا نعمة الله عليهم وأكد عليهم ذلك بعدة تأكيدات أشار هنا إلى أن من أبرز صفات اليهود والنصارى أن ينقضوا العهود والمواثيق ولا يوفوا بها ، تحذيراً للمسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الخائنين وكأنه يقول لهم : لا تكونوا أيها المؤمنون مثل أولئك اليهود والنصارى في هذا الخلق الذميم ، لئلا تصيروا مثلهم فيما نزل بهم من اللعن والذلة وقسوة قلوبهم وجرأتهم في الكذب على الله وعلى رسله ، وإغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ الآيات الثلاث إلى قوله عز وجل : ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا﴾ أي ووصينا وأمرنا موسى عليه السلام أن يجعل على أسباط بني إسرائيل اثني عشر نقيبا بعدد أسباطهم ، على كل سبط منهم نقيب يرعى مصالحهم ، ويشرف على شئونهم ، وينقب عن أمورهم ، إذ النقيب : كبير القوم ، المسئول عنهم ،

وهو أكبر مكانة من العريف ، واختيار النقباء سياسة شرعية رشيدة ، ولذلك لما تمت بيعة العقبة الثانية في العقبة الثالثة الأخيرة وقد بايع رسول الله ﷺ فيها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهما نسيبة بنت كعب أم عمار وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي أم منيع ، فلما تمت البيعة اختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر رجلا وسماهم النقباء اقتداء بموسى عليه السلام كما جاء في الخبر الصحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وكان من النقباء عبادة ابن الصامت والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وأسعد ابن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي وأخبر الله عز وجل بني إسرائيل بواسطة موسى عليه السلام أنه تبارك وتعالى عليهم بكل ما يذرون وما يفعلون ، وأنهم تحت قدرته وعلمه لا تخفى عليه من شئونهم خافية ، والمقصود تنبيههم إلى العناية بأوامر الله ونواهيه ، وحملهم على الجد والاجتهاد في تطبيق شرع الله عز وجل ، كأنه يقول لهم : إني معكم أسمع كلامكم ، وأرى أعمالكم ، وأعلم ما في ضمائركم ، وأنا رقيب على سائر تحركاتكم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه صورة العهد والميثاق الذي أخذه الله عز وجل على بني إسرائيل وحدد فيه ما عليهم ، وما لهم إن وفوا به ، وقد ألزمهم فيه عز وجل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بجميع رسل الله وتأييدهم وأن يتعاونوا على الخير ويبدلوا المال ابتغاء وجه الله ويتركوا الربا . قال الفخر الرازي رحمه الله : إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿وقال الله إني معكم﴾

والمعنى : إني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم ، وأرى أفعالكم ، وأعلم ضمائرکم ، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم ، فقلوه ﴿إني معكم﴾ مقدمة معتبرة جداً في الترغيب والترهيب ، ثم لما وضع الله تعالى هذه المقدمة الكلية ، ذكر بعدها جملة شرطية ، والشرط فيها مركب من أمور خمسة ، وهي قوله : ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ والجزاء هو قوله : ﴿لأَكْفُرَنَّ عَنْكُمْ سِيئاتِكُمْ﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العقاب ، وقوله : ﴿وَلَا دُخْلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو إشارة إلى إيصال الثواب اهـ ومعنى : ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي ونصرتهم وشددتم أزرهم وقويتموهم ، وتدور مادة التعزيز في اللغة على التقوية والتفخيم والتعظيم والمنع والردع والإجبار على الأمر والضرب الشديد ، فتعزير الرسل نصرتهم وتعزير المسيء تأديبه وردعه ليقوى جانب الشرع وتعظم أوامر الدين . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : التعزير : مصدر عززه وهو مأخوذ من العز وهو الرد والمنع ، واستعمل في الدفع عن الشخص كدفع أعدائه عنه ومنعهم من إضراره ، ومنه : ﴿وَأَمْنَمْتُ بِرْسِلِي وَعَزَّزْتُوهُمْ﴾ وكدفعه عن إتيان القبيح ، ومنه : عززه القاضي أي أدبه لئلا يعود إلى القبيح ، ويكون بالقول وبالفعل بحسب ما يليق به اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ . أي فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل شيئاً مما ألزمته به وخالف الميثاق من بعد عقده وتوكيده ، ونقضه بعد أن أقربه ، فقد أخطأ الطريق الواضح وتاه في بیداء الضلالة وعمى عن الصراط المستقيم ، ولا شك عند أهل العلم أن من كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضاً ، وإنما قيد هنا بقوله عز وجل : ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ للتشنيع على هؤلاء اليهود المدعين للعلم ، الذين انحرفوا عن منهج الرشـد بعد العهد والميثاق ، لأن الضلال بعد ذلك أظهر ، ومن انحرف بعد العلم

كان أفجر وأكفر، والمراد بسواء السبيل وسط الطريق، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هذه صورة لبعض العقوبات التي عجلها الله عز وجل لناقضي العهود من اليهود وهي لعنهم وطردهم من رحمة الله ، وجعل قلوبهم قاسية لا تتعظ بموعظة ولا تلين لقبول الهدى ، ولا تميل لداعي الخير وفسدت فهمهم وساءت تصرفاتهم واجترأوا على الكذب على الله والافتراء عليه وتبديل كلامه وتحريفه عن مواضعه ، وتركوا العمل بشريعة الله رغبة عنها ، وميلاً إلى باطلهم وما يفترونه مما يلائم شهواتهم ، ويحقق لهم جشعهم وبغيهم ، وقد صار الغدر والخيانة من أخص صفاتهم التي يتوارثها منهم أبناؤهم جيلاً بعد جيل ، ومهما حاولوا كتمان غدرهم وإسرار خياناتهم فإن ذوي البصيرة لا يزالون يطلعون على خياناتهم وغدرهم ، وقد نبه الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ كهمهم بقتل رسول الله ﷺ غدرا بإلقاء حجر عليه في حائطهم وكوضعهم السم في شاة مصلية له لقتله ﷺ ، وقد صانه الله عز وجل من غدرهم وشورهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ استثناء لبيان أن بعضهم قد هدى الله قلبه فلم ينغمس في الغدر والخيانة التي انغمس فيها اليهود وانشرح صدره للإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ﴾ ترغيب في العفو عن المسيء والصفح عنه وأن ذلك إحسان يحبه الله عز وجل ويحب المتصفين به ، والفرق بين العفو والصفح أن العفو هو ترك المؤاخذه على الذنب ، والصفح هو الإعراض عن المسيء وعدم ذكر إساءته ، وأصله من الإعراض بصفحة الوجه كأنه أعرض بوجهه عن ذنبه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ

الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُم
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿﴾ بيان لقبائح النصارى وجناباتهم عقب
بيان جرائم اليهود وخياناتهم ، وفي قوله عز وجل : ﴿﴾ قالوا إنا نصارى ﴿﴾ إشارة
إلى أن هذا الاسم أطلق عليهم بتسميتهم لأنفسهم لا بتسمية الله تعالى لهم ،
وقد ذكرت في تفسير الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة البقرة أن النصارى
جمع نصراني ، والنصرانية في الأصل نسبة إلى نصرانة وهي قرية المسيح عليه
السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة
ونصورية ، ولا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل
الإنجيل ، ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني
بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام
السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام ، وقد يفهم من القرآن
الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿﴾ الذين قالوا إنا
نصارى ﴿﴾ اهـ والواقع أن هذه التسمية لا تقتضي مدحا ولا ذما في الأصل
لأنها نسبة إلى وطن المسيح ، والمعلوم أن النسبة إلى البلاد لا تقتضي مدحا ولا
قدحا لوجود الصالح والطالح فيها وليست من عمل الإنسان الذي يمدح به
أو يذم ، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿﴾ ومن الذين قالوا إنا
نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ ﴿﴾ قال أبو جعفر : يقول عز
ذكره : وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي ، واتباع رسلي
والتصديق بهم ، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة
من اليهود ، فبدلوا كذلك دينهم ، ونقضوه نقضهم وتركوا حظهم من ميثاقي
الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي ، وضيعوا أمري اهـ ومعنى قوله عز
وجل : ﴿﴾ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴿﴾ أي فصاروا أحزابا
مختلفة متنافرة متناقضة يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، وقد أغروا

بهذه العداوة والتصقت في قلوبهم وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وعيد شديد لهم على نقضهم الميثاق ، وتركهم العمل بما أمرهم الله عز وجل به ، وكفرهم بمحمد ﷺ كما قال عز وجل : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

قال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ إِلَيْكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن حض الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن يوفوا بالعقود وحذرهم من مشابهة اليهود والنصارى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ونبه عباده إلى عقابه الذي عجله لليهود والنصارى ناقضي الميثاق مع ما ادخره لهم من أليم العذاب يوم القيامة شرع هنا يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الاستجابة لرسول الله ﷺ المبعوث من الله عز وجل بالنور المخرج من الظلمات ، المرسل إلى الناس كافة ليبين للناس كل ما يحتاجونه لسعادتهم في المعاش والمعاد وليقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، ويفضح أحبار السوء ورهبان الضلال الذين يكتمون من التوراة والإنجيل ما يتوهمون أن إعلانه يذهب رئاستهم على غوغائهم ورعاعهم كصفة محمد ﷺ والبشارة به ، ويبين ما غيروه من الأحكام كرجم الزاني الذي غيروه إلى الجلد والتحميم وهو جلدهما أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما . وفي التعبير بقوله عز وجل : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تنديد بهم إذ لم يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ وقد ذكرت في تفسير الآية السبعين من سورة آل عمران أن قوله عز وجل في مخاطبتهم : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ليس مدحاً لهم بل هو غاية

قصوى في الذم والتوبيخ ، إذ المفروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيدين بالمعجزات ، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتاب للتوبيخ والتنديد والذم ، كما تقول لمن ينحرف في سلوكه وكان أبوه صالحاً : يا ابن الرجل الصالح وأنت لا تريد الثناء على هذا المنحرف وإنما تريد توبيخه على عدم سلوكه منهج أبيه في الصلاح والاستقامة وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي قد بعثنا لكم نبينا ورسولنا محمداً ﷺ المبعوث للناس كافة حالة كونه ﷺ بيِّن لكم يا أهل الكتاب الكثير مما كتمتموه من الأخبار والأحكام كبشائر المرسلين بمحمد ﷺ ووصف أمته ووجوب الإيمان به ونصرته وكرجم الزناة ، ويترك كثيراً مما كتمتموه فلا يعلنه لعدم الحاجة إلى إعلانه مع كثرة إنذارنا لكم ، وفيما أعلنه لكم دليل كاف شاف في إثبات رسالته ﷺ ومعجزة ظاهرة باهرة قاهرة على أنه رسول من رب العالمين ، إذ العرب والعجم الذين كانوا في جزيرة العرب وما حولها لا يشكون في أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا علم له بكتابهم قبل أن يوحى إليه ، كما أن ما عفا عنه مما كتموه معجزة أخرى حيث يعرفون أن النبي ﷺ عالم بما يخفونه فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﷺ ، ففي هذا ترغيب وترهيب وإقامة للبرهان على أكمل وجه وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ﴾ تأكيد وبيان لعموم رسالته ﷺ وشمولها لجميع أهل الأرض عربهم وعجمهم من أميين وكتابين ، وأن رسالته ﷺ ليست منحصرة في بيان ما كان يخفيه أهل الكتاب من الحق بل هو نور منير وسراج وهاج يضيء السبيل للسالكين ، ويرشد الحائرين ، قد بعثه الله عز وجل بالكتاب المنير

ليفرق بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والهدى والضلال ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هداية الإرشاد والتوفيق والإعانة والتسديد والتأييد ، والضمير في قوله : ﴿بِهِ﴾ عائد على الكتاب المبين ، وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ ، ومعنى : ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي التمس رضى الله وقصد بعمله وجه الله عز وجل مع امتثال شريعة محمد ﷺ والعمل بها ، والانقياد لها ، والمراد بسبل السلام : طرق السلامة والنجاة وسعادة الدنيا والآخرة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ويخرج المتبعين لرضاه ، الملتزمين هداة ، المنقادين لشرعه ، الذين يتبعون ولا يتدعون ، فيجعلهم على بصيرة في سلوكهم ، ونور من ربهم ، يمشون به في الناس ، بتوفيق الله وهداه . ويرشدهم ويسددهم إلى صراط الله المستقيم ودينه القويم ، وينفي عنهم الضلالة ، ويحميهم من أن تتسلط عليهم الشياطين ، فهم في سلوكهم ينهجون صراط الذين أنعم عليهم ، ويحتنبون صراط المغضوب عليهم والضالين . ولا شك عند أهل السنة والجماعة أن الله تبارك وتعالى يرضى عن أوليائه ويسخط على أعدائه ، نعوذ برضاه من سخطه وبغفوه من عقوبته ونعوذ به منه لا نحصي ثناءً عليه ، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ﴿إِذْنَهُ﴾ في هذا الموضع تحبيبه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه ، وخاتم الشرك عنه ، وتوفيقه لإبصار سبل السلام اهـ وقوله عز وجل : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر ، وفي تأكيد هذا القول بأن ضمير الفصل ودخول الألف واللام على الخبر برهان على أن من ادعى أن المسيح إله

أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فقد نفى ألوهية الإله الحق الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا شك أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، فالنسطورية اعتقدوا حلول الله جل وعلا في المسيح ابن مريم، واليعقوبية اعتقدوا اتحاد الله جل وعلا بالمسيح ابن مريم، وفي قوله عز وجل: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ معجزة لرسول الله ﷺ حيث أعلن كفر من ادعى أن المسيح إله، ويبيّن أن الله إله واحد، والمعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فكما بيّن رسول الله ﷺ لليهود ما كتموه، بيّن للنصارى أساس ضلالهم، وسبب انحرافهم، فمن أين للأُمِّي هذا العلم الذي يجابه به اليهود والنصارى ويوجه العالم إلى الصراط المستقيم؟ لكنه رسول رب العالمين ﷺ، وقد أطلعه الله تبارك وتعالى على علوم من الغيب بما أنزل عليه من الكتاب المبين وبما أرحاه إليه من أخبار الأولين والآخرين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأُمَّهُ ومن في الأرض جميعا﴾ هذا برهان قاطع وحجة دامغة على فساد من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم، ببيان أن عيسى مشاكل لمن في الأرض من بني آدم في الصورة والخلقة والتركيب معرض لما يتعرض له سائر بني آدم من الأعراض والصغر والكبر والتغير، والأكل، والشرب، وغير ذلك والواجب على كل عاقل أن يعتقد أن الله هو القادر على كل شيء الذي لا يفنى ولا يزول ولا يعجزه شيء ولا

يفوته شيء ولا يلحقه نقص بحال من الأحوال إذ هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وقد أورد الله تبارك وتعالى هذا الدليل في جملة شرطية قدّم فيها الجزاء على الشرط والتقدير إن أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره، ثم أكد ذلك ببيان مالكيته لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وأن جميع ذلك تحت قدرته ومشيتته وملكه وتصرفه حيث قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وعيسى عليه السلام هو وأمه ملك لله عز وجل داخل تحت قهره وسلطانه فهو وحده عز وجل هو الإله الحق الذي لا تصح الألوهية إلا له ولا يستحقها أحد سواه وتخصيص مريم بالذكر هنا مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح. قال أبو السعود العمادي: ولعل نظمها في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه كأنه قيل: قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد؟ فكذا حال من عداها من الموجودين أهد وفي قوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ زيادة تقرير وتأكيد لربوبية وألوهية الحي القيوم وإزاحة لما قد يعتري النصارى من شبهة كون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ببيان أن الله تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة يخلق الإنسان من غير أب ولا أم كما خلق آدم عليه السلام وتارة من غير أم كما في حق حواء عليها السلام، وتارة من غير أب كما في حق عيسى عليه السلام. وقد ذيل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لتحقيق ذلك كله.

قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض ما ارتكبه اليهود والنصارى من نقض العهود والمواثيق ، وما اختصت به كل طائفة منهما على حدة من الكفر، ذكر هنا ما اتفقت عليه الطائفتان من افتراءهم على الله ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، حيث قال عز وجل : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقد جاءت نصوص كثيرة في كتب «العهد القديم» التي يقر بها اليهود والنصارى تدعي أن بني إسرائيل هم أولاد الرب ، وهي ولاشك من افتراءات أحبار السوء على الله عز وجل ، ففي «الإصحاح» الرابع عشر من سفر التثنية في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح» : «أنتم أولاد للرب إلهكم» وفي «الإصحاح» الثاني من سفر أيوب في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح» : وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم ليمثل أمام الرب . وفي المزمور الثاني من مزامير داود في الفقرة السابعة منه : إني أخبر من جهة قضاء الرب . قال لي : أنت ابني . أنا اليوم ولدتك . هـ والظاهر أن الذين كذبوا على الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه هم الذين وضعوا التلمود لليهود ونصوا فيه على أنهم أبناء الله وأحباؤه فقد جاء في التلمود : إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه . وقد اعتقد هؤلاء الضالون أن الله منحهم الصورة البشرية تكريما لهم أما غيرهم ويسمونهم «الأميين» فهم مخلوقون من طينة شيطانية أو

حيوانية نجسة، وأن الله إنما منح «الأميين» الصورة البشرية ليسهل التعامل معهم، وقد وصف إخوان القردة والخنازير من عداهم بأنهم كلاب وخنازير، وقد بيّن الله عز وجل كذب هؤلاء، ورد افتراءهم بقوله تبارك وتعالى في هذا المقام: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم أبناء الله وأحباؤه ما عاقبكم على معاصيكم، وأنتم مقرون بأن الله يعذبكم في نار جهنم حيث قلتُم: ﴿لَنْ تَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ والفطر السليمة موقنة بأن الوالد لا يعذب ولده ولا يلقيه في نار جهنم، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبغي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: أثرون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: الله أرحم بعباده من هذه بولدها. وقد أخرجه البخاري من رواية الكشميهني عنه بلفظ: قُدم على النبي ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي قد تَحَلَّبَ ثديها بسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أثرون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها. ولا شك أن من ادعى أنه من أبناء الله فإنه قد ارتكب جرماً عظيماً وأنه أكبر جرماً وأعظم إثماً ممن زعم أن الله قد اتخذ ولداً، وحصر ذلك في المسيح أو العزيز، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصف الذين قالوا اتخذ الله ولداً بأنهم جاءوا بشيء منكفر فظيع تكاد السموات تتفطر منه حيث يقول عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * وقد أبطل الله

تبارك وتعالى دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه بخمسة براهين
تدحض شبهتهم ، وتفضح مقالاتهم ، البرهان الأول : هو قوله تبارك وتعالى :
﴿ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ كما تقدم ، والبرهان الثاني : هو قوله عز وجل :
﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي كذبتكم فلستم أبناء الله لأن الله تبارك وتعالى لم
يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ولستم أحباءه إن عصيتموه وكذبتكم
رسله ، وأشركتم به ما لم ينزل به سلطانا ، بل أنتم خلق من بني آدم خلقكم
كما خلق سائر البشر لا مزية لكم عليهم في شيء من التكوين البشري ،
فأنتم وسائر بني آدم في البشرية سواء ، والبرهان الثالث هو قوله عز وجل :
﴿ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَن يَشَاءُ ﴾ أي إن جميع بني آدم تحت مشيئة الله
ورحمته وعدله ، فمن أطاعه وصدق رسله وآمن بكتبه وملائكته واليوم الآخر
وقدره خيره وشره وحلوه ومره ، وأقام أركان الإسلام جازاه بمغفرة ذنوبه ،
وتكفير خطاياهم وأدخله جنات النعيم فضلا منه ، ومن عصاه وكذب رسله
وكتبه ولم يؤمن باليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره ولم يقم أركان
الإسلام عذبه بعدله ولا يظلم ربك أحدا ، والأمر في ذلك كله راجع إلى
مشيئته وعدله وفضله . والبرهان الرابع : هو قوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي إن جميع العوالم العلوية والسفلية وما بينهما
وما فيها من مكلفين وغير مكلفين هي ملك لله عز وجل وحده لا شريك له
يتصرف فيها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد ، لا راد لقضائه ، ولا معقب
لحكمه ، ولا نسب بينه وبين أحد من خلقه ، فالكل تحت مشيئته وقهره ،
لأنه رب كل شيء وسيد ومليكه ، فدعواكم أيها اليهود والنصارى بأنكم
أبناء الله وأحباؤه دعوى كاذبة ، وفرية قبيحة ، وجرأة على فاطر السموات
والأرض ، فويل لكم عند قيامكم بين يديه يوم القيامة ، أما البرهان الخامس
فهو قوله عز وجل : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله عز

وجل ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، فلو أنكم تدبرتم الأمر ، ورجعتم عن هذه الأكاذيب وتركتم القول على الله بغير الحق ، واستجبتم لرسول الله محمد ﷺ وعزتموه ، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأقرضتم الله قرضاً حسناً لفزتم عند لقاء الله يوم القيامة ، فعجلوا المتاب لتسعدوا يوم الحساب ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ، والله على كل شيء قدير ﴿أي يامعشر اليهود والنصارى قد أتاكم مبعوثنا يرشدكم إلى الهدى ، ويوضح لكم معالم الدين ، ومنهج الرشد ، على انقطاع من الرسل وبعد مدة متطاولة من بعثة آخر رسول أرسل إليكم ، وبعد فتور من الوحي ومزيد احتياج منكم إلى بيان الشرائع والأحكام التي لا غنى لكم عن معرفتها وقد بعثه الله عز وجل إليكم لئلا تكون لكم حجة وكيلاً تقولوا وتعتذروا عن ضلالكم وانحرافكم بأنكم ما جاءكم رسول من ربكم يرشدكم إلى الخير ويحذركم من الشر ، فقد أرسلت إليكم أكمل مبشراً وأعظم منذر والله عز وجل قدير على كل شيء ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بأن آخر رسول أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل هو عيسى ابن مريم عليه السلام فقد روى البخاري من طريق أبي سلمة أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي . وأخرجه مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس بعيسى ، الأنبياء أبناء علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي وأخرجه من طريق همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : الأنبياء إخوة

من علات ، وأمها تهم شتى ، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبي . ولا شك أن نفي وجود نبي بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ينفي وجود رسول بينهما ، لأن نفي النبوة يقتضي نفي الرسالة بخلاف نفي الرسالة فإنه لا يقتضي نفي النبوة لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، ومدة الفترة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين عيسى عليه السلام نحو ستمائة سنة فقد قال البخاري في صحيحه : حدثني الحسن بن مدرك حدثنا يحيى بن حماد أخبرنا أبو عوانة عن عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سلمان قال : فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة . والمراد أن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ على فترة من الرسل ، وانقطاع من السوحى وطموس من السبل وتغير الأديان وشيوع الكفر في العالم فكانت النعمة به أتم ، والحاجة إليه قد بلغت الغاية ، إذ أن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، ونظر الله عز وجل إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم غير بقايا من أهل الكتاب منقطعين في الصوامع والأديرة ، لم يلبثوا أن انقضوا أيضا ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا ، كل مال نحلته عبدا حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . الحديث .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . يَا قَوْمِ ادْخُلُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا
ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنتِكُمُ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلْ إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي
الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . ﴿

بعد أن ذكر الله عز وجل ما اتفقت عليه طوائف أهل الكتاب من الباطل
والافتراء على الله عز وجل حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، وأبطل الله
مقالتهم بخمسة براهين ، وأثبتهم على عدم إزعاجهم لما جاء به البشير النذير
محمد ﷺ الذي بعثه الله عز وجل ليرشدهم إلى الهدى ويوضح لهم معالم
الدين على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي شرع هنا يواسي رسوله محمدا
ﷺ على ما يلاقيه من تعنت أهل الكتاب وبخاصة اليهود قبحهم الله
ولعنهم ، حيث بين أن اليهود قد ورثوا عن آبائهم المتقدمين التهادي في الغي ،
والبعد عن الحق وشدة المخالفة للأنبياء ، مع كثرة نعم الله عليهم ، وتتابع
أياديهِ وآلائهِ لهم ، وكأنه يقول لحبيبه محمد ﷺ : لا تأس على ما أصابك
منهم ، فإن عنادهم للحق من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم ، وتعرَّ
بما لاقاه أخوك موسى كليم الله من عنادهم ونكوصهم عن الحق ، واذكر إذ
قال لهم رسول الله موسى ﷺ : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم وآلائه التي

تفضل عليكم بها ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة فأبوا أن يدخلوا ، وقالوا لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . فعاقبهم الله عز وجل بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة . وقوله عز وجل : ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّالَ يَوْتٍ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ تفصيل لبعض نعم الله العظيمة التي أنعم بها على بني إسرائيل ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي خصكم بمزية عظيمة حيث تفضل عليكم بإكثار الأنبياء حتى لا ينقطع التذكير بالله عز وجل عنكم وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيُّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر يسوسهم ويرشدهم إلى مصالح دنياهم وأخراهم وتعيين ملوكهم . فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي حازم قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعتة يحدث عن النبي ﷺ قال : كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : فما تأمرنا؟ قال : فُوا ببيعة الأول فالأول ، أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي وصيركم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم ، وأورثكم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله عز وجل فيها ، وتمت كلمته الحسنى عليكم بما صبرتم ، وصرتم أعزة يحكمكم ملك منكم مع ما تفضل الله به عليكم من الغنى واتخاذ الخدم بعد أن كنتم بأيدي آل فرعون خدما ، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فإن لي خادماً؟ قال : فأنت من الملوك . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَآتَاكُم مَّالَ

يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ أَيُّ وَتَفْضَلُ عَلَيْكُمْ فَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَ بَعْدَ
أَنْ فَلَكَ لَكُمْ الْبَحْرَ وَصَرْتُمْ تَمَشُّونَ بَيْنَ جِدَارَيْنِ مِنَ الْمَاءِ كَأَنَّهُمَا جِبْلَانِ
عَظِيمَانِ ، وَجَعَلَ لَكُمْ الطَّرِيقَ بَيْنَ الْمَاءَيْنِ يَيْسًا ، لَا بَلَلَ فِيهِ وَلَا وَحْلَ ، وَظَلَّلَ
عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَفَجَّرَ لَكُمْ مِنَ الْحِجْرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا بَعْدَ أَسْبَاطِكُمْ ،
وَفَضَّلَكُمْ عَلَى عَالَمِي زَمَانِكُمْ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا
يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا
مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
صُورَةُ جَلِيلَةٍ عَلَى تِمَادِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْغِي ، وَبُعْدَهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَشِدَّةُ
مُخَالَفَتِهِمْ لِأَمْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَوَاسَاةُ لَحِيْبِ اللَّهِ وَسَيِّدِ رَسَلِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَصْبِرَ عَلَى مَا يَلْقَاهُ مِنْهُمْ مِنْ تَعَنُّتٍ وَأَذَى بَعْدَ بَيَانِ نَعْمِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ الْكُبْرَى بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ
وإِرسَالِهِ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَالْمَرَادُ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ : بَيْتُ
الْمُقَدَّسِ ، وَالْمُقَدَّسَةُ الْمُطَهَّرَةُ الْمُبَارَكَةُ . وَمَعْنَى ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيُّ فَرَضَ
عَلَيْكُمْ دُخُولَهَا لِقِتَالِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَحْذِينَ عَلَيْهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنْ مَظَاهِرِ كُفْرِهِمْ
وَشُرْكِهِمْ وَتَخْلِيصِهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى
أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أَيُّ وَلَا تَنْكَلُوا عَنِ الدُّخُولِ إِلَيْهَا وَلَا تَجْبِنُوا عَنْ
مُقَاتَلَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَلَا تَنْقَلِبُوا عَلَى أَعْقَابِكُمْ مُخَالِفِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَاصِينَ لِرَسُولِهِ ﷺ
فَتَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ وَتَرْجِعُوا بِالْخَيْبَةِ وَالْحُسْرَةِ وَالنَّدَامَةَ وَغَضَبَ اللَّهِ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ
عَزَّ وَجَلَّ : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا
مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾
أَيُّ قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ أَهْلِ هَذِهِ
الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْنَا بِدُخُولِهَا ، لِأَنَّ أَهْلَهَا أَقْوِيَاءُ أَشَدَّاءُ عَتَاءَ ، وَلَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا

ماداموا فيها ، فإن خرجوا من تلقاء أنفسهم دخلناها وسكننا فيها ، فإن كنت
 مصرّاً على قتالهم فاذهب أنت وربك لقاتلهم ونحن نجلس هنا حتى تطهرها
 أنت وربك من هؤلاء الجبارين . ولا شك أن هذا العمل من بني إسرائيل
 يعتبر الغاية القصوى في السفاهة ، والبلادة وتضييع الحق والتخلي عن نصره
 دين الله ، والجبن عن ملاقة أعداء الله ، ولا شك أن هذا الموقف المخزي الذي
 وقفه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام يذكّرنا بالموقف المشرف الكريم الذي
 وقفه أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله محمد ﷺ يوم بدر عندما التقت
 الفئة القليلة المؤمنة بالفئة الكثيرة الطاغية الباغية ، حيث قال قائلهم لرسول
 الله ﷺ : والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك
 فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكننا نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما
 مقاتلون ؛ والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ، فقد روى
 البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :
 شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل
 به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم
 موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين
 يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ، يعني قوله . كما روى
 مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور
 حين بلغه إقبال أبي سفيان ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم
 عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عباد فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي
 نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب
 أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ
 مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
 غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً

ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴿١﴾ أي لما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله عز وجل وعصوا رسوله موسى ﷺ وأبوا أن يدخلوا القرية التي أمرهم موسى عليه السلام بدخولها انبرى لهم رجالان من المؤمنين بوعد الله الخائفين من الله الشاكرين لأنعم الله التي تفضل بها عليهما وأخذوا يحرضانهم على طاعة الله عز وجل ويحضانهم على اقتحام القرية وولوجها من بابها ، ويؤكدان لهم أنهم إن فعلوا ذلك نصرهم الله عز وجل على الجبارين وجعل لهم الغلبة عليهم إن توكلوا على الله واعتمدوا عليه والتجأوا إليه ماداموا قد أعلنوا أنهم مؤمنون بالله ، فإن من شأن من آمن بالله أن يتوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه يؤيده وينصره مهما كانت قوة عدوه ، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . وقد وصف الله تبارك وتعالى هذين الرجلين بوصفين أحدهما الخوف والثاني أن الله أنعم عليهما . ومقتضى السياق والمقام يقتضي أنها إنما يخافان من الله عز وجل مما يحملهما على امتثال أمره والوقوف عند حدوده والمصارعة إلى مرضاته ، كما أن شكر المنعم من أعظم أسباب صيانة النعمة وزيادتها ، فأصرُّوا على عدم الامتثال ، وقوله ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴿٢﴾ أي قال موسى عليه السلام : ياسيدي وخالقي ومالك أمري ومصلح نفسي أنا لا أقدر على حمل أحد على ما أحب وأريد من طاعتك والائتمار بأمرك والانتهاة بنهيك إلا على نفسي وعلى أخي ، وهذا كقول القائل : ما أملك من الأمر شيئا إلا كذا وكذا بمعنى لا أقدر على شيء غيره . ومعنى : ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ أي فافصل بيننا وبين الخارجين على طاعتك ، العاصين لرسلك فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وقوله عز وجل : ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون

في الأرض ﴿أي فأخبر الله عز وجل موسى عليه السلام بأنه قضى على بني إسرائيل بأنهم لا يدخلون هذه الأرض المقدسة ويتيهون دونها مدة أربعين سنة، وقد مات هارون وموسى عليهما السلام قبل دخولها، ولما حضرت الوفاة موسى عليه السلام سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، فأدناه الله عز وجل منها، ودفن إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر. وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ مواساة لمحمد رسول الله ﷺ بسبب ما يلقاه من أذاهم أي فلا تحزن على ما يصيبك من هؤلاء الخارجين على طاعة الله.

قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

بعد أن وصى الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ على ما يلقاه من تعنت اليهود ، وأن هذا هو شأنهم مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام وذكر له أن أخاه موسى كلم الله عليه السلام ذكرهم بنعم الله عليهم بين يدي أمره لهم بدخول الأرض المقدسة ليطهروها من الوثنيين وأنهم لم يطيعوا أمره ، أردف ذلك هنا بقصة ابني آدم المفيدة أن عداوة أهل الشر والحسد والبغي وأذاهم لأهل الخير قديمة جداً ، وكيف قتل أحد ابني آدم أخاه حسداً له عندما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، وفي هذا تنديد باليهود الذين امتلأت قلوبهم بالشر والحسد لرسول الله ﷺ بسبب ما أنعم الله عز وجل عليه من نعمة النبوة والرسالة وما آتاه من العلم والحكمة والخير ، وتسلية ومواساة له ﷺ وتذكير بما يؤول إليه حال الحاسد من الحسرة والندامة ، وأن العاقبة الحسنى للمتقين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل

القربان الذي أخلص فيه الله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى : ﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، وقوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وقوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ وقال : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ اهـ وقوله عز وجل : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني قد قدم كل واحد من الأخوين قربانا إلى الله عز وجل ، فتقبل الله عز وجل قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر بل رده والظاهر أنهم كانوا يعرفون قبول القربان بعلامة يظهرها الله عز وجل لهم كأن تأتي نار فتأكل القربان المتقبل ، أو يعرفهم نبيهم ذلك بواسطة الوحي ، والعلم عند الله عز وجل ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سبب قبول القربان في هذا الموضع هو تقوى الله عز وجل حيث قال : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وظاهر سياق القصة يدل على أن الأخ الذي لم يتقبل قربانه كان مبتلى بداء الحسد وهو الداء الذي كانت أول معصية بسببه حيث حمل إبليس على الغرور والكبر والامتناع عن السجود لآدم ، كما حمل هذا الداء الويل للأخ الذي لم يتقبل قربانه على قتل أخيه الذي تقبل قربانه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ استئناف بياني نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه سياق الكلام كأنه قيل ؟ فماذا قال من لم يتقبل قربانه ؟ قيل : قال لأخيه لحقده عليه وحسده له : والله لأزهقن روحك ، وقوله عز وجل : ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني أيضا نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه

سياق الكلام كأنه قيل : فماذا كان موقف الأخ الصالح الذي تُقبل قربانه من تهديد أخيه له بالقتل ؟ قيل : قال لأخيه : إنما أُتيت من قبل نفسك لا من قبلي ، حيث إنك مبتلى بداء الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقد قضى الله عز وجل أنه لا يتقبل إلا من المتقين ، وقوله عز وجل : ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي والله لن مددت إلي يدك لتزهق روحي ما أنا بهاد يدي إليك لأزهق روحك ولأمسكن يدي عنك خوفا من الله عز وجل لأن الله عز وجل حرم على الإنسان قتل أخيه بغير حق ، ومجرد عزمك على قتلي لا يبيح لي أن أقتلك ، وفي هذا تحذير شديد من الأخ الصالح لأخيه الحسود من سوء مغبة قتل النفس وإزهاق روح المسلم بلا حق لعله يرتدع فيمتنع عن الإقدام على قتل أخيه ، وقوله عز وجل : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بَاثِمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ هذا تحذير آخر من العبد الصالح لأخيه الحسود يخوفه فيه من عقاب الله عز وجل ويوضح له فظاعة وبشاعة قتل المؤمن بغير حق ، كأنه يقول له : أنا أكره أن ألقى الله عز وجل بمعصية وإثم لذلك أكف يدي عنك ولا أقتلك فإن قتلتني لقيت ربك بإثم قتلي مع ما ظهر منك من الآثام الأخرى كالحسد وغيره مما حال بينك وبين قبول قربانك ، إذ من المعلوم شرعا أن من ظلم أحدا قد يحمل من سيئاته يوم القيامة إذا لم توف حسناته بما عليه إن كانت له حسنات ، كما جاء في حديث المفلس ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فني

حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح في النار. وليس قوله : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ من باب تمنى الشر للغير قال الفخر الرازي رحمه الله : هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله ، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به ، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له : وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلا بد وأن تترصد قتلي في وقت أكون غافلاً عنك وعاجزاً عن دفعك ، فحيثئذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان ، وهذا مني كبيرة ومعصية ، وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكون أنت ، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي ، ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة وعلى هذا الشرط لا يكون حراماً ، بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص اهـ وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ أن هذا الأخ الذي قتل أخاه قد حمله الله عز وجل كفلاً من إثم كل قتيل يقتل ظلماً إلى يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل ، ومعنى كونه سن القتل أي فتح بابه وجعله سيرة للناس وطريقاً فهو متبوع في هذا الفعل القبيح وقد سن هذه السنة السيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وقوله عز وجل : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي فزينت له نفسه وطاووعته وشجعتة على قتل أخيه وسهلت له ذلك فأقدم على ارتكاب هذه الجريمة البشعة مستسهلاً لها غير مكترث بعاقبتها ، وأزهق روح أخيه ولم تردعه هذه النصائح من أخيه الصالح ، فأصبح القاتل من الخاسرين حيث باع آخرته واستجلب لندياه الحسرة والندم فرجع بالصفقة الخاسرة ، وخسر

الدنيا والآخرة ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي فأنار الله عز وجل غرابا يحفر في الأرض فيشير ترابها ليدفن فيها غرابا آخر ميتا وابن آدم القاتل ينظر إلى الغراب الذي حفر الأرض حتى وارى ودفن جيفة الغراب الميت ، فقال يا حسرتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأدفن أخي كما دفن هذا الغراب أخاه ، فحفر لأخيه القتييل ودفنه ، وظاهر هذا السياق الكريم يشعر بأن الدفن كان غير معروف ، وأن هذا القتييل هو أول مدفون في الأرض من بني آدم ، وأن القاتل كان يجهل دفن جيفة أخيه حتى أرشده إلى ذلك ما رآه من فعل الغراب بأخيه . وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سياق تعداد نعمه على الإنسان جعله بعد موته في قبر حيث يقول عز وجل : ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فَقَدَرَهُ * ثم السبيل يَسَّرَهُ * ثم أماته فَأَقْبَرَهُ * وفي بعث الغراب لتعليم ابن آدم دفن الميت آية من آيات الله عز وجل وإرشاد إلى ما أودعه الله في الحيوانات والطيور من ألوان الهداية كما قال عز وجل : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ قال رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿وكما أشار الله عز وجل إلى ذلك في سورة النمل عن قصة النملة وقصة الهدهد . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي فصار من المتحسرين حيث ارتكب جريمة من أكبر الكبائر دون أن يحصد لنفسه نفعا من ورائها بل جمع بسببها الخسران والخسارة . نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من السوء ، وأن يحفظنا من كل أسباب الخسران والخسارة والندامة إنه رؤوف رحيم .

قال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا
النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ .

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أن عداوة أهل الشر لأهل الخير قديمة ،
وندد باليهود الحاسدين رسول الله ﷺ على ما أنعم الله عز وجل عليه به من
النعم العظام ، وضرب مثلاً للحسد الذي حمل صاحبه على قتل أخيه وسفك
دمه ظلماً وعدواناً ، وما ترتب على ذلك من الخسران والحسرة والندامة للذي
قتل أخاه بغير حق ، بيّن عز وجل هنا أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس
بغير حق وأنه وصى بذلك تحذيراً من الوقوع فيه ، ولما كان بنو إسرائيل هم
أشد الناس سفكاً للدماء حتى استباحوا دماء أنبيائهم وأزهقوا أرواح الكثير
من رسلهم كتب الله عز وجل في وصاياهم لأنبياء بني إسرائيل أنه من قتل
نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها
فكأنما أحيا الناس جميعاً . قال القاضي أبو بكر ابن العربي في كتابه أحكام
القرآن في تفسير هذه الآية : لم يخل زمان آدم ولا زمن من بعده من شرع ،
وأهم قواعد الشرع حماية الدماء عن الاعتداء ، وحياطته بالقصاص كفاً وردعاً
للظالمين والجائرين ، وهذا من القواعد التي لا تخلو عنها الشرائع ، والأصول
التي لا تختلف فيها الملل ، وإنما خص الله بني إسرائيل بالذكر للكتاب فيه
عليهم ، لأنه ما كان ينزل قبل ذلك من الملل والشرائع كان قولاً مطلقاً غير
مكتوب ، بعث الله إبراهيم فكتب له الصحف ، وشرع له دين الإسلام وقسم
ولديه بين الحجاز والشام ، فوضع الله إسماعيل بالحجاز مقدمة لمحمد ﷺ ،
وأخلاها عن الجبارة تمهيداً له ، وأقر إسحاق بالشام ، وجاء منه يعقوب ،

وكثرت الإسرائيلية ، فامتلات الأرض بالباطل في كل فجٍّ ، وبغوا ، فبعث الله سبحانه موسى وكلمه وأيده بالآيات الباهرة ، وخط له التوراة بيده ، وأمره بالقتال ، ووعد النصر ، ووفى له بما وعده ، وتفرقت بنو إسرائيل بعقائدها ، وكتب الله جل جلاله في التوراة القصاص محدداً مؤكداً مشروعاً في سائر أنواع الحدود ، إلى سائر الشرائع من العبادات وأحكام المعاملات ، وقد أخبر الله في كتابنا بكثير من ذلك اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي لأجل حماية الدماء عن الاعتداء شرعنا وجوب صيانة الأنفس ، وأغلظنا على من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض ففرضنا في ذلك القصاص ، وجعلناه على بني إسرائيل في كتاب مكتوب محرر حتى لا يغفلوا عن ذلك لما علمناه مما يكون منهم من الجرأة على إزهاق الأنفس ظلماً وعدواناً ، وأعلمناهم أن من قتل نفساً لا تستحق القتل حيث لم تكن اعتدت على نفس وأزهقتها بغير حق ، أو لم تكن النفس المقتولة قد أفسدت في الأرض بما يجعل قتلها مشروعاً كالزنا بعد إحصان أو الارتداد عن دين الإسلام ، أو محاربة الله ورسوله وإخافة السبيل وقطع الطريق ، فمن قتل نفساً واحدة مصونةً فكأنما قتل الناس جميعاً فأما بالنسبة إلى المقتول فكأنما انتهت الحياة كلها على الأرض ، وأما بالنسبة للقاتل فالمنتهاك حرمة نفس واحدة كالمنتهاك حرمة كل النفوس وقد ضرب ابن عطية رحمه الله لذلك مثلاً برجلين حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئاً فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته وطعم الآخر ثمر شجرته كلها ، فقد استويا في الحنث ، ولا شك أن سياق التحذير من قتل النفس بهذا الأسلوب البلاغي يدفع من به مسكة عقل أن يرتدع عن إزهاق النفوس المصونة ، على أن الله تبارك وتعالى قد جعل جزاء من قتل النفس المؤمنة متعمداً جهنم

خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ، وهذا العذاب الأليم قد بلغ حدًا لو قتل الناس جميعا لكان وفاءً له ، كما أن من أحيا نفسا بإنقاذها من الهلاك قد أعد الله عز وجل له من الجزاء الجميل ما يعادل من أحيا الناس جميعا ، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء . كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما . كما روى البخاري من طريق إسحاق بن سعيد سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمر قال : إن من ورطات الأمور التي لا يخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى بني إسرائيل رسلنا بالبراهين والحجج والدلائل الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم ، وتحذيرهم من إزهاق الأنفس التي حرم الله قتلها ، ووجوب المحافظة على سلامة الأرواح وإحياء الأنفس والعمل على استنقاذها من الهلاك ، وأن المرسلين قد بلغوا بني إسرائيل بذلك وأوصلوا إليهم رسالة ربهم ، وبعد ذلك كله وتجديد العهد إليهم مرة بعد مرة حيث جاءتهم الرسل ترى فإنهم مسرفون في القتل ، وإزهاق الأرواح بلا حق ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى ثَفَادُوهُمْ وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخراجهم ، أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة

الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون *
أولئك الذين اشترَوْا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هم
يُنصَرُونَ * ولقد آتينا موسى الكتاب وبقيناً من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن
مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكَلَّمَا جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسُكم
استَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿١﴾ قال ابن جرير رحمه الله : القول في
تأويل قوله عز ذكره : ﴿١﴾ ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد
ذلك في الأرض لمسرفون ﴿٢﴾ قال أبو جعفر : وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم
به : أن رسله صلوات الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قص الله
قصصهم ، وذكر نبأهم في الآيات التي تقدمت ، من قوله : ﴿يا أيها الذين
آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قومٌ أن يَسيطُوا إليكم أَيديهم﴾ إلى هذا
الموضع «البينات» يعني بالآيات الواضحة ، والحجج البينة على حقيقة ما
أرسلوا به إليهم ، وصحة ما دعوهم إليه من الإيثار بهم ، وأداء فرائض الله
عليهم ، يقول الله عز ذكره : ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض
لمُسرفون﴾ يعني : أن كثيراً من بني إسرائيل ، والهاء والميم في قوله : ﴿ثم إن
كثيراً منهم﴾ من ذكر بني إسرائيل ، وكذلك في قوله : ﴿ولقد جاءهم﴾ .
﴿بعد ذلك﴾ يعني : بعد مجيئ رسل الله بالبينات ، ﴿في الأرض لمسرفون﴾
يعني : أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله ، ومخالفون أمر الله ونهيه ، ومحادُّو
الله ورسوله ، باتباعهم أهواءهم ، وخلافهم على أنبيائهم ، وذلك كان
إسرافهم في الأرض اهـ وإذا كان الإسراف قبيحاً في باب الأموال فإنه أشد
قبحاً وأعظم إثماً في باب إزهاق الأرواح البريئة وقتل الأنفس بغير حق ،
وأصل الإسراف في اللغة هو الإفراط في الشيء يقال : أسرف فلان في هذا
الأمر إذا تجاوز مقداره فأفرط فيه وفي التنزيل الكريم : ﴿ومن قُتِلَ مظلوماً
فقد جعلنا لوليهِ سلطاناً فلا يُسْرِف في القتل إنه كان منصوراً﴾ قال ابن منظور

في لسان العرب : قال الزجاج : اختلف في الإسراف في القتل ف قيل : هو أن يقتل غير قاتل صاحبه ، وقيل : هو أن يقتل هو القاتل دون السلطان ، وقيل : هو أن لا يرضى بقتل واحد حتى يقتل جماعة لشرف المقتول وخساسة القاتل ، أو أن يقتل أشرف من القاتل ، قال المفسرون : لا يقتل غير قاتله ، وإذا قتل غير قاتله فقد أسرف ، والسرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد أخبر الله عز وجل أنه لا يحب المسرفين حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفُوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ .

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

بعد أن بيّن الله عز وجل أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق ، وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه وأنه كتب من أجل ذلك على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وأن رسل الله صلى الله عليه وسلم قد جاءوا بني إسرائيل وأكدوا عليهم بذلك وأقاموا لهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، ومع ذلك فإن بني إسرائيل لم يتردعوا ولم ينزجروا عن سفك الدماء المحرمة المصونة زاد هنا من تأكيد وجوب صيانة الأنفس والأموال والابتعاد عن الفساد في الأرض ، وتجنب كل ما يروّع أمن الأمة ويشير الذعر والرعب بين أبنائها من قطع الطريق وإخافة السبيل والتعدي على الأعراض أو الخروج على إمام المسلمين وجماعتهم وشق عصا الطاعة وإشهار السلاح ، وأعلم عز وجل عباده بما يستحقه المفسد في الأرض من العقوبة والنكال حيث يقول عز وجل : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في قصة العرنيين والعكليين وقد أورد البخاري رحمه الله في التفسير من صحيحه في باب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ

يُقَتِّلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قدم قوم على النبي ﷺ فكلّموه فقالوا : قد استوخنا هذه الأرض ، فقال : هذه نعم لنا تخرج ، فاخرجوا فيها ، فاشربوا من ألبانها وأبوالها ، فخرجوا فيها ، فشربوا من أبوالها وألبانها ، واستصحوا ، ومالوا على الراعي فقتلوه ، واطردوا النعم . الحديث ، وأخرج في المغازي في باب قصة عُكْل وعرينة من حديث أنس رضي الله عنه أن ناسا من عكل وعرينة قدموا المدينة على النبي ﷺ ، وتكلّموا بالإسلام ، فقالوا : يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخوا المدينة ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بدود وراع ، وأمرهم أن يخرجوا فيه ، فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ ، واستاقوا الدود ، فبلغ النبي ﷺ ، فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم ، فسمروا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم ، وقد ساقه البخاري أيضا في كتاب المحاربين وقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا ، فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة ، فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحوا ، فارتدوا ، وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم ، فأتى بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا . ثم ساقه في باب : لم يُسَقِ المرتدون المحاربون حتى ماتوا ، من حديث أنس رضي الله عنه قال : قدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانوا في الصفة ، فاجتووا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله أبغنا رسلاً ، فقال : ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ ، فأتوها ، فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا ،

فقتلوا الراعي واستاقوا الذود، فأتى النبي ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثارهم، فما ترجل النهار حتى أتي بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم، وما حسمهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا. وساقه البخاري في كتاب الديات في باب القسامة ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، فسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قال: أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيرون من ألبانها وأبوالها؟ قالوا: بلى، فخرجوا، فشربوا من ألبانها وأبوالها، فصحوا فقتلوا راعي رسول الله ﷺ، وأطردوا النعم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهم، فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، ثم نبذهم في الشمس حتى ماتوا. وفي لفظ لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء. وسمل الأعين وسمرها بمعنى واحد وهو فقؤها وإذهاب نورها بأي شيء كان، وقد تقدم في لفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم، أي أدخل المسامير المحمة في أعينهم فأعماهم بها جزاء وفاقا لما صنعوه بالرعاء. وفي وصف من يقطع السبيل ويثير الرعب بين الناس ويعمل على عدم استتباب الأمن والاستقرار بأنه محارب لله ورسوله وساع في الأرض فسادا تهديد شديد بأن من فعل ذلك يعرض نفسه لحرب الله له ولحرب رسوله ﷺ له، وكذلك لحرب إمام المسلمين وجماعته الملتزمين بشرع الله، ولاشك أن من حاربه الله محروب، ومن غلبه الله مغلوب، وأن الله عز وجل يمكن رسوله ﷺ ويمكن عباده الصالحين من قطع دابره والقضاء على إفساده. وهذا شبيه بما هدد الله عز وجل به المستحلين للربا حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا

بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله
 وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴿ وقوله تبارك وتعالى :
 ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ
 الْأَرْضِ ﴾ هذا هو الذي سماه الفقهاء حد الحراة أو حد قطاع الطريق . وهو
 تقتيلهم أو تصليبهم ، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفيهم من
 الأرض إذا قدر عليهم قبل أن يتوبوا ، وقاطع الطريق لا يخلو عن حال من
 أحوال خمس : الأولى : أن يكون قد قتل وأخذ المال فإنه يتحتم قتله وصلبه
 ولا يدخله عفو ، قال ابن المنذر : أجمع على هذا كل من نحفظ عنه من أهل
 العلم . وظاهر سياق الآية الكريمة يدل على أنه يصلب بعد أن يقتل ،
 والمقصود من صلبه أن يشتهر أمره ، ويرتدع غيره ، أما الحالة الثانية من
 أحوال قاطع الطريق : أن يقتل لكنه لم يأخذ مالا فإنه يقتل لكنه لا يصلب ،
 وإن رأى الإمام صلبه تعزيرا صلب . أما الحالة الثالثة : أن يأخذ المال لكنه لم
 يقتل أحدا ، فإنه تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ، وهذا معنى قوله عز
 وجل : ﴿ مِنْ خِلَافٍ ﴾ وتقطع يده ورجله في وقت واحد ولا ينتظر اندمال
 اليد في قطع الرجل بل يقطعان معا . والحال الرابعة : أن يخيف السبيل لكنه
 لم يقتل ولم يأخذ مالا فإنه ينفى من الأرض . أما الحال الخامسة من أحوال
 قاطع الطريق فهي أن يتوب قبل أن يُقدر عليه ، فإن تاب قبل أن يقدر عليه
 سقطت عنه حدود الله وأخذ بحقوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال
 إلا أن يُعفى له عنها . قال ابن قدامة رحمه الله في المغني : لا نعلم في هذا
 خلافا بين أهل العلم اهـ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي
 الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي هذا الذي ذكرته من عقوبة الذين
 يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا من قتلهم أو من صلبهم أو من
 قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو من نفيهم من الأرض هو لهم في عاجل

حياتهم خزي وذل وفضيحة وهوانٌ مع ما ادخره الله عز وجل لهم من العذاب العظيم في نار جهنم يوم القيامة قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله عز ذكره : ﴿ ذَلِكْ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ ذَلِكْ ﴾ هذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا في الدنيا من قتل أو صلب أو قطع يد ورجل من خلاف ﴿ لَهُمْ ﴾ يعني : لهؤلاء المحاربين ﴿ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ يقول : هو لهم شر وعار، وذلة ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ، يقال : أخزيت فلانا فخزى هو خزيا . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يقول عز ذكره : لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا ، فلم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ﴿ فِي الْآخِرَةِ ﴾ مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : عذاب جهنم اهـ ولا معارضة بين جمع الله عز وجل العقوبة في الدنيا والآخرة لمن حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا وبين ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَتْبَاعِي عُونِي عَلَى أَلَّا تَشْرُكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا . الْحَدِيث . وفيه ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » لأنه ليس من هذه الذنوب المذكورة في هذا الحديث محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض بالفساد وهو يدل على أن المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض بالفساد قد ارتكبوا جرما لا يغفره الله إلا بتوبة صاحبه منه ، ولذلك قال بعدها ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا يدل على شناعة المحاربة وعظيم ضررها لأن نعمة أمن الشعوب واستقرارها في الذروة من النعم ، وإشاعة

الخوف وإفساد الأمن قتل للأمم وإهلاك للشعوب ، ولذلك امتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعمة الأمن حيث قال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ يَخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى في قصة ابني آدم إلى أن تقوى الله عز وجل هي سبب الفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة وتقبل الأعمال حيث قال : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأشار عز وجل إلى أنه فرض على عباده صيانة النفوس وحض على إحيائها وأنه كتب ذلك على بني إسرائيل وأرسل إليهم الرسل بالبينات وعرفهم أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، أكد على المؤمنين هنا ملازمة تقوى الله عز وجل وحضهم على الالتجاء إليه وحده والتوكل عليه وطلب جميع حوائجهم منه جل جلاله ، ومجاهدة أعدائه الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ، حيث يقول هنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة أوامر ، الأول : أمر المؤمنين بتقوى الله عز وجل ، والثاني : أمر المؤمنين بأن يبتغوا إلى الله وحده الوسيلة ، والثالث : أمر المؤمنين بأن يجاهدوا في سبيل الله ، وقد نبه عز وجل المؤمنين إلى أنهم إذا اتقوا ربهم وطلبوا الوسيلة إليه وحده ، وجاهدوا في سبيله أفلحوا وفازوا ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي واطلبوا إلى الله وحده حوائجكم ولا تطلبوها من أحد سواه ، ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، فإن لله وحده ما في السموات وما في الأرض ، ولو اجتمع من في السموات ومن في الأرض على أن ينفعوا أحدا بشيء ما نفعوه إلا بشيء كتبه الله له ، ولو

اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما ضره إلا بشيء كتبه الله عليه ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إذا سألوا أن يسألوا الله وحده وإذا استعانوا أن يستعينوا بالله وحده فقد روى الترمذي من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما ، فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف ، ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح اهـ وأصل الوسيلة في اللغة : الحاجة وتطلق على القربة وما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهي كذلك عَلم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، والمراد بالوسيلة في قوله تعالى : ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ هو المعنى الأول والثاني من معاني الوسيلة ، أي واطلبوا منه عز وجل وحده حوائجكم ولا تطلبوها من غيره وأديموا التقرب إليه ، ومن استعمال الوسيلة بمعنى الحاجة قول عنترة العبسي لامرأته لما لامته في فرس كان يؤثره على سائر خيله ويسقيه من لبن إبله :

لا تذكرني مُهري وما أطعمته	فيكون جلدك مثل جلد الأجر
إن الغبوق له وأنت مسوءة	فتأوهي ما شئت ثم تحوِّي
كذب العتيق وماء شن بارد	إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي
إن الرجال لهم إليك وسيلة	إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فهو ينذرهما بالطلاق إن هي ألحت عليه بالملامة في فرسه لأنه حصنه ويقول لها : أنت إن وقعت في الأسر أسرع فتكحلت وتخضبت لمن أسرك ،

ويقول : إن أخذوك تكحلت وتحضبت لهم ، فقد استعمل عنترة الوسيلة بمعنى الحاجة ، أي إن الرجال يحتاجون لمثلك أما أنا فإني محتاج إلى فرسي لأقاتل عليه أعدائي . أما اتخاذ الأشخاص وسائط بين الله عز وجل وبين عباده فإنه من سمات المشركين الذين عبدوا غير الله واتخذوا أولياء وسائط وشفعاء ، وقد أخبر الله عز وجل أنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيجزئهم على كذبهم على الله وكفرهم حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فلا يحل لمسلم أن يتوسل إلى الله بذوات الأشخاص ولا بمن فارق الدنيا منهم مطلقا أما سؤال الصالحين من الأحياء أن يسألوا الله عز وجل ويضرعوا إليه لكشف الضر أو جلب الخير فإنه مشروع ولذلك روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال : اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . ولو كان التوسل بمن فارق الدنيا جائزا لتوسل عمر برسول الله ﷺ ولم يتوسل بالعباس رضي الله عنه ، ومن التوسل المشروع أن تقدم بين يدي حاجتك ودعائك الثناء على الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلی كما أرشدت إلى ذلك سورة الفاتحة ، ومن أنواع الوسيلة الشرعية أن تدعو الله تعالى بعد أن تذكر أرضى عمل تقربت به لله عز وجل وعملته لوجهه الكريم كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانطبقت عليهم الصخرة فتضرع كل واحد منهم إلى الله تعالى وذكر عملاً صالحاً وقال : اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت عنهم الصخرة ، وخرجوا يمشون كما روى ذلك البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . أما الوسيلة

التي يطلبها المسلم لرسول الله ﷺ حيث يقول : اللهم آت محمدا الوسيلة .
فهي دار رسول الله ﷺ وهي أعلى منزلة في الجنة ، وقد حض رسول الله ﷺ
المسلمين على أن يسألوا الله الوسيلة لرسول الله ﷺ فقد روى البخاري في
صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :
من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت
محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعته مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له
شفاعتي يوم القيامة ، كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن
العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا
مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها
عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد
الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة . وقد
ندد الله تبارك وتعالى بالمشركين الذين كانوا يعبدون الجن ويتوسلون بهم
فأسلم الجن وأخلصوا التوحيد لله عز وجل واستمر هؤلاء المشركون في التوسل
بالجن حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى
رهبهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْدُورًا ﴾ والمراد أن المشركين الذين يعبدون غير الله كالذين عبدوا المسيح
والعزير والملائكة والجن يجهلون أن عيسى والعزير والملائكة والجن الذين
أسلموا لا يطلبون حوائجهم إلا من الله وحده ويتبرأون ممن اتخذهم وسائل أو
جعلهم شفعا ليقربوهم إلى الله زلفى فأيهم أقرب إلى الله ؟ الذين أخلصوا له
التوحيد أم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ؟ وقد روى البخاري في
صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود ﴿ إلى رهبهم الوسيلة ﴾ قال : كان
ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم اهـ

وأُسعد خلق الله بالله من أرجع أمره كله لله ولم يتعلق بأحد سواه ، وما أحسن قول الشاعر :

وقائلة مات الكرام فمن لنا إذا عضنا الدهر الشديد بنا به
فقلت لها من كان غاية همه سُؤالاً لمخلوق فليس بنا به
لئن مات مَنْ يُرجى فمعطيهم الذي يُرجونه باق فلو ذوا بيا به
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .
يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ هذا
تأكيد لوجوب امتثال المؤمنين للأوامر الثلاثة القاضية بوجوب اتقاء الله
وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله ، وحض للمؤمنين على المسارعة
والمسابقة إلى تحصيل أسباب مرضاة الله عز وجل قبل الارتحال من هذه الدنيا
لأنها مزرعة الآخرة ، فإن من مات على الكفر لو توسل إلى الله عز وجل ببذل
ملء الأرض ذهباً أو ببذل جميع ما في الأرض ومثله معه لو كان يملك ذلك
ليدفع الله عنه العذاب يوم القيامة ما تقبل الله منه قربانه ، وما أخرجه من
النار ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ
أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ . ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال : يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم ،
كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدي بقرباب
الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت ، قد
سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار . وقد أكد الله تبارك وتعالى
تيئيس من مات على الكفر من رحمة الله وأنهم مهما صرخوا واستغاثوا ليخرجوا
من النار فإن الله عز وجل لا يخرجهم منها ولهم فيها عذاب دائم مستمر كما

قال عز وجل : ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*.

بعد أن بشع الله تبارك وتعالى جريمة الاعتداء على النفس، وشدد النكير على من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا وشرع للزجر عن ذلك حد المحاربة وقطاع الطريق بأن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، وحض المسلمين على تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه وحده والجهاد في سبيله ليفلحوا ويفوزوا، مما يقتضي صيانة الأنفس والأموال شرع هنا يبين حد السرقة ردعا لمن يعتدي على الأموال المحروزة المصونة فيأخذها على طريق الخفية عقب بيان حكم من يعتدي على أموال المسلمين فيأخذها على طريق المحاربة وقطع الطريق، وأصل السرقة في اللغة هي: الأخذ خفية، وشرعا هي أخذ مال محروز قيمته ربع دينار فصاعدا على وجه الخفية وليس للأخذ حق فيه ولا شبهة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: ويقال لسارق الإبل الخارب بخاء معجمة، وللسارق في المكيال مطفف، وللسارق في الميزان مخسر، في أشياء أخرى ذكرها ابن خالويه في كتاب (ليس) قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلّة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع به حماية للبدن، ثم لما خانت هانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يدُ بخمس مئتين عسجدٍ وُدِيت ما بالها قطعت في ربع دينار
فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها ، وأرخصها صيانة المال فافهم حكمة الباري
وشرح ذلك أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي ،
ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال ، فظهرت
الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين اهـ هذا وفي رواية
أخرى لبيت القاضي عبد الوهاب المالكي ، وقيل هو لعلم الدين
السخاوي :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري
ومن قول القاضي عبد الوهاب في الرد على شبهة أبي العلاء المعري : لما
كانت أمانة كانت ثمينة ، ولما خانت هانت . ومعنى قوله عز وجل :
﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي والرجل الذي يسرق فاقطعوا يده
والمرأة التي تسرق فاقطعوا يدها ، والتنصيص على السارقة مع أن الشريعة
جرت على إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة
لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر ، وتقديم الرجال في الذكر في باب
السرقه لأن السرقه في الغالب تحتاج إلى الجرأة والرجال عليها أقدر ، وقدم ذكر
النساء في باب الزنا على ذكر الرجال حيث قال عز وجل : ﴿الزانية والزاني
فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ لأن الغالب أن المرأة هي الأساس في
باب الزنا ولو امتنعت ما وقعت الجريمة غالبا . وجمع الأيدي في قوله عز
وجل : ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ لأن العرب كانوا إذا ذكروا شيئا موحداً من خلق
الإنسان مضافا إلى اثنين فصاعدا جمعوه فيقولون : قد هشمنا رءوسهما وملأنا
ظهورهما وبطونهما ضربا وكما قال عز وجل : ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ وقد
بينت السنة اليد التي تقطع كما بينت محل القطع ، وقد أطبق علماء أهل السنة

والجماعة على أن يد السارق التي تقطع هي اليمنى وأن موضع القطع يكون من مفصل الكف من الساعد أي من الرسغ ، كما بينت السنة النبوية النصاب الذي تقطع اليد بسرقة ، فقد أخرج البخاري من طريق ابن شهاب عن عمرة عن عائشة قالت : قال النبي ﷺ : تقطع اليد في ربع دينار فصاعدا . ثم رواه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير وعمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : تقطع يد السارق في ربع دينار . ثم أخرجه من طريق محمد بن عبد الرحمن الأنصاري عن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته أن عائشة رضي الله عنها حدثتهم عن النبي ﷺ قال : يُقطع في ربع دينار ، أما مسلم رحمه الله فقد أورده من طريق ابن شهاب عن عروة وعمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا . وساقه كذلك من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعدا . وساقه من طريق سليمان بن يسار عن عمرة أنها سمعت عائشة تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقطع اليد إلا في ربع دينار فما فوقه . وساقه من طريق أبي بكر بن محمد عن عمرة عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول : لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا . ولا معارضة بين حديث عائشة هذا وبين ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مجنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم . لأن ربع الدينار صرفه ثلاثة دراهم على أساس أن الدينار اثنا عشر درهما ، هذا وإذا سقط القطع عمن سرق أقل من ربع دينار فإنه لا يسقط عنه التعزير الرادع له عن المعاودة . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ جزاء بما كسبنا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعاننا به في ذلك وهو اليد التي سرقت تنكيلا من الله

عز وجل بهما على ارتكاب جريرتهما والله غالب قاهر قادر على الانتقام ممن يخالف أمره ويعتدي على أموال الآخرين كما أنه جل جلاله حكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره فله الحمد وله الشكر. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل ﴿والله عزيز حكيم﴾ إشارة إلى كمال تشريعه الذي يصون العباد والبلاد ويحفظ النفوس والأموال، وأن من اعتدى على شرع الله لن يفلت من العزيز الحكيم. ومن الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها هذا التذييل ما حكي الأصمعي، قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت والله غفور رحيم سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنهت، فقلت: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أنقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أي أخطأت؟ فقال: يا هذا، عز، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن ندم من السُّرَّاق من بعد ما سرق وعزم على ألا يعود، واستقام على المحافظة على حدود الله وحقوق عباده فإن الله عز وجل يقبل توبته لأنه عز وجل غفور رحيم، أما حد السرقة فإنه لا يسقط عن السارق إذا تاب مادام قد رفع إلى السلطان. قال ابن تيمية رحمه الله: فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك، ولهذا اتفق العلماء — فيما أعلم — على أن قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رُفِعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم، بل تجب إقامته، فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم، وكان تمكينهم من ذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الاستفهام فيه للتقرير

والمخاطب به النبي ﷺ وكل من يصلح له الخطاب ، والمعنى : قد علمت أن الله له ملك السموات والأرض وهو الذي يقضي بين خلقه بحكمه وهو العليم القدير وفيه ردع لليهود والنصارى الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وتأکید لفت انتباه الناس إلى كمال تشريع الله عز وجل لهم ، وأنه تبارك وتعالى أعلم من خلقه بمصالحهم ، وأنه يضع لهم من الأنظمة ويبين لهم من التشريعات ما يحمي به أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد عدلا ورحمة ، ومن ذلك تفريقه عز وجل في الحكم بين من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا وبين من يسرق أموال الناس ، كما أنه لعلمه بصالحى عباده وطالحهم يتقبل من المتقين ، ويبطل أعمال الكافرين الجاحدين ، وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال أبو جعفر : يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : ألم يعلم هؤلاء يعني القائلين : ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، أن الله مدبر ما في السموات وما في الأرض ومُصَرِّفه وخلقه ، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أراده ، لأن كل ذلك ملكه ، وإليه أمره ، ولا نسب بينه وبين شيء مما فيهما ولا مما في واحدة منهما ، فيحاييه بسبب قرابته منه ، فينجيه من عذابه وهو به كافر ، ولأمره ونهيه مخالف ، أو يدخله النار وهو له مطيع لبعده قرابته منه ، ولكنه يعذب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والمسح وغير ذلك من صنوف عذابه ، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة عليه من كفره ومعصيته ، فينقذه من الهلكة وينجيه من العقوبة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقول : والله جل وعز على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه على معصيته ، وغفران ما أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الأمور كلها قادر ، لأن الخلق خلقه ، والملك ملكه ، والعباد عباده اهـ .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.﴾

بعد البيانات الكثيرة المتقدمة المتضمنة مواساة رسول الله ﷺ فيما يلقاه من تعنت اليهود، وأشباههم من أعداء المرسلين، وبعد تقرير الأحكام الرادة لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا، أو يسرق الأموال المصونة المحروزة، وبعد الترغيب في التوبة إلى الله عز وجل الذي له ملك السموات والأرض القادر على كل شيء الفعال لما يريد، نهى هنا رسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ عن التأثر والاكتئاب والحزن والمبالاة بسبب ما يلقاه من أعداء الله المسارعين في الكفر وبخاصة المنافقين واليهود حيث يقول عز وجل هنا : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وفي خطاب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بعنوان الرسالة تشریف عظيم له ﷺ ومواساة شافية وإشعار بما يوجب عدم الحزن، وتقريع للمنافقين واليهود وغيرهم من المسارعين في الكفر الذين يكذبون رسول الله ﷺ، ولم يخاطب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بوصف الرسالة في القرآن العظيم إلا في موضعين اثنين فقط أحدهما هنا والثاني في قوله تبارك وتعالى في نفس هذه السورة : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ

بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿١﴾ ومعنى : ﴿لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي
الْكُفْرِ﴾ أي لا تهتم ولا تبال بتهافتهم في الكفر وسرعة انغماسهم في
الضلال ، قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية : وهذا وإن كان
بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم
في الكفر لكنه في الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك
والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن النهي عن أسباب الشيء ومباده
المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهاني وقلع له من أصله ، وقد يوجه النهي إلى
المسبب ويراد به النهي عن السبب كما في قوله : لا أرينك ههنا يريد نهى
مخاطبه عن الحضور بين يديه اهـ . وأصل المسارعة في الشيء الوقوع فيه بسرعة
ورغبة ، والتعبير بفي في قوله عز وجل : ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ولم يقل :
يسارعون إلى الكفر للإيحاء إلى أنهم مستقرون في الكفر منغمسون فيه وإنما
يتقلبون في أبوابه ، ويتحولون من ضلال إلى ضلال ، وقوله عز وجل : ﴿مَنْ
الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان
للمسارعين في الكفر . والمراد بالذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم :
المنافقون ، والمراد بالذين هادوا : اليهود . وقوله عز وجل : ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ
سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ زيادة في تقرير مواساة رسول الله ﷺ وتثبيت
فؤاده ، بزيادة بيان صفات أعدائه التي تدل على أنهم منحطو التفكير ، سيئو
السلوك ، مما يدعو إلى عدم المبالاة بهم ، فبعد أن بين عز وجل أنهم يسارعون
في الكفر وأنهم إما ضعاف الشخصية منافقون ، وإما يهود واليهود معروفون
بالانغماس في تكذيب الأنبياء ، والجرأة في الافتراء على الله وعلى رسله ،
وصفهم كذلك بأنهم مفتنون قد صرفت قلوبهم عن سماع الحق والاستجابة
له ، وأنهم يبالغون في الاستجابة والانقياد للباطل وقبول الكذب ، وأنهم
خاضعون منقادون لقوم بعيدين لا يجرؤون على مواجهتك ، متأثرون بما يدسه

لهم هؤلاء البعداء من أحبار السوء، وبما يزودونهم به من الأباطيل والشبهات
 والشهوات مما يظنون أنه يحزن رسول الله ﷺ ويرهقه ويحمله ما لا يطيقه،
 وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ بيان لصفة أخرى
 قبيحة من صفات القوم الآخرين الجبناء عن مقارعة الحجة المكتفين بالدس
 وتحريف كلام الله الذي وضعه الله عز وجل مواضعه وأثبت ما أحله وما حرمه
 وما وضعه وبينه من الحدود والحقوق فاجترأ هؤلاء على الله عز وجل وحرفوا
 كلامه بتغيير حروف منه لا توافق شهواتهم، أو بتأويل كلام الله على غير المراد
 منه إمعانا في التضليل، وانغمسا في الشهوات، وإثارة للشبهات، وقوله
 تبارك وتعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ هذه
 صورة من صور دس البعداء من أحبار السوء لرعايهم وبيان لقبيحة من
 قبائح تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، حيث كانوا قد غيروا حكم رجم
 الزانيين وبدلوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد كل واحد منهما مائة جلدة
 والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين فظن أحبار السوء هؤلاء أنهم ربما
 يتمكنون من الحصول على فتوى من محمد ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله
 وما غيروه من حدود الله، آملين أنهم إن تمكنوا من ذلك أصابوا هدفين برمية
 واحدة حيث روجوا باطلهم وأشاعوا السوء على رسول الله ﷺ، وجعلوا أن
 الله تبارك وتعالى قد عصمه من الناس، وحفظه من شر كل دساس، وقد
 حدث أن زنى رجل يهودي بامرأة يهودية فدس أحبار السوء إلى أتباعهم أن
 يحكموا محمدا ﷺ في شأن الزانيين، وقالوا لهم: إن حكم بالجلد والتحميم
 فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه لأنه يكون مناقضا لحكم
 الله فاحذروا منه ولا تستمعوا له بعد ذلك، فكشف الله سترهم وأخزاهم
 وفضحهم فقد قال البخاري في المناقب من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يَغْرِفُونَ كَمَا يَغْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ

يعلمون . ﴿ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا ، صدق يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبد الله : فرأيت الرجل يحنأ على المرأة يقيها الحجارة . وأخرجه مسلم من طريق نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : ما تجدون في التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسود وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويطاف بهما ، قال : فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين ، فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجهما ، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه . كما روى مسلم من حديث البراء بن عازب قال : مرَّ على النبي ﷺ يهودي محملاً مجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم ، فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال ؟ لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف ، فجعلنا التحميم والجلد

مكان الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا مَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول : اتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكمم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ في الكفار كلها . وقد بين الله تبارك وتعالى أن سبب مسارعتهم في الكفر وانغماسهم في الكذب وانقيادهم لأخبار السوء ، وموقف أخبار السوء من رسول الله ﷺ هو أنهم مفتونون مخدولون نجسو القلوب حيث يقول عز وجل : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ والمقصود من الإرادة هنا الإرادة الكونية القدرية ، وقوله عز وجل : ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي هؤلاء المنافقين واليهود فضيحة وذل وهوان في الدنيا عقوبة عاجلة ، وقد أعد لهم في القيامة عذاب جهنم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّخْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ زيادة تأكيد لقبح ما عليه المنافقون واليهود من الاستجابة للكذب والانقياد له مع ردهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ومع ذلك فهم أكالون للسحت وهو الربا والرشوة وكل حرام خبيث سحت آكله ويجلب له العار والخزي في الدنيا والآخرة ، فقد جمع هؤلاء بين الغذاء الخبيث للقلب وهو الكذب والانقياد له وبين الغذاء الخبيث للجسم وهو استغراقهم في أكل السحت والمبالغة في تحصيله . وفي قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا

ترافعوا إليه ، فإن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ثم طمأنه عز وجل بأنه إن أعرض عنهم فلن يتمكنوا من إلحاق أي ضرر به ﷺ ، ولا معارضة بين هذا التخيير وبين قوله عز وجل : ﴿ وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ لأنه ﷺ إذا اختار أن يحكم فلن يحكم بينهم إلا بما أنزل الله ولذلك قال هنا : ﴿ وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ وقد أخبر الله عز وجل هنا أنه يحب المقسطين كما بشر رسول الله ﷺ المقسطين بأنهم على منابر من نور فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا .

قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من قبائح أفعال اليهود وأقوالهم ، وأخزاهم وفضحهم ، عَجَبَ هنا حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ من تناقضاتهم وسوء مكرهم حيث دس أحبار السوء إلى رعايهم أن يحكموا رسول الله محمدا ﷺ في شأن الزاني والزانية من اليهود لعلهم يتمكنون من الحصول على فتوى منه ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله ، ففضحهم الله عز وجل وأخزاهم وكشف سترهم وصاروا كعنز السوء التي بحثت بظلفها عن حتفها ، وبيّن الله عز وجل أن حكم الله عز وجل في الزناة من رجمهم موجود في التوراة التي بأيديهم ، حيث يقول عز وجل : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ فقد شاعت فضيحتهم وانكشف تناقضهم ، وأعز الله رسوله ﷺ ، وأظهره عليهم ، وقامت الحجة على المنافقين واليهود بأن محمدا ﷺ على صراط مستقيم . وقوله عز وجل : ﴿ وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ أي وبأيديهم التوراة المشتملة على حكم الله في القضية التي حكموا فيها وهي أن حد الزاني الرجم ، وهذا يقرر أنهم لم يتمكنوا من تحريف التوراة تحريفا كلياً ، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها ، وأن

بعض الأحكام التي شرعها الله عز وجل لبني إسرائيل في التوراة لم تتبدل كرجم الزناة والقصاص ، وإن كان أحبار السوء قد انحرفوا عن العمل بها فبدلوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره وجلده ، كما أن بعض صفات رسول الله ﷺ قد بقيت في التوراة وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدل عليه ﷺ ، وقوله عز وجل : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ تقريع لهؤلاء اليهود الذين علموا أن رسول الله ﷺ إنما يحكم بحكم الله ، ومع ذلك لا يسارعون إلى الإيمان به والاستجابة له وإنما يزدادون إعراضا عن الحق ، وبعداً عن الإيمان ، ولذلك قال : ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى : ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول : ليس من فعل هذا الفعل أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ثناء من الله عز وجل على التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام وأنها نزلت مشتملة على الهدى والنور، فهي تدل على الطريق المستقيم وتهدي إلى الرشd وتنير للسالكين منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وفي هذا تنديد باليهود الذين انحرفوا عنها وحرفوا كلمها من بعد مواضعه ، وسلكوا طرقا معوجة دعاهم إليها أحبار السوء وأصحاب التلمود . وقوله تبارك وتعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي يقضي بها أنبياء الله ورسله المنقادون لأمر الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وينفذون أحكامها في بني إسرائيل الذين تهودوا ، لا يفرقون في ذلك بين شريف وضعيف . وقوله عز وجل : ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي ويقضي بالتوراة أيضا فقهاء بني إسرائيل العارفون بالله وعلمائهم بسبب انقيادهم لأمر الله الذي عهد إليهم أن

يحفظوا كتابه من التحريف والتبديل ولا يبدلوه ولا يضيعوه، وكانوا عليه رقباء يحمونه من التغيير والتبديل ويشهدون أنه حق، وقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تثبيت لأئمة المسلمين وتحذير لهم من تضييع كتاب الله وحدوده لسبب من رهبة أو رغبة وتنديد بأخبار السوء من اليهود الذين ضيعوا حدود الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه قال الفخر الرازي رحمه الله: واعلم أنه تعالى لما قرر أن النبيين والربانيين والأخبار كانوا قائمين بإمضاء أحكام التوراة من غير مبالاة خاطب اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ومنعهم من التحريف والتغيير، واعلم أن إقدام القوم على التحريف لأبد وأن يكون خوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، ولما كان الخوف أقوى تأثيرا من الطمع قدم تعالى ذكره فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ﴾ والمعنى: إياكم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الناس والملوك والأشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل في سقوط تكاليف الله تعالى عنهم، فلا تكونوا خائفين من الناس، بل كونوا خائفين مني ومن عقابي. ولما ذكر أمر الرهبة أتبعه بأمر الرغبة فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي كما نهيتكم عن تغيير أحكامي لأجل الخوف والرغبة فكذلك أنهاكم عن التغيير والتبديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الرشوة، فإن كل متاع الدنيا قليل، والرشوة التي تأخذونها منهم في غاية القلة. والرشوة لكونها سحتا تكون قليلة البركة والبقاء والمنفعة، فكذلك المال الذي تكتسبونه قليل من قليل، ثم أنتم تضيعون بسببه الدين والثواب المؤبد والسعادات التي لا نهاية لها ومن المقرر عند أهل العلم أن خوف السر من غير الله شرك أكبر ومعنى خوف السر: أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، لأنه اعتقاد للنفع والضرر في غير الله تعالى ولذلك حذر تبارك وتعالى من ذلك في غير موضع من

القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.﴾ وقال هنا: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي ومن لم يرض بحكم الله وشرعه وحكمه بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم غير الله أحسن من حكم الله فهو الكافر المارق من دين الله، وقد وصف الله عز وجل في هذا المقام من حكمه بغير ما أنزل بأنه كافر كما ذكر في هذه الآية، ووصفه بأنه الظالم كما ذكر في تذييل الآية التي تليها حيث قال عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ووصفه بأنه الفاسق حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وفي هذا وعيد عظيم لمن عدل عن حكم الله عز وجل وحكم بالطاغوت، وسياق الآيات وإن كان في اليهود والنصارى فإن عموم اللفظ ووجوب تحكيم شرع الله والرضا به يقتضي شمول هذا الوعيد لكل من لم يحكم بما أنزل الله سواء كان من الأمم السابقة أو من أمة محمد ﷺ، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُجْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فإن السياق وإن كان في الأحرار والرهبان لكنه ورد بلفظ العموم الذي يشمل كل من فعل ذلك. وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أن التعبير بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إشعار بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر، فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشع وأعظم جرما وأشد كفرا. كما قلت في تفسير قوله

عز وجل : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ هذا قسَم من الله عز وجل بأجل مقسم به وهو نفسه المقدسة وبوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد - مهما كان - إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ ، ولا بد كذلك أن يشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجاً من أي حكم من أحكامها ، بل يكون تلقيه له بالقبول والرضى وانسراح الصدر وأن يسلم بذلك تسليماً وينقاد انقياداً ، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحاً وسعادة وعدلاً وإنصافاً وحقاً . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ إلى آخر الآية أي وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن من قتل نفساً عدواناً وظلماً قتل بها ومن فقام عينا بغير حق تفقأ عينه وأن الأنف يجده بالأنف وأن الأذن تقطع بالأذن وأن السن تقلع بالسن وكذلك كل ما يمكن فيه التماثل إذا حصل ذلك عدواناً وظلماً . ومعنى ﴿والجروح قصاص﴾ أي وسائر الجراحات التي يمكن القصاص فيها والمماثلة ففيها القصاص كالشفتين واللسان والأنثيين والقدمين واليدين وغيرهما ، فأما ما لا يمكن القصاص فيه من رض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منه التلف إن اقتصر منه ففيه أرش وحكومة ، وفي قوله عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية توبيخ آخر شديد لليهود ، فبعد أن وبخهم على تركهم ما كتبه عليهم من رجم الزاني ، حيث بدلوه بالجلد والتحميم والتشهير وبخهم في هذه الآية أيضاً بتعديهم على ما كتبه الله عليهم في التوراة من قصاص النفس بالنفس حيث لم يرض بنو النضير بذلك ظلماً وعدواناً وجعلوا النفس من بني النضير بنفسين من بني قريظة ولا

يقتلون النضري إذا قتل القرظي ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ أي فمن عفا عن القصاص ممن تعدى عليه وتجاوز له عن القود أو الأرض فإن الله تبارك وتعالى يكفر ذنوب هذا الذي عفا ، لأنه عز وجل يحب العفو ، ولذلك قال تبارك وتعالى : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن أعرض عن التحاكم إلى شريعة الله ولم يرض بقضاء الله فأولئك هم المبالغون في الظلم المتعدون لحدود الله الواضعون للشيء في غير موضعه .

قال تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلِيُخَكِّمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا إِنَّا كُنَّا فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ .

بعد أن وبخ الله عز وجل اليهود على انحرافهم عن كتاب الله واستغراقهم في الكذب مع المنافقين ، وتحريفهم لكلام الله من بعد مواضعه ، وتغييرهم لما شرعه الله عز وجل وكتبه عليهم في التوراة من رجم الزاني والقصاص في القتل والجروح ، وبيّن أنهم لم يهتدوا بهدى التوراة ولم يستنبروا بنورها وحكم عليهم بأنهم كافرون ظالمون شرع هنا في الحديث عن عيسى ابن مريم الذي جاء عقب أنبياء إسرائيل الذين حكموا بالتوراة وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقا للتوراة وأن الله عز وجل أعطاه الإنجيل المشتمل على الهدى والنور وأن الإنجيل موافق لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال وما يصونها من الحدود ، وإن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبيح لعيسى عليه السلام وأمه بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل حيث يقول عز وجل هنا : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الآيتين . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي وبعثنا

عيسى ابن مريم وأرسلناه إلى بني إسرائيل عقيب أنبيائهم ورسلمهم الذين حكموا بالتوراة ، وجاء عيسى عليه السلام مصدقا لكتابنا الذي أنزلناه من قبله على موسى عليه السلام مؤمنا بأنه كلام الله وأنه حق وأنه هدى ونور ، وأعطينا عيسى عليه السلام الإنجيل المشتمل على الهدى والنور فهو هدى يهدي إلى الحق وهو نور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ويخرج من اتبعه من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والمعرفة وكمال البصيرة ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وآتينا عيسى الإنجيل المشتمل على الهدى والنور حالة كون هذا الإنجيل مصدقا وموافقا لما في التوراة من أصول وقواعد الدين وحفظ الكليات الخمس التي لا سعادة للبشرية في دينها ودنياها إلا بصيانتها وحالة كون هذا الإنجيل هدى وكونه زاجرا عن المعاصي لمن يخافون الله عز وجل إذ هم الذين يستفيدون من شريعة الله ويستضيئون بأنوارها ومعارفها ، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل في هذا المقام بهذه الصفات الخمس وهي كونه مشتملا على الهدى ومشتملا على النور وكونه مصدقا لما بين يديه من التوراة وكونه في نفسه هدى وكونه موعظة أي مشتملا على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة . وقوله عز وجل : ﴿وَلِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي وأمرنا أتباع الإنجيل بأن يلتزموا بأحكامه وأن يقفوا عند حدوده ، وأن يحلوا حلاله وأن يحرموا حرامه ، وأن يؤمنوا بكل ما أوجب عليهم الإيمان به ، مما يحتم عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي لم يكتف من أنزل الله عليه الإنجيل أن يشير إليه إشارة بل حدد لهم اسمه بأفصح عبارة ولم يخبرهم بذلك سرا بل خطب بذلك في بني إسرائيل علانية وجهرا فقال : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فمن استجاب

لمحمد ﷺ من معاصريه ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة من النصارى فقد ارتضى حكم الإنجيل ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالإنجيل وفسق عن أمر الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقا عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من مجيئ محمد عليه السلام لمفعولا أي لكائنا لا محالة ولا بداه ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى سمى في هذا المقام كتابه الذي أنزله على موسى باسم التوراة وسمى كتابه الذي أنزله على عيسى باسم الإنجيل وأطلق على كتابه الذي أنزله على محمد عليه السلام اسم الكتاب إشارة إلى أن القرآن العظيم هو الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق لتفوقه على سائر الكتب السماوية ، فهو أفضل الكتب وقد أنزله الله عز وجل على أفضل الرسل عليهم الصلاة

والسلام، وقد خصه الله عز وجل بمزايا لا توجد في غيره، من العموم والشمول والدوام والبقاء والصلاح لكل عصر ومصر وجيل وقبيل فلا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وإذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حكم به ولا يحكم بكتاب سواه. ومعنى قوله: ﴿وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ﴾ أي ورقبنا على سائر النصوص السماوية المحفوظة عن التغيير حيث يشهد لها بالصحة ويقرر أنها حق من عند الله، وهو أمين عليها باقي في الإشادة بها لأنه محفوظ عن التغيير والتبديل والتحريف كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركون بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح، والقود والنفوس، فارجم الزاني المحصن واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلماً، وافقاً العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقاً في ذلك ما بين يديه من الكتاب، ومهميناً عليه، رقيباً يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود - الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا - عن الذي جاءك من عند الله من الحق وهو كتاب الله الذي أنزله إليك، يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاختر الحكم عليهم، ولا تترك العمل بذلك اتباعاً منك

أهواءهم ، وإيثارها لها على الحق الذي أنزلته إليك اهـ وقوله عز وجل : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ أي اقتضت حكمتنا أن نبعث لكل أمة رسولا منهم وخصصناه بشريعة ومنهاج ونظام ملائم لهم ، يتناسب مع جيلهم وقبيلهم وحالهم ، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ وبين قوله عز وجل : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وقوله تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من المرسلين : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمَ افْتَدِهْ﴾ إذ أن جميع الأنبياء متفقون في أصول الدين وقواعد السلوك وتحريم الفواحش والمحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال ، أما في الفروع فقد اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يبعث كل رسول بشريعة تلائم قومه ، ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين جعل الله عز وجل شريعته وافية بجميع حاجات البشر في سائر الأعصار والأمصار صالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل ، لا تنسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وتفنئ الدنيا ، وتنتهي الحياة على الأرض ، والشريعة والشرعة هي الطريقة الظاهرة الواضحة التي يتوصل بها إلى النجاة . وأصل الشرعة والشرعة في كلام العرب : مشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له ويكون ظاهرا مَعِينًا لا يسقى بالرَّشَاء ، والمنهاج هو الطريق الواضح البين المستقيم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية . أي ولو أراد الله تبارك وتعالى جعلكم أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيء لفعل ذلك ولجعلكم أمة واحدة ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى

نسخ الجميع بشريعة عبده ورسوله وأكمل خلقه محمد ﷺ الذي بعثه إلى أهل الأرض قاطبة وختم به النبيين ، وقد شرع عز وجل الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم على طاعته ويعذبهم على معصيته ، وقد اقتضت حكمته ذلك حيث شرع لكل أمة ما يلائمهم ، فسارعوا إلى الخيرات وبادروا إلى اكتساب المبرات بطاعة الله عز وجل وطاعة رسوله محمد ﷺ فإن مردكم ومصيركم إلى الله عز وجل وسيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم .

قال تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

بعد أن أثنى الله عز وجل على كتابه الكريم المنزل على نبيه العظيم سيد الخلق وأفضل الرسل ووصف هذا الكتاب العظيم بأنه مصدق للكتب السماوية ومهيمن عليها حيث اشتمل على ما فيها من الحق الثابت وبين ما ألحقه أحبار السوء بها من التحريف والتغيير والتأويل الفاسد، واحتوى القرآن على جميع ما يحتاجه الناس لمعاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة، وأشار إلى علوم الدنيا والآخرة التي لم تذكر في كتاب سماوي سواه كما أقر بذلك المنصفون من غير أتباعه، وقد نقلت الصحف السعودية الصادرة في يوم الجمعة الموافق للثامن من شهر صفر سنة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة عن رئيس ألمانيا الغربية أنه ذكر أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي فسر علم الأجنة حيث قالت هذه الصحف : اعترف رئيس جمهورية ألمانيا الغربية «ريتشارد فايتسكير» أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي استطاع أن يفسر علم الأجنة، وقال الرئيس الألماني الذي كان يتحدث في ندوة عقدها مع طلبة وطالبات الجامعات الألمانية : إن هذا العلم عجز عن تفسيره العلماء حيث لم يشر إليه غير الكتاب الكريم وهو كتاب الله عز وجل اهـ وبعد ثناء الله عز وجل على هذا القرآن العظيم وأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بهذا الكتاب العظيم وتحذيره ﷺ من اتباع أهوائهم المنحرفة عن الهدى والعدل المائلة إلى الشهوات والشبهات بعد ذلك كله أعاد التأكيد على رسوله سيد البشر محمد ﷺ أن

يلتزم بأحكام هذا القرآن وأن يحذر من اتباع أهواء أعداء الله الذين يحرسون على فتنته ﷺ ولو عن بعض ما أنزل الله ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأن اقض بينهم بالقرآن الذي أنزله الله عز وجل عليك واتبع تعاليمه ، ولا تنقد لأراء وشهوات الذين لم ينقادوا للحق من أهل الكتاب وغيرهم ، وكن على حذر منهم فإنهم يحرسون على أن يصرفوك عن أحكام الله وحدوده التي أنزلت إليك أو عن بعضها إن عجزوا عن صرفك عن جميعها ، وأن في قوله عز وجل : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ﴾ مفسرة بمعنى أي كقوله عز وجل : ﴿فَأُوحِينَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا﴾ ومجيء أن في هذا المقام لتأكيد وجوب الحكم بما أنزل الله حيث اشتمل قوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ بعد قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على مزيد من تأكيد الحكم بما أنزل الله ، وهو يلفت الانتباه إلى أنه يتحتم على كل من يريد العدل والإحسان ألا يحيد قيد أنملة عن الحكم بكتاب الله ، وأن الذين في قلوبهم مرض لا يحبون الحكم بشريعة الله ويحملهم انقيادهم لأهوائهم على محاولة صرف قضاة الشريعة عن التحاكم إليها ، والاحتكام بها ، وأنهم إن عجزوا عن صرف الناس عن جميعها فسيحاولون صرفهم عن بعضها ، ولذلك لفت الله عز وجل الانتباه إلى وجوب ملازمة الحكم بما أنزل الله حيث أورد ذلك بأمر ونهي وتحذير متتابعات حيث قال عز وجل : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ مع ما اشتملت عليه الآية السابقة من لفت الانتباه إلى ذلك . وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب لمن فعل ذلك أو انقاد له مصائب عاجلة وبلايا ورزايا تنزل بساحتهم حيث يقول عز وجل هنا : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ آدَمَ أَنْ يَضَعِ السُّبْحَانَ فَرِيقًا لِّلْجَنَّةِ بَلَغَ فِي السُّبْحَانَ فَاسْجُدَ لِلَّذِينَ فِي السُّبْحَانَ مِنْ أَسْمَاءِ مَعَالِكِ الْوَعْدِ فَجَعَلَ مِنْ بَيْنِهِمْ لُبًّا فَعَمِلُوا الْجَنَّةَ فَعَمِلُوا فِيهَا مَعَٰلِفًا كَانَتْ لِلْجَنَّةِ دُرًّا يَّاسِرًا فَيَخْرُجُونَ فَعَمِلُوا الْجَنَّةَ فَعَمِلُوا فِيهَا مَعَٰلِفًا كَانَتْ لِلْجَنَّةِ دُرًّا يَّاسِرًا فَيَخْرُجُونَ فَعَمِلُوا الْجَنَّةَ فَعَمِلُوا فِيهَا مَعَٰلِفًا كَانَتْ لِلْجَنَّةِ دُرًّا يَّاسِرًا فَيَخْرُجُونَ

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴿١﴾ أَيِ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ الْحُكْمِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ
الْمَنْزُلةِ عَلَى أَفْضَلِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَيَقُنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُصِيبُهُمْ بِمَصَائِبِ
عَقُوبَةِ لَهُمْ عَلَى بَعْضِ ذُنُوبِهِمْ مَعَ مَا يَدْخِرُهُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ
وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَعْضَ الذُّنُوبِ يَعَجِّلُ اللَّهُ عَقُوبَةَ أَهْلِهَا مَعَ مَا يَدْخِرُهُ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ كَالْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْبَغْيِ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ
وَهُوَ أَفْحَشُ الْبَغْيِ ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ
صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : مَا مِنْ
ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يَعَجِّلَ اللَّهُ لِمُصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ . وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . ﴿٢﴾ وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ
إِلَى أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ يَجْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ مَصَائِبٌ وَبَلَايَا عَاجِلَةٌ إِشْعَارًا
بِفِدَا حَاجَةِ جَرَمِ تَحْكِيمِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَشَهَوَاتِهِمْ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ تَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ
حَيْثُ يَقُولُ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ
قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى
الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا
بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا
وَرَبَّكَ لَا يَوْمَنُونَ حَتَّى يَحْكُمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٣﴾ وَالْإِرَادَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ هي الإرادة الكونية القدرية ، وفي ذلك لفت انتباه إلى عدله وأنه لا يظلم أحداً ، والتعبير بالبعض في قوله : ﴿ببعض ذنوبهم﴾ إشعار بفداحة جرم من يعرض عن تحكيم شريعة الله ، والإشارة إلى أن لهم ذنوبا كثيرة ولو يؤاخذهم الله بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهرها من دابة منهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ هذه جملة اعتراضية تذييلية لتقرير مضمون ما قبلها مشتملة على مواساة رسول الله ﷺ مما يلاقيه من عنت اليهود وغيرهم ، أي وإن كثيرا من الناس لمتمردون في الكفر مصرون عليه ، خارجون عن الحدود التي شرعها الله عز وجل لعباده ، منحرفون عن الحق إلى الضلال ، وعن النور إلى الظلمات ، ناكبون عن الهدى ، كما قال عز وجل : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ والكيس من الناس من اتبع الحق ولو كان مع رجل واحد ، واجتنب الباطل ولو كان عليه الكثير من الناس ، وكما أشار إلى ذلك العليم الحكيم حيث قال : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وكما قال دواد عليه السلام فيما حكى الله عز وجل عنه : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي يريدون التحاكم بأحكام أهل الجاهلية الذين لا يؤمنون بكتاب ولا ينقادون لرسول ، وإنما يبنون أحكامهم على الهوى والجهل ، والمداينة ، والاستفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم ، والتوبيخ لهم ، فإن التولي عن حكم رسول الله ﷺ منكر فظيع عجيب ، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب وأغرب وأعظم كفرا وأشد فسقا وظلما . قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل

خير، الناهي عن كل شر، وَعَدَلْ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يُحْكَمُ سواه في قليل ولا كثير ، قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ﴾ أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء اهـ ولاشك أن الجاهلية لا يرضى عاقل أن ينقاد لأحكامها سواء كانت جاهلية عربية أو كانت جاهلية أعجمية ، وسواء كانت جاهلية قديمة أو كانت جاهلية حديثة ، إذ كلها تدور في فلك الهوى والجهل مبتعدة عن المنهج الذي وضعه الحكيم العليم الخبير بطبائع خلقه ، ومصالح عبادہ ، ومن المُجَرَّبَاتِ المسلّمات أن جميع القوانين الوضعية لا بقاء لها ولا دوام ولا شمول ولا تربى في نفوس الناس ما تربيته شريعة الله في نفوسهم من النفور من الجرائم في السر والعلن ، والغيب والشهادة ، ولذلك عد رسول الله ﷺ فيمن هم أبغض الناس إلى الله من ابتغى في الإسلام سنة الجاهلية ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة
الجاهلية، ومُطَلَّبُ دم امرئ بغير حق ليهرق دمه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * .

بعد أن أوضح الله عز وجل انحراف اليهود عن التوراة، وانحراف النصارى عن الإنجيل، وحذر رسوله ﷺ عن اتباع أهوائهم، وشدد النكير على من حكم بغير ما أنزل الله، ووصف من ينحرف عن الحكم بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بأنه راغب في حكم أهل الجور والضلال من الجاهليين، معرض عن حكم الله الذي هو أحسن الأحكام وأتقنها وأعد لها وأرحمها وأشملها وأدقها وأبقاها وأنقاها وأوفاهها بمصالح العباد والبلاد مما يقر به أهل اليقين والبصيرة، وجه الخطاب هنا للمؤمنين كافة ونهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وندد بالمنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتخذون اليهود والنصارى أولياء حيث يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ أي يامعشر من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ وانقاد لأحكام الله وشريعة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى بطانة لكم وأحبابا وأنصارا وحلفاء على أهل الإيمان، لأنهم لا يألونكم خبالا ويتمنون عنتكم ومشقتكم، ويحرصون على إلحاق الأذى بكم وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مسوق لتعليل النهي وتأكيده إيجاب الاجتناب عن المنهى عنه، والمراد أن اليهود مطبقون على عداوتكم لا تجدون يهوديا واحدا يواليكم وأن النصارى مطبقون على عداوتكم لا تجدون نصريانيا

واحدا يواليكم ، ومع أن النصارى يعادون اليهود كما أن اليهود يعادون
 النصارى لكنهم قد اتفقت كلمتهم على عداوتكم ومضارتكم يبذلون كل ما
 يطبقون في إلحاق الأذى والعنت والغوائل بكم فكيف يليق بمن آمن بالله
 ورسوله محمد ﷺ أن يوالي من يعادي الله ورسوله ﷺ ، وليس المراد أن
 اليهود أولياء للنصارى ولا أن النصارى أولياء لليهود ، وإنما سيق الكلام
 على سبيل الإجمال تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين اليهود
 والنصارى وأن ذلك من البدهيّات المسلّمات ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ
 يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تحذير شديد من موالاة اليهود والنصارى ، وزجر
 أكيد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة ،
 فإن من والاهم صار حريبا أن يعد منهم ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن
 من خالطت قلبه بشاشة الإيمان لا يتأتى منه أن يوالي أعداء الله مهما كان ،
 حيث يقول عز وجل : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ وكما قال
 عز وجل : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى
 اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن الله
 عز وجل اقتضت حكمته وعدله ألا يعين القوم المعتدين على الخير وألا
 يسددهم وألا يوفقهم إلى الرشd ، والمراد بالهداية هنا هي هداية التوفيق
 والتسديد والإعانة قال أبو السعود العمادي : وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم ، أي لا يهديهم إلى الإيمان بل
 يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة ، وإنما وضع المظهر موضع
 ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم ، لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب
 الخالد ، ووضع للشيء في غير موضعه اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ

في قلوبهم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿١٠٠﴾
 مزيد تشنيع على من يتولى أعداء الله وينحرف عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين، وبيان لذبذبة هؤلاء الذين لا يميلون للحق ولا يتبعون الهدى، وإنما يوالون اليهود والنصارى ويندفعون في الالتصاق بهم توها منهم أن الدولة ستكون لهم، وأن المال والغنى بأيديهم، وقد خابوا وخسروا، فنصر الله عز وجل رسوله والمؤمنين، وأذل اليهود والنصارى والمنافقين، والمخاطب بقوله عز وجل: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ هو رسول الله ﷺ وكل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب، والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فالمراد بالمرض النفاق الذي يصيب القلب فيكون أخطر عليه من جميع الأمراض الحسية التي تصيب القلب اللحمي الصنوبري الشكل، ومعنى: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي يندفعون في موالاتهم والالتصاق بهم والتودد إليهم وإظهار محبتهم، وقوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي يقول هؤلاء المنافقون في تعليل اندفاعهم في موالاته اليهود، والنصارى: إننا نتولاها ونتودد إليهم مخافة أن تدور علينا الدوائر وأن يصيبنا الدهر بمكروه وأن يجور علينا الزمان لأنه إذا أصابنا شيء من ذلك كانت لنا يد عند اليهود والنصارى فيدفعون الشر عنا ويمدون يد العون والمساعدة لنا، وهذا ولا شك بسبب مرض قلوب هؤلاء المنافقين وعدم يقينهم بنصرة الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولذلك عجل الله مساءة هؤلاء المنافقين ببيان أن الفتح قريب وأن الغلبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المنافقين لن يفروا من عقوبة الله حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ أي فلعل الله أن يجيء لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالنصر من عنده أو عقوبة تنزل باليهود والنصارى

وتخزي المنافقين حتى يصيروا مفعمين حسرة وندما بعد زوال ما تعلقوا به ،
وَتُبِّهَ الْغَافِلِينَ إِلَى أَنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمُ الْغَالِبُونَ ، وَأَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ حَيْثَ يَقُولُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ
لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وقد صدق الله وعده ، ونصر
رسوله وجاء بالفتح لعباده المؤمنين ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ،
وارتفعت راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، في وقت قصير من ظهور
الإسلام ، حتى قال هارون الرشيد وقد رأى سحابة تمر من فوق رأسه : سبى
أينما شئت ، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك ، ولا يزال اسم الإسلام
عزيزا والله الحمد والمنة ، وسيستمر عزيزا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق
الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله محمد
ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع
رسول الله ﷺ يقول : ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من
خالفهم حتى يأتي أمر الله . وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال : ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم
حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون . وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي
الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا
يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك . وفي
لفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال : لا يزال ناس
من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون . كما روى مسلم في
صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال
طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله
وهم كذلك . وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم

أمر الله وهم ظاهرون . وفي لفظ لمسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ استئناف لبيان ما صار إليه المؤمنون من العزة والثبات على الحق ، وما صار إليه المنافقون من الحسرة والندامة والخسران ، وتعجب المؤمنين من جرأة المنافقين في الحلف بالله كذبا بأنهم مؤمنون وأنهم مع المسلمين وتأکید أيمانهم الفاجرة بألوان من التأكيد إمعانا في إخفاء نفاقهم ، ففضحهم الله ، وأخبر عز وجل أن المنافقين قد خسروا صفتي الدنيا والآخرة إذ أبطل الله عز وجل ما بذلوه من صلاة أو زكاة أو أعمال برٍّ ، لأنها لم تكن لله عز وجل وإنما كانت رياء ونفاقا ، وقد قضى الله عز وجل أنه لا يقبل من أحد عملا إلا إذا كان خالصا لوجه الله وصوابا على منهج رسول الله ﷺ . والمشار إليه في قوله : ﴿ أَهْلُؤَلَاءِ ﴾ هم المنافقون ، ومعنى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي غاية اجتهادهم فيها حيث حلفوا بأغلظ الأيمان وأكدوها بأنواع التأكيد ، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ : يقول الله تعالى ذكره ، مخبرا عن حالهم عنده بنفاقهم وخبث أعمالهم : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ يقول : ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلا لا ثواب لها ولا أجر ، لأنهم عملوها على غير يقين منهم بأنها عليهم الله فرض واجب ، ولا على صحة إيمان بالله ورسوله ، وإنما كانوا يعملونها ليدفعوا المؤمنين بها عن أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، فأحبط الله أجرها ، إذ لم تكن له ، ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ يقول : فأصبح هؤلاء المنافقون عند مجيء أمر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفر ، قد وكسوا في شرائهم الدنيا بالآخرة ، وخابت صفتهم ، وهلكوا . اهـ .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى وحذرهم أشد التحذير من ذلك ، وندد بالمنافقين الذين يوالون أعداء الله وينحرفون عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين ويندفعون في الالتصاق باليهود والنصارى توهماً منهم أن الدولة ستكون لأعداء الله ورسوله ، وقطع عز وجل أطماع أعدائه ووعد رسوله ﷺ والمؤمنين بالفتح والنصر ، وأشار إلى أن موالاة أعداء الله سبب من أسباب الارتداد عن الإسلام ، شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق ، تنبيهاً منه عز وجل لعباده بأن من يرتد عن دين الإسلام لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ، وتربيةً للملكة الطمأنينة في نفوس المؤمنين عندما يواجهون ردة فردية أو جماعية فيستيقنون أن هذه الردة كسحابة صيف لا تلبث أن تزول ، وذلك لما سبق في علم الله عز وجل أنه سيرتد فئام من الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ﴾ وهذا شبيهه بقوله عز وجل : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ . ﴾ قال ابن

جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وكان هذا الوعيد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيه محمد ﷺ ، وكذلك وعده من وعد من المؤمنين ما وعده في هذه الآية لمن سبق في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يرتد ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر ، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال تعالى ذكره ، ووفى للمؤمنين بوعده ، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن مصادقة أهل الكتاب قد تؤدي إلى الردة عن دين الإسلام حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب حكم المرتد والمتردة واستتابتهم : وفي هذه الآية الإشارة إلى التحذير عن مصادقة أهل الكتاب إذ لا يُؤْمِنُونَ أن يفتنوا من صادقهم عن دينه اهـ والردة الخروج من الإسلام ، والكفر بعد الإيمان بارتكاب ما ينقض الإسلام كالشرك بالله أو السجود للأصنام ، أو الذبح لغير الله ، أو كمن جحد الربوبية أو الألوهية أو اعتقد أن الله صاحبة أو ولدا ، أو أن الله حل في أحد من خلقه أو اتحد به ، أو ادعى أن العبد رب أو أن الرب عبد كاهل وحدة الوجود أو كذب بكتب الله أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخر أو القدر خيره وشره أو ادعى النبوة أو صدق من ادعاهها ، أو استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه ، أو كان مبغضاً لرسول الله ﷺ أو أنكر أن يكون أبو بكر صاحباً لرسول الله ﷺ أو رمى الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين وقد برأها الله عز وجل في كتابه ، أو أنكر شيئاً يعلم بالضرورة أنه من دين الإسلام أو اعتقد أن الأحكام الوضعية أحسن من الأحكام الشرعية ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ تقرير وتأكيـد لبيان أن من ارتد عن الإسلام لا يضر الإسلام شيئاً ولا يضر إلا نفسه بحرمانها

من السعادة وسيظهر الله عز وجل للإسلام من يجاهد في سبيل إعلائه ويقيم الله عز وجل من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ وينصر دينه ، وأن هذا الأمر سيستمر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أَذْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي أرقاء رحماء متواضعين بينهم أشداء على الكفار لا يذلون لهم ولا يستكينون أمامهم ، كما قال عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرَارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ أي يبذلون جهدهم لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الإسلام ويقولون الحق ولو كان مُرًّا ، ولا يمنعون من طاعة الله وإقامة حدوده عَدْلٌ عَاذِلٍ ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون بالقسط استجابة لأمر الله عز وجل حيث يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره ، من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم ، فضل الله الذي تفضل به عليهم ، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولا ، ﴿ والله واسع ﴾ يقول : والله جواد بفضله على من جاد به عليه ، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطائه ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بموضع جوده وعطائه ، فلا يبذله إلا لمن استحقه ، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة ، لعلمه بموضع صلاحه له من

موضع ضره اهـ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ تأكيد آخر في تنبيه المؤمنين وتعريفهم بمن يتولونه، وتحذير لهم من ولاية أعداء الله، قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة، وعلمه بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم، بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه، كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء لأن بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاخصوهم بالموالاة، ولا تتخطوهم إلى غيرهم، وإنما أفرد الولي مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعالى، وولايته عليه السلام وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا، لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه، ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ حال من فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقامة الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى

اهـ وما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ مر به سائل وهو راكع فتصدق عليه فنزلت هذه الآية فهو غير سديد، إذ لم يثبت ذلك بخبر صحيح، والعلم عند الله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ زيادة حض على ولاية الله ورسوله والمؤمنين بتأكيد أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا كان من حزب الله، وقد قضى الله عز وجل أن يكون حزبه هو الغالب، وفي ذلك تحذير عظيم من موالة أعداء الله، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده جميعاً: الذين تبرأوا من حلف اليهود وخلعواهم رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم: أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون دون حزب الشيطان اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ ألوان من البيان وأساليب الفصاحة والبلاغة والبرهان العقلي ما تتطامن أمامه رءوس الفصحاء ويعترف بالعجز عن مجاراته أئمة البلغاء، وشيوخ العقلاء، وأرباب البراهين، فمقتضى السياق أن يقال: ومن يتولهم لأنه تقدم ذكرهم في الآية السابقة، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن ولاية الله هي الأصل وولاية رسول الله ﷺ وولاية المؤمنين هي تبع لولاية الله عز وجل، ولذلك جعل الله رسوله والمؤمنين حزباً، وأضافه إليه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وكان مقتضى السياق أيضاً أن يقال: فإنهم الغالبون

لكن مقتضى الحال اقتضى المجيء بالاسم الظاهر موضع الضمير
للتنصيب على أنهم حزب الله تعظيماً لهم ، وإثباتاً لغلبتهم بالطريق البرهاني
كأنه قيل : ومن يتول هؤلاء فهو معهم وهم جميعاً حزب الله ، فلهم الغلبة
والنصر على أعدائهم لأن حزب الله هم الغالبون . فقد اشتمل الكلام على
دليل برهاني حذف من مقدماته ما دل عليه المقام . وقوله تبارك وتعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ ﴾ الآيتين . تنفير من موالاته أعداء الإسلام
سواء كانوا كتابيين أو مشركين غير كتابيين الذين يستهزئون بشرائع الإسلام
عموماً وبالصلاة والأذان خصوصاً ويعدون هذه الشرائع لعباً لأن بصائرهم
منطمسة ، وعقولهم فاسدة ولذلك ذيل الله تبارك وتعالى هذا المقام بقوله :
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

بعد أن حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً مما ينفر من ولايتهم أشد التنفير. أمر نبيه محمداً ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب يسألهم : ماذا تعيبون من دين الإسلام؟ وما الذي يحملكم على اتخاذه هزواً ولعباً؟ ولماذا تحقدون علينا؟ هل في سلوكنا ما يدعوكم إلى أن تكرهونا وتسخطوا علينا؟ نحن لا نعلم شيئاً حملكم على بغضنا إلا أننا آمنا بالله وكتبه ورسله وأن أكثركم قد فسق عن الإيمان بالله وكتبه ورسله ، فأى الفريقين يستحق أن يبغض ويكره؟ الفريق المؤمن بالله وكتبه ورسله المنقاد لشرعه ، أم الفريق الفاسق عن أمر الله ، المكذب لرسل الله وكتب الله ، الذين لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وقد عبدوا الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به؟ هذه صورتنا ، وهذه صورتكم فأى الفريقين يستحق أن ينقم منه وأن يكره ويحقد عليه؟ وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي قل يا محمد للمتسيبين للتوراة وللمتسيبين للإنجيل المصرين على الفسق والكفر والعداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين : هل تعيبون علينا شيئاً سوى استمساكنا بالإيمان بالله وكتابه المنزل على محمد ﷺ

وسائر الكتب السماوية السابقة ، وأننا لم نتبعكم على فسقكم ولم نسلك
سبيلكم المنحرف المعوج حيث تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض ، وإيراد
السؤال على هذا الأسلوب هو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم وهو
أسلوب من أساليب البديع كقوله عز وجل : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا
بالله العزيز الحميد . ﴾ ومن أمثلة تأكيد المدح بما يشبه الذم قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وكقول الشاعر :

ولا عيب فيه غير أني قصدته فأنستني الأيام أهلا وموطنا
وكقول الشاعر :

فتى كملت أوصافه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
وكقول الشاعر :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن
وكقول الشاعر :

ولا عيب في معروفهم غير أنه يبين عجز الشاكرين عن الشكر
وكقول الشاعر :

ليس به عيب سوى أنه لا تقع العين على شبيهه
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من
لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ
شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ شرح لبيان ألوان فسقهم ، وما استوجبه
من لعنة الله لهم ، وغضبه عليهم وقد مسخ بعضهم قردة وخنازير ، وخذلم
حتى عبدوا الطاغوت ، فهل في الناس من هو شر من هؤلاء ؟ وهل يليق
بعاقل أن يتولاهم وأن يتودد إليهم وأن يرضى بأن يعد منهم ؟ ومعنى قوله عز
وجل : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أولئك شرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ
عن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١﴾ أي قل يا محمد معلنا لأولياءك الذين لا يوالون إلا الله
ورسوله والمؤمنين ولأعدائك الذين ينحرفون بولايتهم عن الله ورسوله
والمؤمنين : هل أخبركم بشر الناس جزاء عند الله يوم القيامة ؟ وكأن سائلا
سأل : من هم شر الناس جزاء عند الله يوم القيامة ؟ فكان الجواب هم من
أبعدهم الله عن رحمته ، وسخط عليهم ، وعاقبهم عقوبة عاجلة لم يعاقب
أحدا ممن سبق من الناس بمثلها حيث مسخهم قردة وخنازير ، وخذلهم
فعبدوا الطَّاغُوتَ وقد علموا أنه يجب الكفر بالطَّاغُوتَ ، فهؤلاء هم شر خلق
الله من بني آدم وهم أبعد خلق الله عن الصراط المستقيم ، وهذه هي صفات
اليهود المعلومة بالضرورة ، فهي كناية عنهم ، ولم يصرح بذكر اليهود لكتبهم
عن تهيج لجأهم ، وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه
الكريم إلى أنه مسخ بعض اليهود قردة وخنازير أي جعل بعضهم قردة
وبعضهم خنازير حيث قال عز وجل في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ * فجعلناها نكالا لما
بين يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف :
﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ وذكر عز وجل في هذا
المقام من سورة المائدة أنه جعل منهم القردة والخنازير ، وقد روى مسلم في
صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رجل
يارسول الله : القردة والخنازير هي مما مسخ ؟ فقال النبي ﷺ : إن الله عز
وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا ، وإن القردة والخنازير
كانوا قبل ذلك . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى سيمسح
قوما قردة وخنازير قبل يوم القيامة عقوبة عاجلة لهم في الدنيا لاستحلالهم
كبائر الفواحش فقد روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن

غنم الأشعري قال : حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبنني :
 سمع النبي ﷺ يقول : ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر
 والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم ، يروح عليهم بسارحة لهم ، يأتيهم
 يعني الفقير لحاجة فيقولون : ارجع إلينا غدا ، فيبيتهم الله ، ويضع العلم ،
 ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا
 جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا
 يَكْتُمُونَ ﴾ بيان لقيحة أخرى من قبائحهم ، وتقرير لذبذبتهم وترددهم
 وعدم ثباتهم على ما قد يتلفظون به في مجلس رسول الله ﷺ أو في مجالس
 المسلمين من دعواهم أنهم مؤمنون قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل
 قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : وإذا جاءكم أيها
 المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم : ﴿ آمَنَّا ﴾ أي صدقنا بما جاء به
 نبيكم محمد ﷺ واتبعناه على دينه ، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم ، قد
 دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم ، ويضمرونه في صدورهم ،
 وهم يُبدون كذبا التصديق لكم بالسنتهم : ﴿ وهم قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ يقول : وقد
 خرجوا بالكفر من عندكم كما دخلوا به عليكم ، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم
 عن كفرهم وضلالتهم ، يظنون أن ذلك من فعلهم يخفى على الله ، جهلا
 منهم بالله ، ﴿ والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ يقول : والله أعلم بما كانوا - عند
 قولهم لكم بالسنتهم - : آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به ، يكتمون منهم
 بما يضمرونه من الكفر ، من أنفسهم اهـ يعني رحمه الله : والله أعلم منهم
 بأنفسهم فلا يخفى عليه ما يضمرونه من كفرهم . وقال ابن كثير رحمه الله :
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾
 وهذه صفة المنافقين منهم ، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر ، وقلوبهم

منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يا محمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال: ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا خلقه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بيان لقبائح أخرى من قبائح اليهود لتقرير اندفاعهم في المعاصي، واستغراقهم في الآثام، وأكل السحت من الربا والرشوة وغيرها من الأموال المحرمة، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يتأتى له أن يخاطب بهذا الخطاب، والتعبير بقوله: ﴿وترى﴾ للإشارة إلى ظهور حالهم وانكشاف سوء سلوكهم حتى يستطيع المخاطب أن يعاين منهم بسهولة اندفاعهم في المعاصي واستغراقهم في الآثام، وحرصهم على أكل السحت الذي تأكل النار الأجساد التي نبتت منه، ولا شك أن من كانت هذه حاله، وتلك خصاله فإنه بعيد عن قبول الخير، قريب من كل شر، ولذلك أقسم الله عز وجل على سوء عملهم حيث ذيل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يقول الله تعالى ذكره: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: أقسم لبئس العمل ما كان هؤلاء اليهود يعملون في مسارعتهم في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت اهـ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن اليهود كانوا يحتالون للحصول على الحرام بكل ما يستطيعون من الوسائل وطرق الاحتيال، فإنهم لما حرمت عليهم شحوم البقر والغنم عمدوا إلى إذابتها وبيعها وأكل ثمنها، فقد روى البخاري ومسلم من

حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود ،
حرمت عليهم الشحوم ، فجملوها ، فباعوها . وفي لفظ للبخاري ومسلم
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله يهود ،
حرمت عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا ثمنها .

قال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.﴾

بعد أن أوضح عز وجل الفرق بين سلوك المؤمنين المستجيبين لرسول الله ﷺ وسلوك أهل الكتاب وبخاصة اليهود منهم وبين انحرافهم عن الصراط المستقيم وأن أكثرهم فاسقون، وأن الله لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطاغوت وأنهم قد شاع فيهم الانغماس في الإثم والعدوان وأكل السحت وجه هنا عتابا لفقهاءهم وعلمائهم على تقصيرهم في نهيمهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت مشيرا إلى أن هؤلاء اليهود قد مَرَدُّوا على قول الإثم وأكل السحت، وأن هذا صار صناعة لهم ثم أضاف إلى ذلك أنهم قد قالوا على الله عز وجل قولاً قد بلغ في الدلالة على سوء سلوكهم وخبث نفوسهم وسفاهة عقولهم مبلغاً لم يعرف في أهل الجاهلية نظيره حيث قالوا: يد الله مغلولة، وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، ثم أشار إلى أنهم يعملون على إشعال نار الحروب والسعي في الأرض بالفساد وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقد صَدَّرَ الله تبارك وتعالى هذا المقام بحض الفقهاء والعلماء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إشارة إلى تحمل الفقهاء والعلماء مسئولية توجيه أممهم وشعوبهم إلى الخير عندما يرون منهم انحرافاً عن

الصراف المستقيم ، وأن عليهم أن يحذروهم من الوقوع في المعاصي التي تجلب عليهم سخط الله وعقوبته ، وفي قوله عز وجل : ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء اليهود قبحهم الله قد مردوا على قول الإثم وأكل السحت حتى صار صناعة لهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ شروع في بيان قبائح أخرى من قبائح اليهود البشعة التي لم يشاركهم فيها حتى أهل الجاهلية إذ قال هؤلاء اليهود لعنهم الله : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اهـ وقد استعمل القرآن العظيم التعبير باليد المغلولة كناية عن البخل والشح كما استعمل اليد المبسوطة في الكناية عن البذل والإنفاق ، والجود والعطاء ، فإذا كان المنفق قد بلغ حد الإسراف والتبذير قيل : بسط يده كل البسط ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وقد رد الله تبارك وتعالى على هؤلاء المجرمين مقالتهم ، وقابلهم فيما اختلقوه وتفوهوا به فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه ، فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمراً عظيماً كما قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴿الآية ، وقال تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ الآية ، ثم قال تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ،

الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا ، كما قال : ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والآيات فيها كثيرة ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن يمين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحَاء الليل والنهار ، رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يمينه ، قال : وعرشه على الماء ، وفي يده الأخرى الفيض يرفع ويخفض ، وقال : يقول الله تعالى : أَنْفِقْ أَنْفِقْ عليك . أخرجاه في الصحيحين : البخاري في التوحيد عن علي بن المديني ، ومسلم فيه عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به اهـ والذي في البخاري في التوحيد من طريق علي بن المديني بدل قوله : «فإنه لم يغيض ما في يمينه» فإنه لم يَنْقُضْ ما في يمينه . وقد أورده البخاري أيضا في التوحيد عن أبي اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة : وفيه : فإنه لم يغيض ما في يده ، وقال : عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع . وأما زيادة : يقول الله تعالى : أَنْفِقْ أَنْفِقْ عليك . فليست عند البخاري في التوحيد وإنما أوردها في تفسير سورة هود من طريق أبي اليمان . ورواية مسلم من طريق محمد بن رافع إنما أوردها مسلم في كتاب الزكاة بلفظ : وقال رسول الله ﷺ : إن الله قال لي : أَنْفِقْ أَنْفِقْ عليك ، وقال رسول الله ﷺ : يمين الله ملأى ، لا يغيضها ، سحَاء الليل والنهار ، رأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يمينه ، قال : وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض يرفع ويخفض . وفي بعض نسخ مسلم : وبيده الأخرى القبض ، كما أن في رواية البخاري عن علي بن المديني : وبيده الأخرى

الفيض أو القبض . والمراد بالفيض : الإحسان والإعطاء الواسع والمراد بالقبض التقدير، كما قال عز وجل : ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ . وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ دليل قطعي يستدل به أهل السنة والجماعة على إثبات اليدين لله عز وجل من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل . فإنه عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ قال الإمام محيي السنة الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد البغوي في تفسير قوله عز وجل : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ : ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه . وقال جل ذكره : ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ : كلتا يديه يمين . والله أعلم بصفاته ، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم لعنهم الله ، وبرهان على انتكاس فطرتهم ، وانقلاب الموازين عندهم ، فبدل أن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وأن يستضيئوا بنوره ويهتدوا بهداه صاروا كلما أنزلت آية كفروا بها فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقا ، وعملا صالحا ، وعلمًا نافعا ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغيانا وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ، وكفرا أي تكذيبا ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ . اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى سبب انتكاس القلوب حتى تكفره الإيمان وتحب الكفر ويبيِّن أن سبب ذلك هو التكبر في

الأرض بغير الحق حيث يقول عز وجل: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان آخر لقيحة أخرى من قبائحهم وتأکید على فساد قلوبهم وأنها مليئة بالحقد والحسد والضغينة ليس ذلك على المسلمين وحدهم بل إنهم يبغض بعضهم بعضا ويحسد بعضهم بعضا ويحقد بعضهم على بعض كما ذكر ذلك تبارك وتعالى في حق النصارى حيث قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وقال هنا في حق اليهود: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿بِأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ، تَحَسَّبَهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ هذا بيان آخر لقيحة أخرى من قبائحهم حيث إنهم لا ينفكون عن محاولة إشعال الحروب وإثارة الفتن بين الأمم والشعوب، ولو تمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الإجرامية لأهلكوا الحرث والنسل ولكن الله تبارك وتعالى يحبط كيدهم، ويحول بينهم وبين ما يشتهون وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بيان آخر لقيحة أخرى من قبائحهم وتأکید لما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من حرصهم الشديد وسعيهم الخثيث للفساد في الأرض، وحرمان أهلها من أسباب الأمن والاستقرار، ولذلك نجد أصابع الدول في عصرنا تشير إليهم في أمريكا الجنوبية وهم يدرّبون العصابات لتجار المخدرات، كما تشير إليهم في جنوب أفريقيا وسائر أنحاء العالم وهم يمدّون المنحرفين البغاة بأسباب است شراء شرورهم، ولذلك استحقوا غضب الله عليهم وبغضه لهم، لأنه عز وجل يكره المفسدين في الأرض ولذلك ذیل هذا المقام بقوله الكريم: ﴿والله لا يحب المفسدين﴾.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى اليهود بقبائح الصفات التي يتصفون بها ، مما يقتضي أنهم يستحقون كل أنواع الذم ، وما بينه عز وجل من تهجين طريقتهم الداعية إلى تنفير كل ذي عقل من ولايتهم ، بين في هذا المقام أنهم لو تابوا إلى الله لتاب الله عليهم ، لأنه عز وجل جواد كريم واسع المغفرة ، وأن الإيمان يجُبُّ ما كان قبله ، فلو آمن أهل الكتاب وخافوا ربهم لجمع لهم سعادتي الدنيا والآخرة ، فكفر عنهم سيئاتهم التي اقترفوا ولو كانت مثل زبد البحر وأسكنهم جنات النعيم ، كما أنه عز وجل يفيض عليهم من بركات السماء والأرض حتى يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وفي هذا لفت انتباه للدعاة إلى الله عز وجل ألا تحملهم معاصي الناس وعظائم جرائمهم على ترك دعوتهم ، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وقد سلك الله عز وجل في دعوتهم إليه طريق الترهيب والترغيب ليتأسى بذلك الدعاة إلى الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ * لَحَثُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَإِقَامَةِ شَرعِ اللَّهِ بِوَعْدِهِمْ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ وَزَجْرِهِمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْإِخْلَالَ بِذَلِكَ يَفْضِي إِلَى حَرَمَانِهِمْ مِنْ نَعِيمِ

العاجلة والآجلة ، وفي ذلك تنبيه على أن ما يصيبهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جنایاتهم ومعاصيهم لا لقصور في فیض الكریم الجواد الذي لا تنفذ خزائنه ، إذ یداه مبسوطتان سحّاء اللیل والنهار، ینفق كيف يشاء ، والمراد بالكتاب في هذا المقام : هو الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل ، قال أبو السعود العمادي : وإنما ذُکروا بذلك العنوان تأكيداً للتشنيع ، فإن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به ، وإقامتهم له لا محالة ، فكفرهم به ، وعدم إقامتهم له ، وهم أهله ، أقبح من كل قبيح ، وأشنع من كل شنيع اهـ والترغيب في الإيمان والتقوى بالوعد على ذلك بسعادة الدارين هو منهج رشيد في الدعوة إلى الله عز وجل ، وهو الوعد الحق ، الملائم لسنن الفطرة ، الصالح لجميع أهل الأعصار وسائر الأمصار ، لا يشذ عن ذلك إلا شاذ مختل الفكر والفطرة . وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكریم أن الإيمان والتقوى والاستقامة على الطريقة الشرعية يجلب رغد العیش والأمن والاستقرار في الدنيا ويثول بصاحبه إلى جنات الفردوس في الدار الآخرة ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ هو كناية عن كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض والذي يأتيهم من كل مكان حتى يصير عيشهم رغداً ، وحياتهم هنيئة طيبة كما قال عز وجل : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخْبِتَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ

مثلا قرية كانت آمنه مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴿ وقوله عز وجل : ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي من أهل الكتاب جماعة مقتصدة أي سالكة سواء السبيل ، ملتزمة بالحق ، مؤمنة بما أنزل الله من كتاب مبتعدة عن منهج الغلو والإفراط كما أنها مبتعدة عن منهج التفريط والتقصير، فلا تقول على الله إلا الحق ولا تفرق بين الله ورسله ولا تؤمن ببعض كتب الله وتكفر ببعضها ، وعلى رأس هؤلاء الصالحين عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وقوله عز وجل : ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب سيئة أعمالهم قبيح سلوكهم فهم إما غالون مُفْرِطون كمن يدعي أن العزيز ابن الله ، ومن يدعي أن المسيح ابن الله ، وإما مقصرون مُفْرِطون كمن يدعي أن المسيح لغير رِشْدَةٍ ، ويقول على مريم بهتاناً عظيماً . وقوله عز وجل : ﴿يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، والله يَعِصُوكَ من النَّاسِ﴾ هذا تثبت لفؤاد رسول الله ﷺ ، وأن أعداءه مهما كثروا ، ومهما أعلن من معائبهم وسوء سلوكهم الذي أمره الله عز وجل بإعلانه فإنهم لن يتمكنوا منه ﷺ ، لأن الله عز وجل يعصمه منهم ويكفيه شرهم ، ويرد كيدهم إلى نحورهم ، قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، والله يَعِصُوكَ من النَّاسِ ، إِنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ قال أبو جعفر : وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص تعالى ذكره قصصهم في هذه السورة ، وذكر فيها معائبهم ، وخبث أديانهم ، واجترأهم على ربهم ، وتوثنهم على أنبيائهم ، وتبديلهم كتابه ، وتحريفهم إياه ، ورداءة مطاعهم ومآكلهم ، وسائر المشركين غيرهم ما أنزل عليه فيهم من معائبهم ، والإزراء

عليهم ، والتقصير بهم ، والتهجين لهم ، وما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، وألا يشعر نفسه حذراً منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله ، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه ، وألا يتقي أحداً في ذات الله ، فإن الله تعالى ذكره كافيه كل أحد من خلقه ، ودافع عنه مكروه كل من يبغى مكروهه ، وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم فهو في تركه تبليغ ذلك - وإن قل ما لم يبلغ منه - فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلغ من تنزيله شيئاً . اهـ ولا شك أن صيانة الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ من أعدائه ودفع شرورهم عنه معجزة ظاهرة وآية باهرة قاهرة ، فقد كانوا يتعاهدون ويتعاقدون في مكة على قتله ﷺ فإذا مرّ بهم طأطأوا رؤوسهم كأن عليها الطير ، فقد قال محمد بن إسحاق : حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال : قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشrafهم يوماً في الحَجْر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سَفَه أحلامنا ، وشتَم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ . قال : ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنها على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ،

حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا . قال : فانصرف رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله ﷺ : نعم ، أنا الذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه ، قال : فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط اهـ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي إن الله عز وجل لا يسدد ولا يؤيد ولا يوفق إلى الرشd من حاد عن طريق الحق ، وجار عن قصد السبيل وجحد ما أنزل الله من كتاب أو ما أرسل من رسول . وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ دليل ظاهر على مروق من ادعى أن محمدا ﷺ كتم شيئا من القرآن ، وأن من ادعى ذلك فقد افترى الكذب على رسول الله ﷺ ، وقد روى البخاري في التفسير من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية . وأخرجه في كتاب التوحيد من صحيحه عن مسروق عن عائشة قالت : من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ وأورده مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا

الرسولُ بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَغْتَ رسالَتَهُ ﴿١٠٠﴾ اهـ وقد شهدت له أُمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة في أعظم المحافل عند خطبته في حجة الوداع عندما قال : أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ.
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ
مِنْهُمْ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حث الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على الإيمان والتقوى ووعدهم
إن استجابوا لذلك بتكفير سيئاتهم مهما عظمت، وإدخالهم جنات النعيم
مع ما يعجله لهم من طيبات الحياة الدنيا، وأثنى عز وجل على الذين سارعوا
إلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب، وأمر رسوله محمدا ﷺ أن
يبلغ ما أنزل إليه من ربه لأهل الكتاب وغيرهم وألا يخشى في الله لومة لائم،
وطمأنه بأنه عز وجل يعصمه من الناس ويكلؤه برعايته، ويصونه من كيد
أعدائه، وفي هذا من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ أمام أعدائه من كل لون
وجنس ومذهب ما ينطبق عليه قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
بعد ذلك كله أمر نبيه ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب معلناً لهم
أنهم لن يكونوا على خير أبداً حتى يدينوا بكل كتاب أنزله الله عز وجل، ولن
ينفعهم أبداً دعواهم أنهم يؤمنون ببعض كتب الله ماداموا قد كفروا ببعضها،
علماً بأنها جميعاً تدعو إلى كلمة سواء وهي إخلاص العبادة لله وحده والبراءة
من الشرك، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وأن يؤمنوا بما أنزل

الله من كتاب وبما أرسل من رسول ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، ولا شك أن هذا القول لأهل الكتاب يشق عليهم جدا لكن رسول الله ﷺ لن يتوانى في إبلاغهم ما أمره الله عز وجل أن يبلغهم إياه ، وقد نفى الله عز وجل عن أهل الكتاب في هذا الخطاب كل شيء يمكن لأحد أن يعتد به من الدين ، والعرب تقول : هذا ليس بشيء إذا أرادت تحقيره وتصغير شأنه وعدم الاعتداد به حتى صار لا يليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه ، ووضوح فساده ، ففي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما قد بلغ الغاية من ذلك . وقوله عز وجل هنا : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ تأكيد لما تقدم قبل هذه الآية بثلاث آيات ، وقد كرره عز وجل بلفظه لبيان شدة غلوهم في العناد والمكابرة ، وللفت الانتباه إلى انتكاس فطرتهم ، وانقلاب الموازين عندهم مما يؤكد لمن عنده أدنى مسكة من عقل أنهم ليسوا على شيء وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي فلا تحزن يا محمد ولا تتأسف بسبب استمرار هؤلاء المنتكسين على كفرهم وجحودهم ، فإن غائلة كفرهم إنما تعود عليهم ، وليس عليك إلا البلاغ المبين ، وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هو لتحقيق وتأكيد أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله ، وأن سائر أهل الملل والنحل ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله وعلى رأسهم شيخ المرسلين محمد ﷺ الذي أتم الله به الدين وأكمل به النعمة والرسالة . وقد تقدم شبيهه في قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ

واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١﴾ وقد ذكرت في تفسيرها أن هذه قاعدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، فأمن بجميع النبيين وصدق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي قضى الله بأنه بعد بعثته لن يدخل الجنة أحد إلا من طريقه واتباع منهجه وسنته والعمل بشريعته ، وذكرت أن قوله عز وجل : ﴿٢﴾ إن الذين آمنوا ﴾ يعني المسلمين من أمة محمد ﷺ وأن معنى ﴿الذين هادوا﴾ أي صاروا يهودا وأن النصارى هم المدعون أنهم على دين المسيح منسوبون إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام فإنها يقال لها الناصرة ويقال لها : نصرانة ، والصابئون هم عبدة النجوم والكواكب والملائكة ، وقد كان العرب يطلقون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخر ، حتى كانوا يلقبون أفضل الخلق بعد الأنبياء أصحاب محمد ﷺ بالصباة ، ويسمون خاتم المرسلين : الصابئ لأنه ﷺ خالف دينهم . وقوله تبارك وتعالى في هذه الآية : ﴿٣﴾ والصابئون ﴾ بالرفع وقد كان نسق الكلام أن يقال : والصابئين بالنصب عطفا على اسم إن ، لأن عادة العرب إذا أرادوا لفت الانتباه إلى شيء غيروا إعرابه ولم يجعلوه على نسق ما قبله أو بعده ، ونظير ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿٤﴾ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿٥﴾ لَكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الآية وقد سقت الأدلة الواضحة من كلام العرب على ذلك في تفسير الآية الثانية والستين بعد المائة من سورة النساء ، وكما أشرت إلى ذلك في تفسير الآية

السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فرّيقاً كذّبوا وفرّيقاً يقتلّون﴾ تشنيع على بني إسرائيل ببيان أن القاعدة عندهم مع أنبياء الله ورسله ليست اتباع الحق من حيث إنه حق ، بل مدار قبولهم للحق أو رده هو شهوات أنفسهم وأهواؤها ، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهون كذبوه ، وربما قتلوه ، ولا يقبلون من الحق الذي يجيء به الأنبياء والمرسلون سوى ما يشتهونه وتميل إليه أنفسهم التي جبلت على حب العلو في الأرض بغير الحق واتباع الشهوات ، وهذا أقصى ما توصف به النفس الإنسانية من الذم وأقبح أخلاق بني آدم ، وفيه تسلية ومواساة لرسول الله ﷺ ، وقد تقدم مزيد بيان لذلك في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وحقّينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريمَ البيناتِ وآيّدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرّيقاً كذبتم وفرّيقاً تقتلّون﴾ وفي قوله عز وجل هنا : ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ الآية مزيد بيان لما ندد الله عز وجل به في هذه السورة من نقض بني إسرائيل للعهود والمواثيق ، وفي ذلك تحذير شديد للمؤمنين من نقض العهود والمواثيق التي افتتح الله عز وجل هذه السورة الكريمة بأمر المؤمنين بالوفاء بها حيث قال في مطلع هذه السورة : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية : اعلم أن المقصود ببيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله ، وهو متعلق بما افتتح الله به هذه السورة ، وهو قوله : ﴿أوفوا بالعقود﴾ فقال : ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم ، والله بصير بما يعملون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : يقول

تعالى : وظن هؤلاء الإسرائيليون - الذين وصف الله تعالى ذكره صفتهم : أنه أخذ ميثاقهم ، وأنه أرسل إليهم رسلا ، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا ، وقتلوا فريقا - أن لا يكون من الله لهم ابتلاء واختبار بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ يقول : فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم ، من إخلاص عبادتي ، والانتهاء إلى أمري ونهيي ، والعمل بطاعتي ، بحسبانهم ذلك وظنهم ، ﴿وَصَمُوا﴾ عنه - ثم تبت عليهم ، يقول : ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصي وخلاف أمري ، والعمل بما أكرهه منهم ، إلى العمل بما أحبه ، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي ، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ كثير منهم ﴿يقول : ثم عموا أيضا عن الحق والوفاء بميثاقي الذي أخذته عليهم : من العمل بطاعتي ، والانتهاء إلى أمري ، واجتناب معاصي﴾ ﴿وَصَمُوا﴾ كثير منهم ﴿يقول : عمى كثير من هؤلاء الذين كنت أخذت ميثاقهم من بني إسرائيل باتباع رسلي والعمل بما أنزلت إليهم من كتبي - عن الحق وصموا بعد توبتي عليهم ، واستنقاضي إياهم من الهلكة -﴾ والله بصير بما يعملون ﴿يقول : ﴿بصير﴾ فيرى أعمالهم خيرا وشرها ، فيجازيهم يوم القيامة بجميعها ، إن خيرا فخييرا ، وإن شرا فشرًا . اهـ وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ برفع نون تكون ، وقرأ الباقون بنصب نون تكون ، وفي هاتين القراءتين لفت انتباه إلى فقه الكلمات العربية وأسرارها حيث إن قراءة الرفع موجهة إلى أَنَّ أَنْ مخففة من الثقيلة والتقدير : أنه لا تكون فتنة ، وقراءة النصب موجهة على أنها أن الناصبة للفعل ، قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في تفسيره : قال أبو علي : الأفعال ثلاثة : فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحو العلم واليقين ، وفعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار ، وفعل يجذب إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى ، فما كان معناه

العلم وقعت بعده أَنَّ الثَّقیلة ، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره كقوله :
 ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وما كان على
 غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو وقعت بعده أن
 الخفيفة كقوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقْبِلَا حَدُودَ اللَّهِ﴾ ، ﴿تَخَافُونَ أَنَّ يَتَخَطَّفَكُمُ
 النَّاسُ﴾ ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُزْهِقَهُمَا﴾ ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ وما كان متردداً بين
 الحالين مثل : حسبت وظننت ، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم ، وتارة بمنزلة
 أرجو وأطمع ، وكلتا القراءتين في ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قد جاء بها
 التنزيل ، فمثل مذهب من نصب ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ
 نَجْعَلَهُمْ﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ
 النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ ومثل مذهب من رفع ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ﴾ ﴿أَمْ
 يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ اهـ والله أعلم بأسرار كتابه .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ نَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .﴾

بعد ما ذكره الله تبارك وتعالى من ترهيب أهل الكتاب وترغيبهم ، وما أمر به نبيه ﷺ من إبلاغ ما أنزل إليه من ربه ، وألا يخاف في الله لومة لائم مؤكدا له أنه يعصمه من الناس ويحفظه من كيدهم وشورهم ، وأمره بعد ذلك أن يعلن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ويؤمن أن بني إسرائيل إنما ينقادون لهوى أنفسهم وشهواتها ، وقد كان لليهود النصيب الأكبر في هذه القبائح ، شرع هنا في تفصيل بعض قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة وغلوهم في المسيح ابن مريم عليه السلام ، وقد افتتح عز وجل هذا المقام هنا بأن أقسم تبارك وتعالى على كفر من قال : إن الله هو المسيح ابن مريم مبينا أن المسيح عليه السلام إنما أمر بني إسرائيل أن يعبدوا الله ربه وربهم ، وأنذرهم بأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في الآية السابعة عشرة من هذه السورة الكريمة : أي أقسم أن من ادعى أن المسيح

عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام، وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وقد كرر الله تبارك وتعالى في هذه الآية وهي الثانية والسبعون من سورة المائدة نفس هذا القسم بحروفه تبشيعاً لجريمة من يدعي أن الله هو المسيح ابن مريم، وتنفيراً من الوقوع فيه، وتحذيراً من ولاية مدعيه، وقد أوضحت في تفسير الآية السابعة عشرة من هذه السورة أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمي نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم. ولاشك أن إعلان كفر من ادعى أن المسيح إله معجزة لرسول الله ﷺ لأن المعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فمن أين للأُمِّي هذا العلم الذي يُجابه به هذه المقالة الذائعة الشائعة ويشرح به للنصارى أساس ضلالهم وسبب انحرافهم، وأخبارهم لا يزالون يقرأون في كتب العهد القديم والجديد ما يؤيد أن رسل الله صلى الله عليه وسلم قد جاءوا بوجوب توحيد الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ هذه جملة حالية من فاعل قالوا بتقدير قد، وهذه الجملة الحالية قد سبقت لتأكيد فساد قول من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم بالتنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم حيث ذكر لهم المسيح أنه عبد مربوب لله سيده وسيدهم ومالكه ومالكهم ومدبر أمره ومدبر أمورهم المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء

الحسنى والصفات العلى ، وأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ، وسيصلى نارا تلظى ، تكون مأواه ومرجعه ومصيره ومسكنه الدائم الذي لا يخرج منه ولا يتحول عنه مادام قد مات على شركه وكفره ، ولن يجد يوم القيامة شفيعا يشفع له ولا نصيرا ينصره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي أقسم أن من ادعى أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر قد خلع ربة الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر وألقى نفسه في الهاوية وهو قمين بأن يوصف بأنه ليس على شيء . والمراد من قولهم : ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي إن الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة ، وهذه مقالة طائفة من النصارى حيث جعلوا عيسى وأمه إلهين وأن الله عز وجل إله ثالث أي أحد ثلاثة آلهة ، أو واحد من ثلاثة آلهة ، كما وبخهم عز وجل على ذلك بقوله تبارك وتعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب﴾ وقد قال بعض النصارى إن الله جوهر واحد مكون من ثلاثة أقانيم قال الفخر الرزاي : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل ، فإن الثلاثة لا تكون واحدا ، والواحد لا يكون ثلاثة ، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى اهـ والعرب إذا قالوا لشيء : هو ثالث ثلاثة وأرادوا أنه واحد منهم وأنه بعض الثلاثة فلا يجعلونه إلا مضافا ويقولون : ثالث ثلاثة بدون تنوين لفظ ثالث ، أما إذا أرادوا أنه ليس واحدا منهم فإنهم حيثئذ يقولون : هذا ثالث اثنين بالإضافة ويقولون : هذا ثالث اثنين بالتنوين بمعنى : هذا ثلث اثنين أي صيرهما ثلاثة بنفسه ، أو يقولون : هذا ثالث ثلاثة بالتنوين ونصب ثلاثة ، ولا تجوز حيثئذ الإضافة لأنهم لم يريدوا أنه بعض الثلاثة ، ولا شك أنه ما من شيئين في الوجود إلا والله عز وجل ثالثهما

بعلمه كما قال عز وجل : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ وعلى هذا المعنى يحمل قول رسول الله ﷺ : قال الله تعالى أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فقد قال أبو داود في باب الشركة من سننه : حدثنا محمد بن سليمان المصيصي ثنا محمد بن الزبرقان عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال : إن الله يقول : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما . اهـ
 ورجال هذا السند كلهم ثقات ، ومحمد بن الزبرقان من رجال البخاري ومسلم وأبو حيان التيمي هو يحيى بن سعيد بن حيان التيمي الكوفي من رجال الشيخين كذلك وأبوه سعيد بن حيان وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ هو تحقيق لحقيقة الألوهية بإثباتها لله وحده لا شريك له ونفيها عن جميع ما سواه بأدق عبارة وأكمل بيان على طريق النفي والإثبات بأسلوب هو نص في الاستغراق حيث نفى الإلهية عما سوى الله عز وجل وساقه بنكرة منفية مسبوقة بمن وقد أطبق علماء أصول الفقه على أن النكرة إذا جاءت منفية مسبوقة بمن فهي نص في استغراق جميع أفرادها ثم أثبت الألوهية لله وحده لا شريك له ، وقوله عز وجل : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ترهيب لمن قالوا إن الله ثالث ثلاثة بتأكيد أن من استمر على هذه المقالة يعرض نفسه لعقاب أليم موجه ، يعذبه به جبار السموات والأرض ، وكان مقتضى السياق أن يقال : ليمسنهم عذاب أليم لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لتأكيد التنصيص على كفرهم وأن الله لم يظلمهم شيئا ولكنهم هم الظالمون المستحقون للعذاب الشديد بسبب كفرهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ ترغيب لأصحاب هذه المقالة المدعين أن الله ثالث ثلاثة بالرجوع إلى

الحق ، والإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وتحريض لهم على التوبة إلى الله عز وجل وحض لهم على أن يستغفروا الله من هذه المقالة الفاجرة ، وإشارة إلى أن من تاب إلى الله تاب الله عليه مهما كانت معصيته ومهما عظمت جريمته ، كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ شرح لحقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام وبيان لمنزلة أمه ، ونفي لألوهية المسيح وأمّه بالدليل المحسوس الملموس وأن عيسى عليه السلام إنما هو رسول من رسل الله عليهم السلام ، وهو بشر مثلهم ، قد أجرى الله تبارك وتعالى على يده ما شاء الله أن يجريه من الآيات حيث كان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ، كما أجرى الله عز وجل على أيدي من سبقه من المرسلين ما شاء الله أن يجريه على أيديهم من الآيات كما جعل عصا موسى حية تسعى ، وفلق له البحر لما ضربه بعصاه وغير ذلك من الآيات وكناقة صالح التي أخرجها له من الصخر في آيات كثيرة مشابهة لما أجراه على يد عيسى عليه السلام ، ووالدة عيسى لم تكن سوى صديقة أي تسارع إلى تصديق الله فيما يحييها من الخبر عنه بطريق كتبه ورسله كما قال عز وجل في حق مريم : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ ﴾ ووجه الاستدلال على بطلان الألوهية عيسى وأمّه بقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ أي إنها كانا محتاجين إلى الطعام ، والإله الحق هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء ، فكيف يعقل أن يكون إلها ، كما أن قوله عز وجل : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ برهان على أنه ليس بإله ، لأن من كان له أم ، فقد حدث بعد أن لم يكن ، وقد تضمنت سورة

الإخلاص بيان صفة الإله الحق حيث يقول عز وجل : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *
اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿انظر
كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ تعجيب من حال من لم ينزجر
عن ادعاء الألوهية لهما بعد هذا البيان الشافي الكافي .

قال تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُم خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

بعد أن أقام عز وجل الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن عيسى عليه السلام رسول من رسل الله كسائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام وقد أقسم عز وجل على كفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم وعلى كفر من قال : إن الله ثالث ثلاثة ، وبين المذهب الحق في المسيح عليه السلام وأمه الصديقة مريم العذراء البتول رضي الله عنها شرع هنا في توبيخ وتبكيك من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار مشيراً إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعباده ضراً ولا نفعاً وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم ، وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين ، واتباع أهواء الضالين وفي ذلك يقول : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر : وهذا أيضاً احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قيلهم فيه قبل ، يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة من النصارى ، الزاعمين أن المسيح ربهم ، والقائلين إن الله ثالث

ثلاثة = أتعبدون سوى الله الذي يملك ضرکم ونفعکم ، وهو الذي خلقکم ورزقکم ، وهو يحييکم ويميتکم = شيئاً لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله ، والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن ، لا يملك لهم ضراً يدفعه عنهم إن أحله الله بهم ، ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم ، يقول تعالى ذكره : فكيف يكون رباً وإلهاً من كانت هذه صفته؟ بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء ، والقادر على كل شيء ، فإياه فاعبدوا ، وأخلصوا له العبادة ، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون ، وأما قوله : ﴿والله هو السميع العليم﴾ فإنه يعني تعالى ذكره بذلك : ﴿والله هو السميع﴾ لاستغفارهم لو استغفروه من قليلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح ، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه — ﴿العليم﴾ بتوبتهم لو تابوا منه ، وبغير ذلك من أمورهم اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبينًا له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية ، فقال تعالى : ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم : ﴿أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ، ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد ، لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ بيان لسبب ضلال الكثير من الناس وهو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين ، والغلو هو مجاوزة الحد والإطراء وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي

دينكم ﴿ في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة النساء أن المخاطب بهذا الخطاب أولاً وبالذات هم النصارى الذين غلبوا في المسيح وجعلوه إلهاً وابن إله وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، وإنما جاء الخطاب عاماً لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزيز هو ابن الله سبحانه أن يكون له ولد ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر : سمعت النبي ﷺ يقول : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده . فقولوا عبد الله ورسوله . قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلّوا في دينكم غير الحق ﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود ثم تكلم ثانياً على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها ، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلّوا في دينكم غير الحق ﴾ والغلو نقيض التقصير ، ومعناه الخروج عن الحد ، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط ، وبين الله بين الغلو والتقصير ، وقوله : ﴿ غير الحق ﴾ صفة المصدر أي لا تغلّوا في دينكم غلّوا غير الحق ، أي غلّوا باطلاً ، لأن الغلو في الدين نوعان : غلو حق وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيد ، وغلّوا باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلّوا في دينكم غير الحق ﴾ الآية أي لا تتجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتهم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿ وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال اهـ وفي قوله عز

وجل : ﴿ لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلّوا كثيرا وضلّوا عن سواء السبيل . ﴾ تحذير من الغلو في الدين ومن اتباع أهواء الضالين المضلين ، وقد أكد الله تبارك وتعالى ضلال شيوخ هؤلاء المنحرفين حيث وصف مذاهبهم بأنها أهواء وأنهم قد انغمسوا في الضلال قديما ، وبأنهم أضلوا كثيرا من الناس وأبعدوهم عن مناهج المرسلين ، وبأنهم قد انحرفوا عن طريق الرشاد ومنهج السعادة والاستقامة والسداد . والأهواء جمع هوى وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الشرع لم يذكر الهوى إلا مقرونا بالذم كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ وكقوله : ﴿ أفرأيت من اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقامَ ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ كانوا لا يتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ تَرَى كثيرا منهم يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ تقرير للمنافقين الذين يوالون أعداء الله وأعداء المرسلين بزيادة تأكيد سوء سلوك الكثير من بني إسرائيل حتى استحقوا أن يلعنوا على لسان رسولين كريمين من رسل بني إسرائيل وهما داود وعيسى عليهما السلام ، وبيان للسبب الذي لعنوا من أجله ، وهو

أنهم عصاة معتدون لا يتناهون عن منكر وقع بينهم ، ولا يغارون إذا انتهكت
حرمات الله ، ومن كان هذا سلوكه فبئس هذا السلوك ، ومع بشاعة هذه
الجرائم الصادرة عنهم المسببة للعنهم فإنهم يتولون أولياء الشيطان وعباد
الأوثان من المشركين ، ويعادون أولياء الرحمن وأهل القرآن ، فهل يحتاج من
عنده أدنى مسكة من عقل إلى دليل على اعوجاجهم وانحرافهم أوضح من
هذا الدليل ؟ وقد استحقوا بسلوكهم هذا غضب الله وسخطه ومقته ، وجلبوا
لأنفسهم الخلود في نار الجحيم ، ومن كان صادقاً في دعوى الإيمان بالله
ورسوله وكتابه لن يتخذ المشركين الوثنيين الذين لا يتمون لكتاب ولا يؤمنون
برسول أولياء فكيف يليق بعاقل أن يتولى من يوالي الوثنيين ويعادي
الموحدين ؟ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه عباده في هذا المقام الكريم من
كتابه العظيم إلى أمور منها : أن الإنسان بعمله لا ينسبه حيث إن بني
إسرائيل وهم من سلالة الأنبياء العظام إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد كفر
منهم من كفر ، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في غير موضع من كتابه
الكريم حيث يقول في حق خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وباركنا عليه وعلى
إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ولقد
أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير
منهم فاسقون ﴾ ومنها : أنه إذا فشت المعاصي في قوم ولم يتناهوا عن المنكر
حلت عليهم لعنة الله ، ومنها : سوء سلوك الكثير من بني إسرائيل في
ماضيهم وحاضرهم ففي الماضي لعنهم داود ثم عيسى عليهما السلام ، وفي
الحاضر يبصر من له بصر سوء سلوكهم حيث يتولون الوثنيين أولياء الشيطان
ويعادون المسلمين عباد الرحمن حيث يقول عز وجل في هذا المقام : ﴿ ترى
كثيراً منهم يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه

ما اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . ﴿٢٣٧﴾ نَسْأَلُ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ بِأَسْمَائِهِ
الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يَسْلِكَ بِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ ، وَأَنْ يُخْتَمَ لَنَا بِخَاتَمَةِ
السَّعَادَةِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ رءُوفٌ رَحِيمٌ . وَبِهَذَا تَمَّ تَفْسِيرُ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَنشَأَهُمُ اللَّهُ بِيَأْ قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾ .

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار وأشار إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك له عابديه ضرا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين شرع هنا في تأكيد ما انطوت عليه نفوس اليهود والمشركين والنصارى نحو المسلمين وأن أشد الناس على الإطلاق عداوة للمؤمنين هم اليهود وأن الوثنيين الذين لم يتبعوا كتابا ولم ينقادوا لرسول من رسل الله صلى الله عليه وسلم يشاركون اليهود في نفس هذه الدرجة من العداوة للذين آمنوا ، وأن النصارى هم أقرب الطوائف الثلاث لينا وأملا في قبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وأقل تعنتاً ، والمقصود من ذلك رسم الطريق للدعاة إلى الله عز وجل بتعريفهم بنفوس المدعويين حتى يكونوا على بصيرة فيما يستقبلونه في دعوة هؤلاء الطوائف ، ولا شك أن معرفة الداعية بنفوس المدعويين له أثر كبير في أسباب نجاح الدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
 نَصَارَى ﴿١﴾ أَيِ إِن قَصِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ أَشَدَّ النَّاسَ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ،
 وَتَتَبِعْتَ أَحْوَالَ الطَّوَائِفِ طُرًّا ، وَأَحْطَتْ بِمَا لَدَيْهِمْ خَبْرًا ، وَاجْتَهَدْتَ فِي تَعْرِفِ
 أَحْوَالِهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ، وَسَعَيْتَ فِي تَطْلُبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْبَارِزَةِ
 وَالْكَامِنَةِ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسَ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ
 النَّصَارَى أَقْرَبَ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَشْرِكِينَ قَبُولًا لِلْحَقِّ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِينَ
 اسْتَجَابُوا لِلْإِسْلَامِ مِنَ النَّصَارَى كَانُوا أَكْثَرَ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَشْرِكِينَ بِكَثِيرٍ . وَلَيْسَ
 هَذَا مَدْحًا لِلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى مِنْ حَيْثُ كُونَهُمْ نَصَارَى وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ
 اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَادَامُوا يَقُولُونَ : إِنْ اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَالْمَعْلُومُ أَنَّ
 الْمَدْحَ فِي الْجُمْلَةِ لَا يَقْتَضِي كَوْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَدْحًا ، بَلْ
 إِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْمَدْحُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنْهُمْ ، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى ذَلِكَ
 حَيْثُ يَقُولُ فِي بَيَانِ سَبَبِ كَوْنِ النَّصَارَى أَقْرَبَ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ
 مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرَهْبَانَيْنِ إِذْ سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
 الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا
 مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرَهْبَانَيْنِ﴾
 لَيْسَ ثَنَاءً عَلَى كُلِّ قَسِيٍّ أَوْ رَاهِبٍ ، وَلَيْسَ مَدْحًا لِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ ، إِنَّمَا الثَّنَاءُ
 عَلَى مَنْ كَانَ قَسِيًّا أَوْ رَاهِبًا ثُمَّ عَرَفَ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
 دِينُ الْإِسْلَامِ وَأَنَّ مَنْ يَبْتَغِي غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ فَسَارِعَ إِلَى الدَّخُولِ
 فِي الْإِسْلَامِ وَاسْتَمْسَكَ بِشَرَائِعِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يُوَصَّفُ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ بَعْدَ
 الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ قَسِيٍّ أَوْ رَاهِبٍ ، كَمَا لَا يُوَصَّفُ الْيَهُودِيُّ أَوْ
 النَّصْرَانِيُّ إِذَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ، وَالْقَسِيْسُ وَالْقُسُّ
 وَالْقِسُّ وَالْقُسُّ هُوَ رَئِيسُ النَّصَارَى فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ تَتَبَعَ

الشيء وطلبه ، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتبعن النائم :
يصبحن عن قس الأذى غوافلا

ويقال : تقسست أصواتهم بالليل أي تسمعتها . والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء ، وقد ابتدع النصارى الترهب ، وشددوا على أنفسهم فيه كما قال عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع أي لم نفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهدا منهم في طلب مرضاة الله ، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وابت ، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين ، ويأمر بالرفق وبالتيسير . وقد ثبت أن النجاشي لما سمع القرآن من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكى وفاضت عينه من الدمع حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية : حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلددين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه . ثم سلاه

أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجنا حتى قدما على
 النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقه بطريق
 إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد
 ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في
 دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك
 فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن
 يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا
 عليهم، فقالوا لها: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما،
 ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء،
 فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين، ابتدعوه لا نعرفه
 نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم
 وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم
 وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو
 ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقه حوله:
 صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم
 إليهما فليردهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا
 ها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادني
 واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم،
 فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على
 غير ذلك منعتهم منهما وأحسن جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى
 أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال
 بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا،
 وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا — وقد دعا

النجاشي أسأفته فنشروا مصاحفهم حوله — سأهم فقال لهم : ما هذا الدين
 الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه
 الملل ؟ قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له : أيها الملك ،
 كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع
 الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى
 بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله
 لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا
 بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن
 المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف
 المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشارك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة
 والزكاة والصيام — قالت : فعدد عليه أمور الإسلام — فصدقناه وآمنا به ،
 واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشارك به شيئا ، وحرمنا
 ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن
 ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من
 الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى
 بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها
 الملك ، قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟
 قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، قالت : فقرأ
 عليه صدراً من : ﴿ كهيعص ﴾ قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت
 لحيته ، وبكت أسأفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا
 عليهم ، ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة
 واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون . إلخ الحديث .
 وبكاء النجاشي وأسأفته لما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ مما تُفسر به هذه

الآيات وإن كانت هذه الآيات مدنية وقصة النجاشي وأساقفته كانت قبل
الهجرة إذ لا مانع يمنع من صدقها عليهم ووصفها لحالهم وحال أمثالهم ممن
أشار الله عز وجل إليهم في كتابه الكريم حيث يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
من قبله إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ
وعد ربنا لمفعولا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ ومعنى قوله
تبارك وتعالى : ﴿ وَمَالْنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا
ربنا مع القوم الصالحين ﴾ أي وأي شيء يحول بيننا وبين الإقرار بوحداية الله
وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ من القرآن ونرجو أن يحشرنا ربنا يوم القيامة مع
الصالحين ويلحق منازلنا بمنزلهم في الفردوس الأعلى ، ومعنى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ
الله بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ
* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي فجزاهم الله
ياحسنهم في أقوالهم وأفعالهم جنات تجري من تحتها الأنهار لا يخرجون منها
ولا يتحولون عنها لأن هذا هو جزاء المحسنين . أما من كفروا بالله وكذبوا
بآياته فهم أصحاب النار المخلدون فيها الملازمون لها ، جزاء كفرهم
وتكذيبهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل أن من النصارى قسيسين ورهبانا استجابوا لله ولرسوله محمد ﷺ وأنهم بكوا وفاضت أعينهم من الدمع عند سماع القرآن مما عرفوا من الحق وأنهم ضرعوا إلى الله عز وجل أن يكتبهم في الصالحين وأن يحشرهم في زمرة أمة محمد ﷺ وأن الله تبارك وتعالى استجاب دعاءهم، ووعدهم جنات النعيم، وتوعد الكافرين بملازمة عذاب الجحيم، نبه المؤمنين في هذا المقام وحذرهم من التنطع في الدين والتشبه بالقسيسين والرهبان الذين حرّموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله عز وجل لهم من المطاعم والمشارب وسائر الملذات المباحة، فانحرفوا عن فطرة الله التي فطر عليها الناس، وانقطعوا وعجزوا، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أنه حق من عند الله ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني بـ «الطيبات» اللذيزات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرّموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضهم أنفسهم، وساح في

الأرض بعضهم ، يقول تعالى ذكره : فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك ، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده ، فتخالفوا بذلك طاعته ، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه ، فيما أحل لهم وحرم عليهم اهـ وقد أراد بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يعتزلوا النساء وأكل اللحم وأن يتركوا الطيب فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فقد روى البخاري في صحيحه من طريق حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقد أخرجه مسلم من طريق ثابت عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنا ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم

وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني، ثم ساق ابن كثير رحمه الله بعض الآثار المرسلة ثم قال: ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك والله الحمد والمنة اهـ والظاهر أن نسبة حديث الصحيحين هنا إلى عائشة رضي الله عنها وهم لأنه من رواية أنس رضي الله عنه فيها لا من رواية عائشة رضي الله عنها، والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ تنفير من التشبه بالذين كفروا من بني إسرائيل الذين لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم الذين وصف الله عز وجل سوء أفعالهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وبيان أن من حرم على نفسه ما أحله الله له، أو حلل ما حرم الله عليه معتد أثيم مستحق لغضب الله ومقته وسخطه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُّوا مما رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ زيادة تأكيد لتجنب الرهبانية، وتحريض على التمتع بما ساقه الله عز وجل للمسلم من الرزق الحلال الطيب، وتحذير من تناول الحرام الخبيث، وتذليل الآية بقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوقوف عند حدود الله وتحذير من الاعتداء عليها فإن الإيمان بالله عز وجل يوجب المبالغة في التقوى والانتهاز عما نهى الله عز وجل عنه. هذا ولما كان المسلم قد يسبق منه أن يحرم على نفسه شيئاً مما أحله الله عز وجل له لعارض من العوارض التي قد تعتريه فيحلف أنه لن يتناول هذا الشيء الذي حرمه على نفسه ولا يقصد من ذلك اعتنا وتنطعا وتشددا واعتداء على حدود الله كما فعل الذين كفروا من بني إسرائيل ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، أعقب الله تبارك وتعالى نهيه عن تحريم ما أحل الله ببيان أنه عز وجل قد فرض للمسلمين تحلة أيامهم ورفع عنهم الحرج والإصر

والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أنه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعاما معينا صار هذا الطعام محرما عليه طول عمره ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يصير حراما، بل له أن يفعله ويكفر عن يمينه، وما لم يكن واجبا فعليه إذا حلف عليه لم يصير واجبا عليه، بل له أن يكفر يمينه ولا يفعله، ولو غلظ في اليمين بأي شيء غلظها، فأيمان الحالفين لا تغير شرائع الدين وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه ما لم يوجبه الله، هذا هو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرم الرجل شيئا حرم عليه، وإذا حلف ليفعلن شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارة، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ فإسرائيل حرم على نفسه شيئا فحرم عليه، وقال الله تعالى لنبينا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يَأْخُذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ

أهليكم أو كَسَوْهُمْ أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيانكم إذا حَلَفْتُمْ، واحفظوا أيانكم، كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴿ وهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضعفاً فيضرب به ولا يحث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضغث. اهـ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حلیم ﴾ أن الأيمان بالنسبة للمحلوف به تنقسم إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحوال فهو محذور أبداً وهو الحلف بغير الله وذكرت أدلة تحريمه وأنه شرك وكفر، أما القسم الثاني من أقسام اليمين بالنسبة للمحلوف به فهو الحلف بالله عز وجل بذاته المقدسة أو باسم من أسمائه الحسنی أو بصفة من صفاته العلی، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: يمين اللغو والثاني اليمين المنعقدة والثالث: اليمين الغموس، وعرفت هناك كل قسم من هذه الأقسام وبينت حكمه، وذكرت أن اليمين الغموس قد تسمى اليمين الصبر، واليمين الفاجرة واليمين الكاذبة واليمين الزور، وقد أوضح الله تبارك وتعالى هنا كفارة اليمين المنعقدة حيث قال: ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيانكم إذا حلفتم ﴾ فمن حلف على يمين فرأى أن يرجع عنها وأن يكفر عن يمينه فليفعل، وكفارته أن يطعم عشرة مساكين من أوسط طعام أهله أو يكسوهم أو يعتق رقبة فأی واحدة من هذه الثلاث فعل أجزأه ذلك وصار مكفراً عن يمينه فإن عجز الذي لزمته الكفارة عن ذلك وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام، وقوله عز وجل: ﴿ واحفظوا أيانكم ﴾ أي لا تضيعوا أيمانكم، بل صونوها وأدوا ما

يجب عليكم فيها ولا تنهاونوا بها ، وقوله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ أي مثل ذلك البيان البديع المحكم يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه لتشكروا الله عز وجل على ما تفضل به عليكم حيث منحكم ديناً قوياً غير ذي عوج ، وجعلكم على ملة سمحة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . ﴿

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله ، وحذرهم من التنطع في الدين ، ونهى عن مشابهة الرهبان والقسيسين الذين حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم ، وأشعرهم أن تحريم الطيبات اعتداء على حق الله تعالى وحده الذي له أن يحلل ويحرم ، وأشار إلى أنه عز وجل قد وسع على أمة محمد ﷺ إذ فرض لمن حرم على نفسه شيئا من الطيبات وحلف على ألا يقربها أن يكفر عن يمينه بخلاف ما كان على الأمم السابقة الذين كانوا إذا حرم أحدهم شيئا وحلف على ذلك صار هذا الشيء محرماً عليه طول عمره ولم يشرع لهم الكفارة ليعرف المؤمنون بمحمد ﷺ فضل الله عليهم ويشكروه على ما يسره لهم من الشريعة السمحة الكاملة الصالحة لأهل كل عصر ومصر إلى يوم القيامة ، شرع هنا ينهى المؤمنين عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ويوضح لهم الآثار السيئة المترتبة على اقتراف هذه المحرمات حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز

وجل : ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أنه لما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليسلم وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له : أين تذهب ؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ ، فقالوا : لا تصل إليه ، فإنه يأمرك بالصلاة ، فقال : إن خدمة الرب واجبة ، فقالوا : إنه يأمرك بإعطاء المال للفقراء ، فقال : إن اصطناع المعروف واجب ، فقالوا له : إنه ينهى عن الزنى ، فقال : هو فحش وقبيح في العقل ، وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه ، فقليل له : إنه ينهى عن شرب الخمر ، فقال : أما هذا فإني لا أصبر عليه ، فرجع وقال : أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه ، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه ، فمات فلم يصل إلى منزله ، فكان من حكمة العليم الخبير التدرج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار ، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدد آلاءه ونعمه على خلقه ، ويذكرهم بآياته وآثار قدرته ، فقال في سورة النحل : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ ففي هذا إيحاء إلى التنديد باتخاذ المسكر من ثمر النخيل والعنب بجعله خمرًا ، حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم : تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا ، ولا شك أن هذا الأسلوب في لفت انتباه النفس إلى التوقف عن شرب الخمر في الدرجة العليا من أساليب التربية والتعليم والتحذير ، قال في القاموس المحيط : والسكر محركة الخمر اهـ أما الطور الثاني فكان في هذا المقام الكريم من سورة البقرة حيث يقول : ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾

وبعد أن بيّنت معنى الخمر والميسر ذكرت أن الطور الثالث من أطوار تشريع
تحريم الخمر هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصلاة حيث يقول عز
وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا
تَقُولُونَ﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقاً
حيث يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ
وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ * إنما يريد
الشيطان أن يُوقِعَ بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي
والنسائي من طريق أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شفاءً
فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾
الآية، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً
شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا
يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكْرَانٌ، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في
الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر:
انتهينا، وقد صحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقد قرن الله
تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة المائدة بين الخمر والميسر والأنصاب
والأزلام وحكم عليها جميعاً بأنها رجس من عمل الشيطان للتنفير الشديد من
الخمر والميسر وتفضيع تعاطيها حيث ربطهما مع عبادة الأوثان التي هي أكبر
الكبائر وأفحش الجرائم برباط واحد وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الخمر
والميسر في هذه الآية بألوان من فنون التأكيد حيث صدرت بنداء أهل الإيمان
المقتضي للانزجار عنهما وقرناً بالأنصاب والأزلام وسماهما رجساً من عمل

الشیطان الذی لا یعمل إلا الشر ولا یأمر إلا بالفحشاء والمنکر وأمر باجتنبهما المقتضی للابتعاد عنهما، وأشار إلى أن تعاطیهما یورث الخیة والخسران وأن الابتعاد عنهما من أعظم أسباب الفلاح، وقد حصر الخمر والمیسر فی النجاسة وفی کونها من عمل الشیطان مؤكداً ذلك بإنهما مما یجعلهما شراً بحتاً لا خیر فیهما بوجه من الوجوه، ثم أضاف إلى ذلك بیان بعض مفسدیهما الدینیة والدنیویة حیث قال: ﴿إنما یرید الشیطان أن یوقع بینکم العداوة والبغضاء فی الخمر والمیسر ویصدکم عن ذکر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فقد أكد العلیم الحکیم الخیر أن الخمر والمیسر یورث کل واحد منهما لمن یتعاطونه العداوة والبغضاء ویصدهم عن ذکر الله وعن الصلاة. وهذا أمر مشاهد ملموس محسوس، فإن الخمر أم الخبائث تجعل صاحبها یلعن نفسه ویلعن أباه وأمه وقد یلقی بأحب الناس إلیه فی التنور، وکم حدث بسببها من شجار، وکم أوصلت من یتعاطاها إلى الخزی والحسرة والندامة والعار والشنار. وأما المیسر وهو القمار فکم خرب من دار، وکم أجلس صاحبه محزوناً مسلوب الأهل والمال ممتلئاً بالحقد والبغض لرفقاء السوء من مقامریه الأشرار، فله الحمد والشکر علی نعمة الإسلام الذی أرشد الله به العباد إلى سبل السلام. وفی قوله تبارک وتعالی: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ تأکید للنهی عن قربان الخمر والمیسر، وإیراده بصیغة الاستفهام مرتباً علی ما تقدم من أصناف الصوارف عنهما بالفاء إیداناً بأن الأمر فی الزجر والتحذیر وكشف ما فیهما من المفسد والشرور والقبائح قد بلغ الغایة القصوى وأن الأعذار قد انقطعت بالکلیة وأصبح من له أدنى مسکة من عقل یعرف أنها شر بحت ونجس صرف، وتخصیص الصلاة بعطفها علی ذکر الله مع أنها من جملة أفراد الذکر للتنبیة علی عظیم فضلها وهی ولا شک عماد الدین. وقوله تبارک وتعالی: ﴿وأطیعوا الله وأطیعوا الرسول واحذروا،

فإن توليتم فاعلموا أنها على رسولنا البلاغ المبين ﴿١﴾ تأكيد وحض على امتثال أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ والانقياد لجميع تعاليم الإسلام وتحذير شديد من مخالفة تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ فإن تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا تأمر إلا بخير ولا تنهى إلا عن شر، وتهديد عظيم لمن أعرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بأنه يعرض نفسه لعقاب الله لأن الحجة قد قامت عليه، وانتهى عذره، وانقطعت علته، لأن رسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأقام الحجة وليس على الرسول إلا البلاغ المبين، وليست قلوب العباد بيده ولا سيطرة له عليها. وقد صح الخبر أن ناسا لما سمعوا ما ذكر الله عز وجل هنا عن الخمر والميسر خافوا على من كان يشرب الخمر ويأكل من الميسر ومات أو استشهد قبل التحريم فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ والله يحب المحسنين ﴿٢﴾ لتأكيد رفع الحرج عنهم لأنهم لم يطعموا شيئا من ذلك بعد التحريم، وقد كانوا وقافين عند حدود الله مؤتمرين بأمر الله وأمر رسوله ﷺ أي لا جناح ولا حرج ولا إثم على مؤمن يعمل الصالحات إذا طعم شيئا من الخمر أو الميسر أو غيرها قبل أن ينزل تحريمه مادام لم يطعمه بعد التحريم وكان مجتنباً للمحظورات مستمرا على الإيمان وعمل الصالحات ثم خاف الله عز وجل في اجتنابه محارمه فثبت على اتقاء الله في ذلك والإيمان به ولم يغير ولم يبدل، ثم اتقى وأحسن، أي ثم خاف الله وراقبه كأنه يراه فكان بذلك محسنا، إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله يحب المحسنين.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَذِيًّا بَالِغِ الْكُعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لَّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .﴾

قد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين في أول آية من هذه السورة المباركة إلى تحريم الصيد على المحرمين بحج أو عمرة، حيث قال عز وجل : ﴿غير محلي الصيد وأنتم حُرْمٌ﴾ ، وأذن لهم في الآية الثانية منها أن يصيدوا بعد التحلل من الإحرام حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ وبعد أن حذر عز وجل أشد التحذير من الخمر والميسر، وبيّن أضرارهما الدينية والدنيوية، وأعلن أنه لا جناح على من قارفهما قبل نزول تحريمهما لأنه لم يجترأ على حرمة الله، وأثنى على المؤمنين الوقافين عند حدود الله عز وجل، الذين يراقبون الله تبارك وتعالى في أفعالهم، ووصفهم بالإحسان، وبشروهم بأنه عز وجل يحبهم، شرع هنا في تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من قتل الصيد وهم محرمون بحج أو عمرة أو حالة كونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنه سيختبرهم بشيء من الصيد وهم محرمون يقترب منهم حتى يستطيع المحرم أن يأخذه بيده أو يصيبه برمح فمّن خاف الله عز وجل لن يتعرض لهذا الصيد بأذى مادام محرماً، وهذا الامتحان والاختبار شبيه بما اختبر الله عز وجل به بني إسرائيل الذي قصه الله عز وجل عن أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر إذ ابتلاهم وامتنحهم، فكانت الحيتان ترفع رؤوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها - والصيد

محرم عليهم يوم السبت - فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، فاحتالوا على صيدها بوسائل، كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر، فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت، فجعلهم الله قردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث خرجوا عام الحديبية يريدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تناله أيديهم ورماحهم، فخافوا الله عز وجل وعصمهم تبارك وتعالى من تناوله، وحامهم من معصيته ومخالفة أمره، ولا شك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على خوف أصحاب رسول الله ﷺ من ربهم، وأنهم أهل لأن يشرفهم الله بصحبة أفضل خلقه محمد ﷺ وأن يكونوا أفضل أتباع الأنبياء على الإطلاق، كما أنه لا شك أن من احترس من اقتراف المحرم تحريما مؤقتا كان أبعد خلق الله عن اقتراف المحرمات على التأييد ولاسيما الخمر والميسر، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلُونَكُمْ اللَّهُ بَشْيءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يا معشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ ليختبرنكم الله تبارك وتعالى بشيء من الصيد أي ببعض الصيد المحرم عليكم اصطياده وأنتم محرمون يسقط عليكم ويغشاكم هذا الصيد البري في رحالكم حيث تصيرون متمكنين من صيده بواسطة أيديكم أو بواسطة رماحكم ليميز المطيع من العاصي وليبرز في عالم الوجود ما كان معلوما لله عز وجل قبل الخلق والتكوين من طاعة المطيع ومعصية العاصي ويظهر من يخاف الله عز وجل ويراقبه في الغيب والشهادة ويتسم بالإحسان الذي يحبه الله عز وجل، وأما من اعتدى على حرمت الله بعد هذا الإعلام والبيان والإنذار فإنه

يستحق العقاب الموجه المؤلم . ثم شرع تبارك وتعالى في تأكيد تحريم قتل الصيد على من كان محرماً ، وبيان الجزاء المرتب على المحرم إذا قتل الصيد ، والتحذير الشديد من معاودة ارتكاب هذا المحذور حيث يقول عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمَّدًا فجزاءٌ مثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عفا الله عما سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ ومعنى : ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرْمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة وكذلك وأنتم داخلون في الحرم . وقوله عز وجل : ﴿ومن قتل منكم متعمدا فجزاءٌ مثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ الآية . أي ومن قتل منكم وهو محرم أو في الحرم صيدا وقد قتلته متعمدا قتلته قاصدا إزهاق روحه ، فعليه جزاء فإذا كان لهذا الصيد نظيرٌ من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ألزم بتقديم قربان مثله من بهيمة الأنعام يذبح في مكة ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وقد قضى أصحاب رسول الله ﷺ وحكموا في النعامة بيدنة أي ناقة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وفي الضبع بكبش وقد روى أبو داود وابن ماجه والدارمي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ عن الضبع قال : هو صيد ويجعل فيه كبش إذا صاده المحرم اهـ أما إذا كان الصيد الذي قتلته المحرم لا مثيل له من بهيمة الأنعام فعلى من أصابه أن يتصدق بقيمته وسواء في ذلك من قتل الصيد وهو محرم عمدا أو ناسيا لإحرامه ، وقد فسروا قوله تعالى : ﴿فمن قتل منكم متعمدا﴾ أي قاصدا قتلته يعني ولو كان ناسيا لإحرامه . قال الإمام محيي السنة البغوي في تفسيره المسمى «معالم التنزيل» في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿يحكم به ذَوَا عدل منكم﴾ أي يحكم بالجزاء رجلان عدلان ، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى

أشبه الأشياء به من النعم، فيحكمان به، وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم حكموا في بلدان مختلفة، وأزمان شتى بالمثل من النعم، فحكم حاكمهم في النعمة بيدنة وهي لا تساوي بدنة، وفي حمار الوحش ببقرة وهي لا تساوي بقرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تساوي كبشا، فدل أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبيهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شاة، وهي كل ما عُبَّ وهدر من الطير كالفاخنة والقُمريّ والدُّبسيّ، وروى عن عمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكة بشاة، أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد نا أبو إسحاق الهاشمي نا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى في الضبع بكبش، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ بيانٌ للواجب على من قتل صيدا وهو محرم ولم يجد مثيلا لهذا الصيد فإنه يخير قاتله بين أن يشتري بقيمته طعاما فيطعمه للمساكين لكل مسكين نصف صاع أو أن يصوم عن كل نصف صاع يوما ليكون عدل الطعام، ولا بد أن يكون الحكمان اللذان يحكمان في جزاء الصيد من أهل الخبرة والدراية مع وجوب عدالتهما. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي قضى الله تبارك وتعالى بهذا الجزاء أو الكفارة على من قتل الصيد وهو محرم ليحس بفداحة جريته وليرتدع عن أن يعود لارتكاب هذا المحذور. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: أوجبت على قاتل الصيد محرماً ما أوجبت من الجزاء والكفارة الذي ذكرت في هذه الآية، كي يذوق وبال أمره وعذابه، يعني بأمره: ذنبه وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه

الله عز وجل عن قتله في حال إحرامه ، يقول : فألزمته الكفارة التي ألزمته
 إياها لأذيقه عقوبة ذنبه بإلزامه الغرامة والعمل ببدنه مما يتعبه ويشق عليه ،
 وأصل الوبال : الشدة في المكروه ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ
 الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۖ ﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
 سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۖ ﴾ إخبار من الله عز
 وجل بعفوه وتجاوزه عمن قتل صيدا وهو محرم قبل نزول هذا التحريم لدفع ما
 قد يحوك في نفوس هؤلاء الذين فعلوا ذلك من الوسواس ، كما طمأن المسلمين
 لما خافوا على من مات وهو يشرب الخمر قبل نزول تحريمها على نفي الجناح
 عليهم في قوله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ
 فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾ الآية . ثم حذر عز وجل أشد التحذير من
 ارتكاب جريمة قتل الصيد في حالة الإحرام وهدد من استمر على ارتكاب
 هذه الجريمة بعد النهي عنها بأنه يعرض نفسه لعقوبة الله العزيز ذي الانتقام
 ولفظ «عاد» قد يأتي بمعنى : استمر ومنه قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي
 وإن يستمروا على كفرهم فقد عرفوا ما أوقع الله تبارك وتعالى بالأمم الماضية
 المكذبة الكافرة . فالعود يستعمل في الرجوع إلى الشيء كما يستعمل في
 الاستمرار على الشيء والمضي فيه .

قال تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ.﴾

بعد أن نهى الله عز وجل وتعالى عن قتل الصيد لمن كان محرماً وأوجب على من قتل الصيد وهو محرم جزاء المثل يحكم به اثنان ذوا عدل من أهل الخبرة من المسلمين أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال أمره، بين هنا أن الذي يحرم قتله على المحرم هو صيد البر وأن صيد البحر حلال للمحرمين وأكد تحريم صيد البر حيث يقول عز وجل : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي وأبيح لكم أن تصيدوا ما شئتم من الحيوانات البحرية وأن تأكلوا من لحومها وتتزودوا منها سواء كنتم محرمين أو محلين بلاغاً ومنفعة وتوسعة من الله عز وجل عليكم مقيمين ومسافرين طرياً وقديداً. والمراد بصيد البحر: ما لا يعيش إلا في الماء ويفرخ ويبيض فيه من السمك وسائر أنواع الحيتان، والمراد بالبحر: الماء مطلقاً سواء كان عذباً فراتاً أو ملحاً أجاجاً، وسواء كان الماء جارياً أو راكداً، والمراد بالسيارة: القافلة المسافرون، فالسيارة جمع سيار وهو الكثير السير في السفر، وهذا امتنان من الله تبارك وتعالى بما يسره على عباده المؤمنين حيث أباح لهم صيد البحر فلهم أن يصيدوه ولهم أن يقتلوه وأن يأكلوه بلا حرج عليهم ولا عقوبة تلحقهم، بخلاف صيد البر فإنه لا يحل لهم أن يقتلوه وأوجب على من قتله جزاء أو كفارة وتوعد بالعقاب والانتقام

ممن يتعدى على صيد البر وهو محرم كما تقدم في الآية السابقة ، ولذلك أكد
 هنا تحريم صيد البر قتلا أو أكلا حيث يقول عز وجل : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
 الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ بخلاف صيد البحر فقد أحل لهم أن يصيدوه وأن
 يأكلوه ، وقد أذن رسول الله ﷺ للمحرم أن يأكل من صيد البر إذا لم يصده
 هو ولم يكن قد أعان عليه من صاده أو دله عليه أو أشار إليه أو قد صيد من
 أجله ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن
 رسول الله ﷺ خرج حاجا ، فخرجوا معه ، فصرف طائفة منهم ، فيهم أبو
 قتادة ، فقال : خذوا ساحل البحر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحل البحر ، فلما
 انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبا قتادة لم يحرم ، فبينما هم يسرون إذ رأوا حمر
 وحش ، فحمل أبو قتادة على الحمر ، فعقر منها أتاناً ، فنزلوا فأكلوا من
 لحمها ، وقالوا : أنأكل لحم صيد ونحن محرمون ؟ فحملنا ما بقى من لحم
 الأتان ، فلما أتوا رسول الله ﷺ ، قالوا : يا رسول الله إنا كنا أحرمتنا ، وقد كان
 أبو قتادة لم يحرم ، فرأينا حمر وحش ، فحمل عليها أبو قتادة ، فعقر منها
 أتاناً ، فنزلنا فأكلنا من لحمها ، ثم قلنا : أنأكل لحم صيد ونحن محرمون ؟
 فحملنا ما بقى من لحمها ، قال : أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها ؟ أو أشار
 إليها ؟ قالوا : لا . قال : فكلوا ما بقى من لحمها . اهـ وقوله في هذا الحديث
 (خرج حاجا) أراد الحج اللغوي وهو قصد البيت والإحرام على سبيل التوسع
 في اللفظ لأنه لا شك أن هذه القصة كانت عام الحديبية كما جاء في بعض
 ألفاظ الصحيحين وكان النبي ﷺ قد خرج معتمرا فإطلاق الحج على العمرة
 جاء على سبيل التوسع وهو صحيح في اللغة . وقوله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ . ترغيب في طاعة الله وترهيب من معصيته بتذكير عباده
 وتنبههم بأن مردهم إلى الله وأنهم مجموعون بين يديه يوم القيامة ليجزي الذين
 أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى قال ابن جرير رحمه الله :

القول في تأويل قوله : ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدّم من الله تعالى ذكره إلى خلقه بالحدّ من عقابه على معاصيه ، يقول تعالى ذكره : واخشوا الله أيها الناس واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ من النهي عن الخمر والميسر والأنصب والأزلام وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم ، وفي غيرها ، فإن الله مصيركم ومرجعكم ، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس والشهرَ الحرامَ والهدي والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ قال الفخر الرازي : اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها هو أن الله تعالى حرم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم ، فبيّن أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير ، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة اهـ وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة النساء أنه جعل الأموال قياماً للناس حيث يقول عز وجل : ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ كما بين عز وجل هنا أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ، للإشارة إلى أن قيام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم لا بد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يقوم أرواحهم ، والمال الذي يقوم أبدانهم ، ولا شك أن تعظيم البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد من أعظم أسباب الطمأنينة والأمن لأهل القرى ولقاصدي البيت الحرام من جميع جهات الأرض ، وقد أكد الله تبارك وتعالى على وجوب تعظيم شعائره وحرماته ، وأن ذلك يجلب الخير والسعادة لمن يعظم هذه الشعائر والحرّمات حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ذلك ومن يُعظّم حرّماتِ الله فهو خير له عند ربه﴾ ويقول :

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ وقد صدر الله سورة المائدة بتنبية المؤمنين إلى تحريم شعائر الله وتعظيمها مما يأمن به الوحش والطير والإنسان ونص في ذلك على تحريم الصيد على المحرمين وتحريم انتهاك شعائر الله ومناسك الحج والشهر الحرام والهدي والقلائد والآمين البيت الحرام حيث قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مَحْلِيِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا،﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية الثانية من هذه السورة المباركة المراد بالشهر الحرام والهدي والقلائد، وقد سقت في تفسيرها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقال : أي شهر هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال : أليس ذا الحجة قلنا : بلى. قال : أي بلد هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس البلدة؟ قلنا : بلى، قال : فأَيُّ يوم هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال : أليس يوم النحر؟ قلنا : بلى، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم، قال : اللهم اشهد فليبلغ الشاهد

الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع . وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الله تبارك وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس وصيانة لدينهم وسلامة لأبدانهم وحماية لدمائهم وأعراضهم وأمواهم ، وقد ألقى الله تبارك وتعالى في نفوس الناس حتى أيام الجاهلية تعظيم الكعبة البيت الحرام حتى كرر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم امتنانه بذلك على أهل مكة ومن حولها حيث يقول : ﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى معك نُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ، أو لم نمكن لهم حَرَمًا أَمَّا يُجِيبُ إِلَيْهِ ثمرات كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ أو لم يروا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذلك لتعلموا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . اعلموا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ما على الرسول إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . ﴾ أي صيرت لكم أيها الناس الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد كي تعلموا أن من شرع لكم هذا الشرع القويم مما به قوامكم ومصالح دينكم ودنياكم علما منه بمنافعكم ومضاركم أنه كذلك يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو محصيها عليكم ومجازيكم بها وأيقنوا أنه عز وجل شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه ، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأتاب إليه رحيم بعباده المؤمنين ، وليس على الرسول إِلَّا الْبَلَاغُ ، لا سيطرة له على قلوب الناس ، والله عز وجل وحده هو الذي يعلم ما أعلنتم وما أخفيتم ، وهذا التأكيد العظيم على علم الله تبارك وتعالى لتربية ملكة الخوف من الله تبارك وتعالى في نفوس عباده ، فإن من تربت فيه ملكة الخوف من الله وقف عند حدوده واثم بأوامره وانزجر عن معاصيه ، وصار من المحسنين .

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

بعد أن نبه تبارك وتعالى الناس إلى أنه لا قوام لهم إلا بدين الله ، فمن استمسك بالدين طابت له الدنيا وفاز في الآخرة، ومن كفر بالدين لم تطب له الدنيا ولم يسعد في الآخرة شرع هنا في الحض على الاستمسك بشريعة الله وإن قل المستمسكون بها، والتنفير من الانحراف عن الهدى وإن كثر المنحرفون عنه فأمر نبيه وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ أن يلفت انتباه من قد يغتر بكثرة الطالحين وقلة الصالحين بأن الخبيث والطيب لا يستويان، فمن كان له عقل وإدراك لحقائق الأشياء أيقن أن الرشد في سلوك الصراط المستقيم وأن الغواية اتباع المنحرفين فليس المحسن كالسيء كما قال عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ﴾ وفي ذلك يقول عز وجل هنا: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ والكاف في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ لمن يوجه رسول الله ﷺ له الخطاب ممن قد يغتر بكثرة المنحرفين فيستدل بكثرتهم على صحة مذهبهم، وليس المخاطب بها رسول الله ﷺ لأنه صلوات الله وسلامه عليه لا يعجبه كثرة الخبيث، ومما يؤكد أن الخطاب في قوله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ ليس لرسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال بعدها مباشرة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي فراقبوا ربكم في جميع أعمالكم، واحذروا عقابه، واثمروا بأمره، وانتهوا عما نهاكم عنه يا ذوي العقول وتجنبوا الحرام مهما كان واقنعوا بالحلal واكتفوا به

لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة، وأيقنوا أن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا، فلو تصدق إنسان بقنطار من مال حرام فإنه — مهما أعجب من يراه — فإنه لا يساوي عند الله جناح بعوضة، ولا يعدل من تصدق بنصف تمرة من مال طيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل. وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصله، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصله حتى تكون مثل الجبل أو أعظم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. قد سأله قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿تعليم للمؤمنين وتربية لهم على أحسن مناهج السلوك عند الاستفسار وطلب ما يحتاجون إلى معرفته من العلم،

وتعريف لهم بأداب السؤال ، وتحذير لهم من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يثير أسئلة لا حاجة له فيها ولا فائدة من سؤالها ، وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين ، وترهيب من أن يكون السؤال سببا لحرمان المسلمين من خير أو جلب المشقة عليهم ، أو أن يعود بالعاقبة السيئة على السائلين ، والخطاب وإن كان موجها للمؤمنين فإنه ردع لغيرهم على حد قول القائل : إياك أعني واسمعي يا جارة ، لأن المؤمنين لا يسألون رسول الله ﷺ استهزاء أبدا ، ولا يتأتى من مؤمن ذلك بحال من الأحوال ، وقد صحت الأخبار التي تؤكد أن هذه الآية الكريمة تشمل هذه الصور كلها حتى قيل في كثير من هذه الصور : إن هذه الآية نزلت فيها ، فقد روى البخاري في التفسير في باب قوله : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ من طريق موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : فلان ، فنزلت هذه الآية : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ثم ساق البخاري من طريق أبي الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ حتى فرغ من الآية كلها . وأخرج البخاري في كتاب الفتن من صحيحه في باب التعوذ من الفتن من طريق قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : سألو النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة ، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال : لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم ، فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان إذا لاحى

يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا بني الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط، قال قتادة: يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبَدَّ لكم تسؤكم﴾ وأخرج البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه في باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبَدَّ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن النبي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته، وقد أخرج مسلم هذا الحديث من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته. ثم ساق مسلم من طريق موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: عرضت عليّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه. قال: غطوا رؤوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان، فتزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبَدَّ لكم تسؤكم﴾ ثم ساقه مسلم من طريق ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أمورا عظيماً. الحديث، وفيه: فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك

حذافة . ثم قال مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعت بابن قط أعق منك ، أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟ قال عبد الله بن حذافة : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تنبيه للمسلمين إلى الاحتراز من كثرة الأسئلة بعد رسول الله ﷺ لما تحدّثه من بلبلة أفكار المسلمين ، أما في حياة رسول الله ﷺ فإن من يسأل عن شيء فإن الوحي قد ينزل بجوابه وبيانه وقد يكون في هذا البيان تضيق عليكم ، لأن الله عز وجل قد فرض لكم فرائض وحدد حدودًا وحرم أشياء وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل : فقال : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ تحذير مما وقع فيه بعض أمم الأنبياء السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء ، فإذا جاءتهم انتكسوا وكفروا بها .

قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يسأل أسئلة لا فائدة من سؤاها وقد يريد بها الاستهزاء بالمستول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين ، ورهبهم من الوقوع فيما وقع فيه بعض من كفر من الأمم السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء فإذا جاءتهم كفروا بها وازدادوا ضللا لا شرع هنا في توبيخ الكفار الذين يسلكون سبيل آبائهم الجاهلين حيث سلكوا في عبادتهم سبلا لم يشرعها الله فاتخذوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي التي لم يشرعها الله ، حيث يقول عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ما شرع الله عز وجل البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامي ولكن الجاهلين الجاحدين يخلقون على الله ديناً لم يشرعه ، وينسبون إلى الله ما لم يقله ، وأكثرهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا . ولفظ ﴿ جعل ﴾ يجيء في اللغة العربية لمعان كثيرة ، فتأتي ﴿ جعل ﴾ بمعنى شرع كقوله عز وجل هنا ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ أي ما شرع الله عز وجل ذلك ، وتأتي بمعنى بين كقوله عز وجل : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وتأتي بمعنى خلق كقوله عز وجل : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ وتأتي بمعنى التشریف كقوله عز

وجل : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ﴾ وتأتي لمعان غير هذه المعاني كما نص على ذلك أئمة اللغة . قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : قال الأزهري : قال أبو إسحاق النحوي : أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت إذا تُنْجَت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرا بحروا أذنها أي شقوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تُحْلَأُ عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المعبي المنقطع به لم يركبها ، وجاء في الحديث : أن أول من بحر البحائر وحمل الحامي وغير دين إسماعيل عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ بن جُنْدُب اهـ وقوله : قمعة بن جندب خطأ وصوابه : قمعة بن خندف كما في البخاري ومسلم ، فقد روى البخاري في المناقب في باب قصة خزاعة من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة ، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال : سمعت سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحملها أحد من الناس ، والسائبة التي كانوا يسيبونها لأهتهم فلا يحمل عليها شيء قال : وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار ، وكان أول من سيب السوائب . وأخرج البخاري في تفسير هذه الآية من سورة المائدة من طريق الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب . وأخرج في صحيحه من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار . ثم أخرج مسلم من طريق ابن شهاب قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحملها أحد من الناس ، وأما السائبة التي كانوا يسيبونها لأهتهم فلا يحمل

عليها شيء، وقال ابن المسيب: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السيوب اهـ وعمرو بن لحي منسوب إلى جده فهو عمرو بن عامر بن لحي، وقومه خزاعة، ويقال لخزاعة بنو كعب نسبة إلى جدّهم، وقد أسند البخاري رحمه الله إلى سعيد بن المسيب رحمه الله قال: والوصيلة الناقة البكر تُبَكِّرُ في أول نتاج الإبل ثم تُثَنِّي بعدُ بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم أن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودَعَوْه للطواغيت وأَعَفَوْه من الحمل فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي، وقال لي أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري: سمعت سعيداً اهـ والمقصود أن أهل الجاهلية كانوا يجعلون لأصنامهم هذه الأنواع من أنعامهم، وقد وبخهم الله تبارك وتعالى على ذلك وبين أنهم منقادون في ذلك للشيطان حيث يقول عز وجل: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا. لَعَنَهُ اللَّهُ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَا مُرَنِّمَ فَلَيُبَسِّكَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ الآية. وكما قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا تأكيد على أن المشركين الجاهلين الذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة وجعلوا الوصيلة والحامي معتدون على دين الله، يقولون الكذب على الله ويشرعون مالم يشرعه الله، فهم في ذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، كل همهم تقليد آبائهم الجاهلين وعلى رأسهم عدو الله

عمرو بن لحي لعنه الله ، قال ابن كثير رحمه الله : وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ، ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم اهـ وقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ينفي العقل عن أكثرهم لأن بعضهم قد عقل أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مفتراة على الله ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلَدَح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إني لست أكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكاراً لذلك وإعظاماً له . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ توبيخ للمشركين على انقيادهم لدين أهل الجاهلية وتسفيه لهم على عنادهم للحق واستعصائهم على من يدعوهم إلى الهدى وشريعة رب العالمين ومبالغتهم في الانقياد للجهلة الضالين الذين لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ، لأن الاقتداء إنما يكون حسناً إذا كان المقتدى به عالماً مهتدياً ، وآباء هؤلاء أشد جهلاً من أنعامهم فكيف يقتدي هؤلاء بهم ويستعصون على سيد المرسلين ورسول رب العالمين ، ومعنى : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي يكفيننا الدين الذي وجدنا عليه آبائنا فلا نحل إلا ما أحلوه ولا نحرم إلا ما حرموه ، ومعنى : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي أينقادون لآبائهم ولو كانوا أجهل من

داوهم؟ وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إعلام لدعاة الهدى بأنهم لا يضرهم ضلال الضالين ماداموا قد أمروهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر وقالوا لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، لأن قلوب العباد ليست بأيدي أحد من خلق الله، وليس على الرسول إلا البلاغ كما أنه ليس على دعاة الهدى سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الخلق إلى الحق، وجزاء الجميع عند الله عز وجل، فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فعليها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونصب ﴿أنفسكم﴾ في قوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ على الإغراء أي احفظوا أنفسكم وصونوها من معصية الله وأسباب سخطه، وناصبها ﴿عليكم﴾ لأنه هنا اسم فعل بمعنى الزموا. وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب من طريق عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: بل اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم

أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين
رجلا يعملون مثل عملكم . الحديث .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِيمِينَ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

بعدما أشار الله تبارك وتعالى إلى ما عليه الدعاة الهداة أتباع محمد رسول الله ﷺ من دعوة الغواية إلى ما أنزل الله وإلى اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وندد باستمساك الضالين بعبادات وعقائد آبائهم الجاهلين ، وطمأن نفوس المؤمنين بأنهم لا يضرهم من ضل مادام المؤمنون يسلكون سبيل الهدى ، وأشار إلى أن المؤمنين والكافرين صائرون إلى الله لا محالة ، منتقلون عن هذه الدنيا مجزيون بأعمالهم ، ساق هنا ثلاث آيات وهي — وإن كانت للتنبيه على دقة أحكام شريعة الإسلام التي تحفظ على الناس دينهم وأموالهم — فهي كذلك لتأكيد رجوع الناس إلى الله وانتقاهم إلى الدار الآخرة ، وللتنبيه على أن الموت نازل بساحتهم لا محالة . وقد أفادت حكما عزيز الوقوع حيث تقبل فيه شهادة غير المسلم على المسلم ، وقد اشترط الله عز وجل في قبول هذه الشهادة ألا يوجد من يؤذيها من المسلمين وأن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، إذ الأصل عدم قبول شهادة غير المسلمين على المسلمين ، وقد نزلت هذه الآيات الثلاث بسبب أن رجلاً من بني سهم خرج في تجارة إلى الشام مع تميم بن أوس الداري وعدي بن بداء وكانا نصرانيين ، فمات السهمي بأرض ليس

فيها مسلم ، وكان عندما أحس بدنو أجله دفع متاعه إلى تميم الداري وعدي
 ابن بداء ووصاهما بإيصال متاعه إلى أهله وكان في هذا المتاع جام من فضة
 مخصوص من ذهب أي إناء من فضة قد نقش فيه صورة الخوص من الذهب .
 وبعد موته وجدا الجام فأعجبهما فأخذهما وباعاه ، فلما قدما بتركته عثر أهله
 على وصيته ، فسألوا تيميا وعدياً عن الجام فأنكراه ، فرفعوهما إلى النبي ﷺ
 فأمرهم أن يستحلفوهما ، فحلفا ، ثم عثر على الجام بمكة فلما سئل الذي هو
 بيده قال : اشتريته من تميم الداري وعدي بن بداء فأنزل الله تبارك وتعالى
 هذه الآيات فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا : لشهادتنا أحق من
 شهادتهما وإنَّ الجام لصاحبهم ، قال البخاري رحمه الله في كتاب الوصايا من
 صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ
 أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ
 ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ
 بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْآ إِذَا
 كُنَّا الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
 الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا
 اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُاتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ
 يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، واتقوا الله واسمعوا ، والله لا يهدي القوم
 الفاسقين ﴿ وقال لي علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن أبي زائدة
 عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن
 عباس رضي الله عنهما قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي
 ابن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جاما
 من فضة مخصوصا من ذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ، ثم وجد الجام بمكة ،
 فقالوا ابتعناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أوليائه فحلفا : لشهادتنا أحق

من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال : وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ ﴾ اهـ وقد أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات المباركة أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة رجلين عدلين من المسلمين فإن كان الموت قد حضره وهو يضرب في الأرض — أي كان في سفر — ولم يكن معه أحد من المؤمنين فليشهد شاهدين ممن حضره من غير المسلمين، فإذا قدما وأدىا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة حيث يجتمع المؤمنون المصلون أنهما ما كذبا وما بدلا، وأن ما شهدا به حق، وأنهما ما كتبا فيه شهادة، حكم بشهادتهما، وهذا كله إذا حصل ارتياب وشك في شهادتهما، فإن عثر وأطلع على أن الشاهدين كذبا وكتما حلف رجلان يكونان من أولى أولياء الموصي ويشهدان بالله أن صاحبهم أوصى بكذا وكذا وأن هذا الذي عثر عليه هو من تركته وأن شهادة هذين الكافرين غير صحيحة وأنهما كذبا وكتما، فإن أدى الوليان الأوليان هذه الشهادة حكم بها الحاكم وغرّم الشاهدان السابقان ما عثر عليه من خيانتها، وقد حدث هذا من تميم الداري عندما كان نصرانيا، ثم أسلم رضي الله عنه وهو أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة بن دارع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن لخم، وقد وفد هو وأخوه نعيم ابن أوس على رسول الله ﷺ فأسلما وأقطعهما رسول الله ﷺ حبري وبيت عينون بالشام وصحب تميم رسول الله ﷺ وغزا معه، وجمع القرآن، وأم بالمسلمين في صلاة القيام في عهد عمر رضي الله عنه، وقد حدث عنه رسول الله ﷺ على المنبر بقصة الجساسة والدجال، وقد سكن تميم الشام بعد مقتل عثمان رضي الله عنهما. والظاهر أن مثل هذه الحادثة لم تتكرر في عصر رسول الله ﷺ لكنها وقعت عندما كان أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه بالكوفة، فقد قال أبو داود في سننه : باب شهادة أهل الذمة وفي الوصية في

السفر، حدثنا زياد بن أيوب ثنا هشيم أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدا الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنما لوصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما. وقد وصف ابن كثير رحمه الله في تفسيره سند هذا الحديث بأنه صحيح، ووصفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري بأن رجاله ثقات. وقد اشتملت هذه الآيات المباركة على صور بلاغية وأساليب بيانية عالية، كقوله عز وجل: ﴿شهادة بينكم﴾ بإضافة الشهادة إلى البين، المشعر بأن هذه الشهادة لوصل ما انقطع، إذ البين يأتي بمعنى الوصل وبمعنى الفرقة. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: البين في كلام العرب جاء على وجهين: يكون البين الفرقة ويكون الوصل اهـ وقد جاء في التنزيل الكريم: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ و أو في قوله عز وجل: ﴿أو آخران من غيركم﴾ ليست للتخير بل هي للتعقيب كأنه قيل: ليشهد اثنان ذوا عدل منكم إن وجدا، فإن لم يوجد فآخران من غيركم أي من غير ملتكم أيها المؤمنون. ومعنى: ﴿لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى﴾ أي يقولان في يمينهما: لا نشترى بقسمنا عوضا نأخذه ولا نريد بيميننا عرضا من أعراض الحياة الدنيا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فصل: الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي بقولنا، ولو كان ذا قربى حذف ضمير كان لظهوره أي ولو كان المشهود له، كما في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وكما في قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا

أو فقيراً ﴿أي المشهود عليه﴾، ونحو ذلك لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مزورة بلا عوض — ولو مدح — أو اتخاذاً يد. وآفة الشهادة: إما اللَّيُّ وإما الإعراض: الكذب والكتمان، فيحلفان لا نشترى بقولنا ثمناً أي لا نكذب ولا نكتم شهادة الله، أو لا نشترى بعهد الله ثمناً، لأنها كانا مؤتمنين فعليهما عهد بتسليم المال إلى مستحقه، فإن الوصية عهد من العهود. وقوله بعد ذلك: ﴿فإن عُثِرَ على أنها استحقا إثماً﴾ أعم من أن يكون في الشهادة أو الأمانة، وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمانة فإنها استشهدا واثمتنا، لكن اثمتانها ليس خارجاً عن القياس بل حكمه ظاهر فلم يحتج إلى تنزيل، بخلاف استشهداهما، والمعثور على استحقاق الإثم ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما بعد أن وجد ذكرها في الوصية، وسئلاً عنها فأنكرها. اهـ وقوله عز وجل: ﴿الأوليان﴾ أي الأحقان بالشهادة لقربتهما ومعرفتهما، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وارتفع الأوليان بتقدير: هما، كأنه قيل: من الشاهدان؟ فأجيب: الأوليان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيقسم الآخران اللذان يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً بخيانتهم مال الميت، الأوليان باليمين والميت من الخائنين — ﴿لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ يقول: لأيماننا أحق من أيمان المقسمين المستحقين للإثم، وأيمانها الكاذبة — في أنها قد خانا في كذا وكذا من مال ميتنا، وكذا في أيمانها التي حلفا بها — ﴿وما اعتدينا﴾ يقول: وما جاوزنا الحق في أيماننا اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنا إذا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي إنا إن اعتدينا في يميننا لمن الظالمين الواضعين الشيء في غير موضعه المتجاوزين الحق، وقوله عز وجل: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا

بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمان بعد أيمانهم ﴿ لفت انتباه الناس إلى
حكمة التشريع ، ودقة أحكام الشريعة ، وما تثمره في النفس البشرية من
التقويم والردع عن الباطل ، والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ للحكم الذي تقدم
تفصيله ، أي ذلك أدنى وأقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب
الآخرة بسبب العقوبة على اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رءوس
الأشهاد بإبطال أيمانهم . وقوله : ﴿ واتقوا الله واسمعوا ، والله لا يهدي القوم
الفسقين ﴾ أي وخافوا الله أيها الناس وانقادوا لشرعه ، ولا تفسقوا عن أمره ،
لأن الله لا يوفق الفاسقين بل يخذلهم ولا يسددهم ، وإنما يوفق لطاعته عباده
الصالحين المتقادين لشرعه .

قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوَا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بتبليغ الرسالة والقيام بأعبائها، وبين له أنه يحفظه ويصونه ويعصمه من شرور الناس، وقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة على أكمل وجه لا يخشى في الله لومة لائم، وأمر الله تبارك وتعالى المكلفين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حيث قال في الآية الثانية والتسعين من هذه السورة المباركة : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ثم أكد ذلك في الآية الثامنة والتسعين فقال : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وطمأن عز وجل دعا الهدى بأنهم لا يضرهم من ضل ما داموا مستمسكين بالهدى، وأن مرجع جميع العباد إلى الله يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى شرع هنا في خواتيم المسك من هذه السورة الكريمة يذكر بعض المشاهد العظيمة من مشاهد القيامة لتأكيد ما تقرر من أنه ليس على الرسل إلا البلاغ وعلى الله وحده حساب الخلائق حيث يقول عز وجل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوَا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوَا لَا

عَلَّمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ ﴿﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتقوا الله أيها الناس، واسمعوا وعظه إياكم، وتذكيره لكم، واحذروا يوم يجمع الله الرسل، ثم حذف واحذروا، واكتفى بقوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ عن إظهاره، كما قال الراجز:

علفتها تبنًا وماءً باردًا حتى شئت همالة عيناها
يريد: وسقيتها ماء باردا، فاستغنى بقوله: «علفتها تبنًا» من إظهار
«سقيتها» إذ كان السامع إذا سمعه عرف معناه، فكذلك في قوله: ﴿يوم
يجمع الله الرسل﴾ حذف «واحذروا» لعلم السامع معناه، اكتفاءً بقوله:
﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ إذ كان ذلك تحذيرا من أمر الله تعالى ذكره خلقه عقابه
على معاصيه، وأما قوله: ﴿ماذا أجبتم﴾ فإنه يعني به: ما الذي أجابتم به
أحكم حين دعوتهم إلى توحيدى والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتفاء
عن معصيتي، قالوا: لا علم لنا: اهـ والمراد بقوله: لا علم لنا أي نحن لا
نعلم ما غاب عنا من أحوالهم وأسرارهم ولا ندري ما فعلوه بعدنا من تحريف
الدين ومخالفة المرسلين، إذ لا يعلم الغيب إلا الله وحده عز وجل ولذلك
قالوا: إنك أنت علام الغيوب. وقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا
سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن مطرف حدثني أبو حازم عن سهل بن
سعد قال قال النبي ﷺ: إني فرطكم على الحوض، من مر عليّ شرب، ومن
شرب لم يظمأ أبدا، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم،
قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من
سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد
فيها: فأقول إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول:
سحقا سحقا لمن غير بعدي. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة بن
سعيد حدثنا يعقوب (يعني ابن عبد الرحمن القاري) عن أبي حازم قال:

سمعت سهلاً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظماً أبداً ، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلاً يقول ؟ قال : فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي ، وقوله في الحديث : أعرفهم أي يجعل الله عز وجل لأمة محمد ﷺ علامات يعرفون بها يوم القيامة كما جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، هو أشد بياضاً من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه . قالوا : يا رسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم ، تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره المعروف بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ : شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين ، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلاً من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ، ونهاية سوء حال المكذبين بالرسول لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعيت عليهم في السورة الكريمة جنائياتهم ، فتفصيله أعظم عليهم ، وأجلب لحسرتهم وندامتهم وَأَقْتٌ في أعضادهم ، وأدخل في صرفهم

عن غيهم وعنادهم اهـ وقال الفخر الرازي : اعلم أنا بيّنا أن الغرض من قوله تعالى للرسول : ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ توبيخ من تمرد من أمهم ، وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهن ، فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله ، والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهن وركاكة مذهبهم واعتقادهم اهـ والتعبير بالماضي في قوله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة وحكايته حكاية الحال الواقعة ، وهو شبيه بقوله عز وجل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ والتعبير عن المضارع بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه أسلوب بلاغي يُعدل فيه عن مقتضى الظاهر إلى مقتضى الحال كما هو مدون في علم المعاني من علوم البلاغة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي إذ أعتتك وقويتك بالروح المقدسة أي المطهرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقد تقدم نظير هذا المقام في سورة البقرة حيث يقول عز جل : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ في الآية السابعة والثمانين ، وكذلك في الآية الثالثة والخمسين بعد المائتين من سورة

البقرة حيث يقول عز وجل : ﴿وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وقوله تبارك وتعالى في هذا المقام : ﴿تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ تقدم نظيره في الآية السادسة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل : ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ وقد تقدم تفسيره هناك ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية الثامنة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران : ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّبُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تذييل للفت الانتباه إلى آية من آيات الله ونعمة من نعمه العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام بصيانيته من أعدائه اليهود الذين امتلأت قلوبهم بالعداوة لعيسى عليه السلام لما جاءهم بالبينات فصانه الله من شرورهم ، وعصمه من سوء مكرهم ، وحفظه من أن تمتد إليه أيديهم فلم ينالوه إلا بالسنتهم حيث وصفوه بأنه ساحر مبين ، وفي هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وتأكيده لما أخبره الله به حيث قال له في الآية السابعة والستين من هذه السورة : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وتسليية لرسول الله ﷺ من وصف المشركين له بأنه ساحر ، وأن ما جاء به ساحر مبين ببيان أن إخوانه من

المرسلين جوبهوا من أمهم الكافرة بمثل هذه المقالة الفاجرة، كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى في قوله: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِئِينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا
 واشهد بأننا مسلمون . إِذْ قَالَ الْخَوَارِئُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ
 أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ
 نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ .
 قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
 لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قال الله إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ
 فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل ما أيد به عبده ورسوله عيسى عليه السلام من
 الآيات والبراهين المشتملة على النعم الجليلة عليه وعلى أمه المبررة لهما من كل
 سوء المقررة أن عيسى ليس إلهًا ولا ابن إله وإنما هو عبد الله ورسوله وذيل
 ذلك كله بما يقرر أنه صان عيسى عليه السلام من أن تمتد إليه يد أعدائه من
 اليهود مما يثبت به فؤاد رسول الله ﷺ ويؤكد له أن الله عز وجل يعصمه من
 شرور الناس شرع هنا يذكر استجابة الخواريين لعيسى ﷺ ومسارعتهم إلى
 الإيمان به نبيا رسولا للتنبية على فضل السابقين إلى الإيمان بالرسول ، مما تقر به
 نفوس المؤمنين الأولين المستجيبين لرسول الله ﷺ ، حيث يقول عز وجل :
 ﴿وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِئِينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشهد بأننا
 مسلمون﴾ أي وإذ ألهمت الخواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى عليه
 السلام وتأيده ونصرته فسارعوا إلى الإيمان به نبيا رسولا وانقادوا لأمره ، واتبعوا
 ما جاء به من عند الله ، ولم يجعلوه إلهًا ولا ابن إله ، فمعنى : ﴿أوحيت إلى
 الخواريين﴾ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم إذ من معاني الوحي في اللغة
 الإلهام والقذف في القلب ، والخواريون جمع حواري وهو في الأصل الوزير أو
 من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القصاص

لأنه يحور الثياب أي يبيضها ، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وسمي الحواريون لبياض ثيابهم اهـ وقيل حوارى الرجل خاصته ، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر بأن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم ، ولا شك أن الحواريين ليسوا بأنبياء وليسوا بمعصومين من الخطأ ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى عليه السلام : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فخوفهم عيسى عليه السلام من مغبة هذا السؤال ، وأمرهم بتقوى الله عز وجل ، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات ، لأن سنة الله عز وجل قد جرت أن من اقترح على الله آية ، ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، ونبه عيسى عليه السلام الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية ، وأن يعلموا أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى عليه السلام أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها ، وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية ، ويزدادوا علما بأن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ويكونوا عليها من الشاهدين ، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى عليه السلام إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، وقد رأى عيسى عليه السلام أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً وفرحاً ومسرة للمؤمنين في عاجلتهم ، ويتنفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين ، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله هو رب كل شيء وسيد

ومليكه ، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فأخبر الله عز وجل عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة ، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذاباً لم يعذب مثله في شدته أحداً من العالمين ، والمائدة هي الخوان عليه طعام ، فإذا لم يكن على الخوان طعام فإنه لا يسمى مائدة ، والأصل في الخوان أن يتخذ من خشب وينصب على قوائم ، فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات اهـ وإنما كان يأكل على السفرة لأنها عادة العرب ، كما أن الخوان من عادة العجم . وإيراد قصة المائدة للفت الانتباه إلى أن المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين غير معصومين من الخطأ وإبراز صبر الأنبياء والمرسلين في تعاملهم مع أتباعهم من المؤمنين حيث يسوسونهم بالحكمة ، ويصبرون على ما قد يبدر منهم ، ويوجهونهم أحسن توجيه ، ويحذرونهم من المزالق التي قد تردى من انزلق إليها ، ولا شك أن الاعتصام بمنهج الأنبياء والمرسلين هو سبيل النجاة للدنيا والآخرة ، وأن الإنسان مهما أوتي من العقل فلا غنى له بحال عن دين الإسلام الذي هو صراط الله المستقيم . هذا وقد سميت السورة كلها باسم المائدة ، والعيد هو يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع ، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب : قال ابن الأعرابي : سمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد اهـ وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل بدعوى أن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم ، وصريح القرآن شاهد على نزولها حيث يقول عز وجل : ﴿ قال الله إني مُنِّئُهَا عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ فقد أكد الله تبارك وتعالى تنزيلها عليهم

بجملته تأكيدات ، منها أنه قال : ﴿ قال الله إني مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ فأسند القول
 إلى نفسه المقدسة ومنها أنه أكد تنزيلها بأن حيث قال : ﴿ إني مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾
 قال أبو السعود العمادي في قوله : ﴿ نريد أن نأكل منها ﴾ تمهيد عذر وبيان لما
 دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد بالسؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على
 تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيثار والتقوى بل نريد أن
 نأكل منها أي أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ بكمال
 قدرته تعالى وإن كنا مؤمنين به من قبل فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم
 الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿ وَنَعْلَم ﴾ أي علما يقينيا لا
 يحوم حوله شائبة شبهة أصلا اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿ وَآيَةٌ
 مِنْكَ ﴾ فإن معناه : وعلامة وحجة منك يارب على عبادك في وحدانيتك ،
 وفي صدقي على أي رسول إليهم بما أرسلتني به ﴿ وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾
 وأعطنا من عطائك ، فإنك يارب خير من يعطي وأجود من تفضل ، لأنه لا
 يدخل عطاءه مَنْ ولا نكد . . ثم أكد ابن جرير رحمه الله نزول المائدة حيث
 يقول : وبعد فإن الله تعالى ذكره لا يخلف وعده ، ولا يقع في خبره الخلف ،
 وقد قال تعالى ذكره مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله
 من ذلك : ﴿ إني مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وغير جائز أن يقول تعالى ذكره : ﴿ إني مُنَزَّلُهَا
 عَلَيْكُمْ ﴾ ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر ، ولا يكون منه خلاف ما
 يُخبر ، ولو جاز أن يقول ﴿ إني منزها عليكم ﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول
 فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، ثم يكفر
 منهم بعد ذلك فلا يعذبه ، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة ،
 وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى ذكره بذلك اهـ هذا وما نقل عن كثير من
 المفسرين في صفة المائدة المنزلة على عيسى عليه السلام والحواريين ، وفيما
 احتوته هذه المائدة من ألوان الطعام وأسماؤه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح

عن رسول الله ﷺ، قال ابن جرير رحمه الله : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها مأكول، وجائز أن يكون كان سمكا وخبزا وجائز أن يكون ثمرًا من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ أي فمن يمحذ آيات الله ويكفر بها بعد معاينته ما اقترح من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة القاهرة فإني أعاقبه عقوبة ما عاقبت بها غيره من عالمي زمانه، ليكون ذلك نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين، هذا وقد يستعمل العرب المائدة أو الخوان بمعنى السفرة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي إلى النبي ﷺ ضبابا وأقطا ولبنا فوضع الضب على مائدته، فلو كان حراما لم يوضع، وشرب اللبن وأكل الأقط . وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي أم حفيد إلى رسول الله ﷺ سمنا وأقطا وأضبا فأكل من السمن والأقط وترك الضب تقذرا، وأكل على مائدة رسول الله ﷺ ولو كان حراما ما أكل على مائدة رسول الله ﷺ . كما روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ بينما هو عند ميمونة وعنده الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم، فلما أراد النبي ﷺ أن يأكل قالت له ميمونة : إنه لحم ضب، فكف يده، وقال : هذا لحم لم آكله قط، وقال لهم : كلوا، فأكل منه الفضل وخالد ابن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة : لا آكل من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هذا هو المشهد الأخير من مشاهد القيامة التي ذكرها الله عز وجل في خواتيم المسك من سورة المائدة ، وفي هذا المشهد العظيم زيادة تأكيد لما تقرر في المشهد الأول من أن رسل الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمون ما أحدثته أعمهم من بعدهم من تغيير دين الله وعبادة الأصنام والأوثان وسائر صور الشرك بالله ، وأنهم برآء من كل قول أو فعل يناقض دين الإسلام ، وفي سياق هذا المشهد على هذه الصورة تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى وأمه إلهين من دون الله وتقريرهم وتبكيتهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ، وفي ذلك ردع وترهيب من الشرك بالله وترغيب في إخلاص التوحيد لله عز وجل ، وتكذيب للمفترين على الله وعلى رسله ، وفي قوله عز وجل هنا : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بإيراده بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله عز وجل : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ ، والعرب قد يستعملون إذ بمعنى إذا لعلم السامع بالمراد تخفيفا وبلاغة كما في قول أبي النجم :

ثم جزاه الله عنا إذ جرى جنات عدن في العلابي العلا
أي إذا جرى ، وكما في قول أعشى بني نهشل الأسود بن يعفر بن عبد
الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم النهشلي :

فألاّن إذا هازلتهن فإنما يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهباً
أي إذا هازلتهن . وكما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ ﴾ أي
إذا فرغوا . والسؤال في قوله عز وجل لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ليس للاستفهام لأن الله علام
الغيب ، وهو يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل للناس : اتخذوني وأمّي
إلهين من دون الله وإنما المقصود من السؤال هو إعلام عيسى عليه السلام
وتعريفه أن قومه غيروا دينهم بعده وخالفوا عهده ، وقالوا عليه ما لم يقله ،
ليكون ذلك توبيخاً لمن ادعى عليه ذلك وليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في
تكذيبهم ، مع ما في الجواب من تحقيق التوحيد وبطلان الشرك وإبراز أهم
وظائف الأنبياء والمرسلين مع ما اشتمل عليه الجواب من الأدب العالي الذي
أدب الله تبارك وتعالى به رسله المنزهين له عن الند والنظير وعن كل ما لا يليق
به تبارك وتعالى ومعنى قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
بِحَقِّ ﴾ أي تنزيها لك يارب أن أفعل ذلك أو أتكلم به ، لأنّي عبد مخلوق
فكيف أدعي ذلك ، ومعنى قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ ﴾ ، إنك أنت علام الغيوب ﴿ قال ابن جرير الطبري في تفسيره : قال
أبو جعفر : يقول تعالى ذكره ، مخبراً عن نبيه عيسى ﷺ : أنه يبرأ مما قالت فيه
وفي أمه الكفرة من النصارى أن يكون دعاهم إليه أو أمرهم به ، فقال :
﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ ، إن كنت قلته فقد علمته ﴿
ثم قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ يقول : إنك يارب لا يخفى عليك ما أضمرته
نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي ، فكيف بما قد نطقت به وأظهرته

بجوارحي؟ يقول : لو كنت قد قلت للناس : ﴿ اتخذوني وأمِّي إلهين من دون
 الله ﴾ كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بها قد
 نطقت به ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ يقول : ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم
 تطلعني عليه لأنني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتنيه ﴿ إنك أنت علامُ
 الغُيوب ﴾ يقول : إنك أنت العالم بخفيات الأمور التي لا يطلع عليها
 سواك ، ولا يعلمها غيرك اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرني
 به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ ينفي عيسى عليه السلام أن يكون قد صدر
 هذا القول منه على أبلغ وجه وأكده حيث نفى عليه السلام أن يكون قد
 صدر منه قول مغاير لما أمره الله عز وجل به ، ويدخل في ذلك نفى أن يكون
 قد قال لهم : ﴿ اتخذوني وأمِّي إلهين من دون الله ﴾ دخولا أوليًا أي ما أمرتهم
 إلا بما أمرني به ، والذي أمرني به هو أن أطلب منهم إخلاص العبادة لك
 وحدك فقلت لهم : اعبدوا الله سيدي وسيدكم ومالكي ومالككم ومصلحي
 ومصلحكم ومدبر أمري ومدبر أموركم ، وابدلوا له أقصى غاية الحب مع
 أقصى غاية الذل ولا تشركوا به شيئاً . وقوله : ﴿ وكنتُ عليهم شهيدا ما دُمْتُ
 فيهم فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنتَ على كل شيءَ شهيد ﴾ أي
 وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم ومدة داومي بينهم شاهدا عليهم وعلى
 أفعالهم وأقوالهم فلما قبضتني إليك كنت أنت وحدك الحفيظ عليهم دوني
 لأنني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، وأنت تشهد على كل
 شيء لأنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء فأنت على كل شيء
 شهيد ، وقوله : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز
 الحكيم ﴾ أي أنا لست عليهم بمسيطر ، وقلوبهم بيدك تضل من تشاء
 وتعذبه عدلا وتهدي من تشاء وتغفر له فضلا فإنهم جميعا عبادك وأنت ربهم
 وأنت العزيز القاهر الذي لا يفوته شيء الحكيم في جميع أفعاله وأقواله قال

ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل فإنه الفعال لما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله ندًا وصاحبةً وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب اهـ وليس في قوله تعالى هنا : ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ما يُفْهِمُ أن من مات على الشرك قد يغفر له ، لأن الكلام منصب على جملة من جاءهم عيسى عليه السلام ، وفيهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ومنهم من كفر به في حياته بينهم ، ومنهم من كفر به بعد رفعه إذ زعم أنه إله أو ابن إله ، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله عز وجل به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأنه يشهد لمن أجابه مدة حياته بينهم ويشهد على من عصاه مدة حياته كذلك ، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم وكان الله وحده هو الرقيب عليهم لا يعلم عيسى من أمرهم شيئاً سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سواء السبيل ، فمرد الجميع إلى الله يعذب من يشاء من العصاة عدلاً ويغفر لمن يشاء فضلاً ، لأن الجميع عباده ، وهو العزيز الحكيم ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّنْهِ أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الآية ، وقال عيسى عليه السلام : ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك ؟ فاتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله :

يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . وقال
 البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه : باب : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا
 دَمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ ﴾ حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أخبرنا المغيرة بن النعمان قال سمعت
 سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ
 فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا
 أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : ألا وإن
 أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ
 بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصبحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا
 بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دَمْتُ فِيهِمْ
 فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فيقال :
 إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . باب قوله : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ
 فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ حدثنا محمد بن كثير
 حدثنا سفيان حدثنا المغيرة بن النعمان قال : حدثني سعيد بن جبير عن ابن
 عباس عن النبي ﷺ قال : إنكم محشورون ، وإن ناساً يؤخذ بهم ذات
 الشمال ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دَمْتُ
 فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا
 يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بيان للترغيب في الصدق
 وعظيم منفعته وجليل ما يترتب عليه فإن الصدق لا يأتي إلا بخير ونفع
 لصاحبه لكن نفعه في الدنيا قد لا يخلص من الهموم والغموم أما نفعه في
 الآخرة فإنه خال من الأحزان والأكدار إذ يهدي صاحبه لجنات تجري من

تحتها الأنهار لا يريم منها ولا يتحول عنها ولا يلحقه فيها هرم ولا شيب ولا مرض ولا هم مع رضاه وفرحه بما منَّ الله به عليه ورضوان من الله أكبر وهذه هي الغاية القصوى في الفوز والفلاح مع النجاة من النار، وذلك كله لصدقه مع الله وتجنبه افتراء الكذب على الملك الحق الموجد لجميع الكائنات المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فإن جميع ما في السموات وما الأرض هي ملكه وتحت قهره ومشيتته لا ندَّ له ولا شريك ولا نظير ولا وزير ولا صاحبة ولا والد ولا ولد، ولم يكن له كفواً أحد لا إله غيره ولا رب سواه . وبهذا تم تفسير سورة المائدة بحمد الله .

تفسير

سورة الأنعام

• بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ •

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ .

المناسبة بين أول آية من سورة الأنعام وهي مكية وآخر آية من سورة المائدة وهي مدنية ظاهرة فإن الله تبارك وتعالى أخبر في الآية الخاتمة لسورة المائدة المباركة بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وقد افتتح سورة الأنعام بأنه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهذا أحد البراهين الظاهرة على تمام التناسق والتناسب بين آيات القرآن العظيم ، وأن كل آية من آياته مرتبطة تمام الارتباط بالآية التي قبلها والآية التي بعدها كما أن كل سورة من سوره مرتبطة تمام الارتباط بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها وهذه إحدى صور الإعجاز القرآني ، فقد ذكر في سورة المائدة صوراً من افتراءات اليهود والنصارى والمشركين على الله عز وجل وعلى رسله كما اشتملت سورة الأنعام على صور كثيرة من افتراءات المشركين على الله وعلى رسله ، وقد قال عز وجل في سورة المائدة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون .﴾ وقال في سورة الأنعام : ﴿وكذلك زينَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليزدوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون .﴾ وقالوا هذه أنعام وحزث حِجْرٌ لا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ ﴿١﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿٢﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٣﴾ وقد افتتح الله تبارك وتعالى سورة الأنعام بحمده كما افتتح بالحمد سورة الفاتحة وسورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الفاتحة : ﴿٤﴾ الحمد لله رب العالمين ﴿٥﴾ أنه في حَيِّزِ الحمد من هذه السُّور يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه ، ففي سورة الفاتحة لَفَتَ الانتباه إلى أنه رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أَنْ يُصَرَفَ شيء منها لغيره ، وأنه هو وحده المستعان ، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم . وفي سورة الأنعام لفت الانتباه إلى أنه وحده هو خالق السموات والأرض وجاعلُ الظلمات والنور، وفي سورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمته العظمى وحجته البالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتم أنبيائه عبده محمد ﷺ ليرسم للإنسانية طريقَ سعادتها ومنهجَ رُشْدِها وعزها ، وفي سورة سبأ يلفت الانتباه إلى أن جميع ما في السموات وما في الأرض لله عز وجل مِلْكًا ومُلْكًا ، فهو المستحق للحمد في الدنيا والآخرة ، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنه وحده هو الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسلًا وأنه على كل شيء قدير، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، وقد ذكرت أن الحمد هو الشناء على الله رب العالمين بالجميل على ما أسدى من النعم ، وعلى ما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، والرضا بقضائه وقدره ، فهو المحمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين ، والشكر هو الاعتراف والإقرار بالمنعم بنعمته ، وضده الكفر، والمدح نقيض الذم ، والرضا ضد السخط ، وكل من الشكر والمدح والرضا داخل في حقيقة

الحمد، فحمد الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله والإقرار بآلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، ووصف الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، وتنزيهه عن كل نقص، وخضوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يعده العبد ضرراً أو نفعاً كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة، وقد وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا. ومعنى ﴿الحمد لله﴾ أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يستحقها الله المعبود بالحق وحده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ تنبيه على استحقاقه وحده عز وجل للحمد بأنه هو وحده الخالق لجميع الكائنات ذواتها وصفاتها، وأحوالها وأعراضها وعلوياً وسفلياً لا شريك له في شيء من ذلك قال القرطبي رحمه الله في الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الذي خلق﴾ أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع، والخلق يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير وقد تقدم وكلاهما مراد هنا، وذلك دليل على حدوثهما، فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أود، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين، وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات، وجعل فيها الجبال أوتاداً، وسبلاً فجاءاً، وأجرى فيها

الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار، دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، ويُنَّ بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء. اهـ ولاشك أن السموات والأرض آيتان باهرتان من آيات الله، قد جعلهما الله تبارك وتعالى ونصبهما لتذكير عباده بأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأقام لعباده من الشواهد ما هو ثابت وما هو متغير، حيث جعل السموات والأرض آيتين ثابتتين طول الدهر، وجعل للعباد آيات متجددةً لتنبههم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ. وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ وقال تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ قال القرطبي رحمه الله: واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور فقال السدي وقتادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار، وقال الحسن: الكفر والإيمان، قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر، قلت: اللفظ يعمله، وفي التنزيل: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمعنى جمعها وكذلك: ﴿وَالنُّورُ﴾ ومثله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾

وقال الشاعر: كلوا في بعض بطنكموا تعفوا

وقد تقدم، وجعل هنا بمعنى خلق، لا يجوز غيره، قاله ابن عطية، قلت: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفاً على الجمع والمفرد معطوفاً على المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة. والله أعلم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع

ظهور أدلة التوحيد وما نصبه الله عز وجل من البراهين الثابتة والمتجددة أمام
 أعين عباده فلا يزال الذين كفروا متمادين في ضلالهم مستمرين في غيهم
 مستغرقين في شركهم حيث يعدلون به بعض خلقه ويشركون معه غيره مع
 اعترافهم بأن الله هو ربهم وأنه هو الذي خلق السموات والأرض كما قال عز
 وجل : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴾ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ،
 قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ وكما قال عز وجل :
 ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ * والتعبير بقوله : ﴿ ثُمَّ ﴾
 لتبشيع عمل الكافرين واستغراقهم في الشرك وتراخيهم في الضلال ،
 واستمرارهم على غيهم وطول انغماسهم في كفرهم مع معاينتهم الآيات الدالة
 على توحيده فلو عطف في هذا المقام بالواو ونحوها لم تفد في توبيخهم
 وتسفيههم ما تفيده ﴿ ثُمَّ ﴾ ومعنى ﴿ بَرِبَهُمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يشركون معه غيره
 ويساوون به سواء يقال : عدل كذا بكذا أي سَوَّى بينهما ، وقوله تبارك
 وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ
 أَنْتُمْ مَمْرُتُونَ . ﴾ يلفت عز وجل انتباه الإنسان إلى النظر في نفسه بعد أن لفت
 انتباهه إلى النظر فيما يحيط به من العوالم العلوية والسفلية ، لتكون براهين
 قدرته محيطة به من كل جانب قريبة من كل ناظر كما قال بعض أهل العلم :
 فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي
 تجد به صنعا بديع الحكم لكن به قام دليل العدم
 وكلما جاز عليه العدم عليه قطعاً يستحيل القدم
 قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾
 والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقاً من طين ،
 فلهذا السبب قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ وعندي فيه وجه آخر

وهو أن الإنسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث ، وهما يتولدان من الدم ،
والدم إنما يتولد من الأغذية ، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية فإن كانت
حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان
فبقى أن تكون نباتية فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية ولاشك أنها
متولدة من الطين فثبت أن كل إنسان متولد من الطين ، وهذا الوجه عندي
أقرب إلى الصواب ، إذا عرفت هذا فنقول : هنا الطين قد تولدت النطفة منه
بهذا الطريق المذكور ثم تولد من النطفة أنواع الأعضاء المختلفة في الصفة
والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد وأنواع الأعضاء البسيطة
كالعظام والغضاريف والرباطات والأوتار وغيرها ، وتولد الصفات المختلفة
في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدر حكيم ، ومدير رحيم ، وذلك هو
المطلوب . اهـ ومعنى قوله تعالى : ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ أي حكم وقدر لكل
واحد منكم أجلاً لا يتعداه ولا يتجاوز به حال وقهره على ذلك فإذا جاء
أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، وقد ذهب غير واحد من أئمة
أهل العلم بالتفسير إلى أن الأجل المسمى عنده هو من وقت وفاة الإنسان إلى
وقت بعثه يوم القيامة أي مدة مقامه في البرزخ ، ومعنى ﴿ ثم أنتم تموتون ﴾
أي ثم بعد طول معاينتكم لحجج الله الباهرة الدالة على أنه على كل شيء
قدير تشكون في وقوع البعث بعد الموت مع مشاهدتكم في أنفسكم من
الشواهد ما يقطع أسباب الشك والامتراء لأن من قدر على إفاضة الحياة وما
يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة
لشيء منها أصلاً كان أهون عليه وأقدر على إفاضتها على مادة قد استعدت
لها وقارنتها مدة الأجل الأول ، وقد لوحظ أن السور المكية تدور في فلك
حقائق ثلاث وهي تقرير توحيد الله عز وجل ووجوب الإيمان باليوم الآخر
ووجوب الإيمان بالمرسلين .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

بعد أن بيّن تبارك وتعالى كمال قدرته على كل شيء مما يزيل كل ارتياب في قدرته على البعث والنشور شرع هنا يقرر كمال علمه وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى يبرهن كثيرا على البعث والنشور بذكر كمال قدرته وعلمه حيث قال هنا بعد توبيخ من يمترى في إحياء الموتى بعد أجل برزخهم: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ الآيات، إلى قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي وهو أي المستحق لجميع المحامد، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، الذي خلقكم من طين وقدر لكل واحد منكم أجله، وقهره عليه، لا يتأخر عن أجله إذا جاء لحظة واحدة ولا يتقدم لحظة، ذلك هو الله أي المألوه المعبود بالحق في السموات والمعبود بالحق في الأرض، المحيط بما تنطوي عليه صدور خلقه، وما توسوس به نفوسهم، وما تلتف به

أَلَسْتَهُمْ ، أَوْ تَبْدِيهِ جَوَارِحَهُمْ ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وَيَعْلَمُ كُلَّ مَا تَجْتَرحونه ، وَيَحِيطُ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيَحْصِيهِ عَلَيْكُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، فَفَرُّوا إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَلَا تَعْدِلُوا بِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَا تَشْكُوا فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ شُرُوعٌ فِي تَقْرِيرِ الْحَقِيقَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْحَقَائِقِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَدُورُ فِي فَلَكِهَا السُّورِ الْمَكِّيَّةِ ، فَبَعْدَ أَنْ قَرَّرَ الْحَقِيقَةَ الْأُولَى وَهِيَ إِبْطَاتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ قَرَّرَ الْحَقِيقَةَ الثَّانِيَّةَ وَهِيَ إِبْطَاتُ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ وَأَكَّدَ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ شَرَعَ فِي تَقْرِيرِ الْحَقِيقَةِ الثَّالِثَةِ وَهِيَ إِبْطَاتُ النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيُّ وَمَا تَجِيءُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ مُعْجَزَةٌ وَخَارِقَةٌ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى يَدَيْكَ يُؤْيِدُكَ بِهَا رَبُّ النَّاسِ ، تَكُونُ حُجَّةً وَعِلَامَةً وَدَلَالَةً مِنْ حُجَجِ رَبِّهِمْ وَأَعْلَامِهِ وَدَلَالَاتِهِ عَلَى أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا أَعْرَضُوا عَنْهَا وَصَدُّوا عَنْ قَبُولِهَا ، وَكَذَّبُوا بِهَا ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا ، وَتَرَكُوا النَّظَرَ فِيهَا ، وَانْصَرَفُوا عَنْهَا مُسْتَهْزِئِينَ بِهَا ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فَلَا تَعْجَبُ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ مِنْ إِعْرَاضِهِمْ . وَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا يَصْدُرُ مِنْ سَفَاهَتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانَتْ

لهم عقول لسارعوا إلى تصديقك والإيمان بك لأنك إنما جئتهم بالحق الأبلج،
فانغمسوا في الباطل اللجلج، وكذبوا بما لا يجوز أن يكذب، وردوه دون أن
يتدبروا ما يجره عليهم تكذيبهم وسوء فعلهم، فسيحقيق بهم من العقوبات
العاجلة والآجلة ما يكون كفاء لإعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم، قال ابن
جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسُوفَ
يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقد
كذب هؤلاء العادلون بالله، الحق لما جاءهم وذلك الحق هو محمد ﷺ،
كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم، قال الله متوعدا على تكذيبهم إياه،
وجحدوهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك يا محمد من قومك وغيرهم ﴿أَنْبَاءُ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به
يستهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم، ثم وفي لهم بوعيده لما تمادوا في
غيهم، وعتوا على ربهم فقتلهم يوم بدر بالسيف اهـ وقوله تبارك وتعالى:
﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ
وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ تقرير لما توعد الله عز وجل به
الكفار الذين كذبوا رسوله محمدا ﷺ في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بتذكيرهم بما يعرفونه بمعايينة الآثار وسماع الأخبار عن الأمم
الماضية التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد، وقد
كانت هذه الأمم أشد من قريش قوة وأعظم منهم بأسا وأكثر أموالا وأولادا،
كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ
يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في

مقامات كثيرة من كتابه الكريم فذكر إبادته للأمم كثيرة ماضية كانوا أشد قوة من كفار مكة ومن حولها من المكذبين برسوله محمد ﷺ وأن تلك الأمم الغابرة لما نزل بهم بأس الله لم تك تدفع عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً حيث يقول عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهْيِ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ألم يأتهم نبال الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وقال عز وجل : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وإنها لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ ولقد كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴾ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ وكانوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿ وقال عز وجل : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَاقٍ . ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِي شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عَنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَذَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ والضمير في قوله ﴿من قبلهم﴾ للمشركين المكذبين المعاندين لمحمد رسول الله ﷺ المذكورين في قوله عز وجل : ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والمراد بالقرن : الأمة والجماعة والجِيل من الناس على حد قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهمُ وخُلِّفَ في قرن فأنت غريب
وضمير الغائبين في قوله : ﴿مكناهم﴾ راجع إلى القرن ، وجمع الضمير باعتبار كون القرن جمعاً في المعنى . وضمير المخاطبين في قوله : ﴿مالم نمكن لكم﴾ للمشركين المعاندين الذين كذبوا بالحق لما جاءهم ، وكان مقتضى السياق أن يقال : مالم نمكن لهم ، لكن مقتضى الحال اقتضى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين ، ومعنى قوله : ﴿مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم﴾ أي أعطيناهم من أسباب القوة ما جعلهم متمكنين في أرضهم مالم نعطكم مثله يامعشر قريش ومن معكم من المكذبين بالحق لما جاءهم ، ومكنه في الأرض ومكن له فيها لغتان بمعنى واحد فهو يتعدى بنفسه تارة وبالحرف تارة أخرى نظير : نصحته ونصحت له وقد أورده القرآن الكريم باللغتين هنا وكما قال عز وجل : ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ وقال عز وجل : ﴿إنا مكنَّا له في الأرض﴾ وقال عز وجل : ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ وقال عز وجل :

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ ومعنى : ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾ أي وأنزلنا عليهم الغيث والمطر الغزير المتتابع النافع ، والمدرار هو الكثير الدر المغزار ، ومعنى : ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار المستمرة على الجريان بين مزارعهم وبساتينهم ، فكانوا في بسطة ورغد من العيش والقدرة على التقلب في الأرض ، وقوله : ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ أي فلما كذبوا رسلهم وعصوا أمر ربهم دمرناهم بسبب كفرهم وسيئاتهم ولم يستطيعوا دفع عقوبة الله لما نزلت بهم واستبدلنا قوما غيرهم كما قال عز وجل : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ . وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . ﴾

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى الذين كفروا وكذبوا برسوله محمد ﷺ لما جاءهم ، وتوعدهم بعقوبة من الله عز وجل تنزل بهم إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم للحق الذي جاءهم ، وذكرهم بما حل بالأمم المكذبة قبلهم من العذاب الشديد والعقاب المبيد وهم يعرفون ذلك بمعاينة الآثار وسماع الأخبار شرع هنا في مواصلة حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمد ﷺ بإعلان أن هؤلاء المكذبين لم يكذبوك لشبهة فيك ، وإنما يكذبونك جحودًا للحق ، ولو جثتهم بكل آية لردوها ، وقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ، وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم صورتين من صور تعنتهم ، فذكر عز وجل أنه لو نزل عليك كتابا محررا مكتوبا في صحيفة واحدة غير متفرقة فشاهدوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر ، كما ذكر عز وجل أنهم يطعنون في نبوة محمد ﷺ لكونه بشرا ، وهم لا يؤمنون بالرسول البشري ولا يرضون إلا بالرسول الملكي مشتركا مع البشري أو مستقلاً وحده ، وهم بهذا يسلكون منهج جميع الأمم الكافرة التي كذبت رسلها لأنهم بشر ، بل كانت هذه أول شبهة رد بها قوم نوح رسالة نوح عليه السلام كما ذكر عز وجل : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر فقد جهلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم نعم الله على خلقه لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم ، ويتمكنون من

مجالسته والاستفادة منه ، ولو أرسل الله لهم ملكاً لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله تبارك وتعالى سائر المكذبين للرسول بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر حيث يقول عز وجل في سورة إبراهيم : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ * قالت لهم رسلهم إن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه الشبهة في غاية الضعف قد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ * قل لو كان في الأرض ملائكة يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ وقد بين عز وجل أنه لو أرسل رسولا غير بشر وجعله من الملائكة ما أطاقه الناس ، ولا يتمكنون من معاشته ولذلك قال في هذا المقام من سورة الأنعام : ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ولَلْبَشَرِئَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ فالذي يفرون منه لابد وأن يقعوا فيه ، ولا طاقة للبشر على مصاحبة الملائكة في دار الدنيا فإن جبريل عليه السلام عندما تبدى لرسول الله ﷺ وهو المهيا لاستقبال الوحي ورأى ﷺ جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض ، له ستمائة جناح ، يملأ الأفق ، خاف رسول الله ﷺ ورعب منه ورجع إلى أهله وقال : زملوني ، وذلك من شدة الخوف . فلو أن جبريل عليه السلام جاء للبشر غير المهيتين للرسالة والوحي ما تمكنا من الاستفادة منه ، ولذلك يتوعد الله عز وجل المكذبين المعاندين الذين يردون رسالة الرسل بدعوى أنهم بشر وأنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم رسول ملكي حيث يقول عز وجل في سورة الفرقان : ﴿وقال الذين لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا
* يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا * وفي
قوله عز وجل هنا : ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾
إعلان بأن هؤلاء المكذبين بالحق قد بلغوا الدرجة القصوى في العناد والمكابرة
والفسطة حتى أصبحوا لا يخجلون من رد حقائق الأشياء وينكرون وجودها
مهما بلغت في الظهور والوضوح والقوة وأنهم مهما عاينوا من آيات الله التي
يؤيد بها رسوله محمدا ﷺ فإنهم يكذبون بها ، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك
بمؤكدات حيث قيد الكتاب بكونه في قرطاس وقيد اللمس بكونه بالأيدي
وهذه درجة عليا في إفادة اليقين ، ومع ذلك فإن هؤلاء الجاحدين لا يزالون
شاكين مكذبين بعد معاينتهم للحجة المحسوسة الملموسة التي يرونها
بأعينهم ويمسونها بأيديهم ، ويقولون : هذا سحر ظاهر قوي ، وكان
مقتضى السياق أن يقال : لقالوا إن هذا إلا سحر مبين لكن مقتضى الحال
والمقام اقتضى وضع الاسم الموصول موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالكفر
الذي تفيدته صلة الموصول ومعنى : ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ما هذا
الكتاب المنزل من السماء الذي شاهدناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا إلا سحر ظاهر
قوي سحرنا به محمد . وهذا القول من الكافرين هو دأب المفحم المحجوج
وديدن المكابر اللجوج ، وهو مسلك جميع الأمم الكافرة في سائر الأزمان
الغابرة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملكٌ ولو أنزلنا ملكا
لقضي الأمر ثم لا يُنظرون﴾ * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما
يلبسون﴾ تسجيل لبعض مقترحات هؤلاء الجاحدين الكافرين وتشنيع
عليهم بها حيث ادعوا أنهم لا يصدقون إلا الرسول الملكي الذي ينزل من
السماء ولا يؤمنون بالرسول البشري إلا إذا أنزل عليه ملك ليكون معه نذيرا ،
كما حكى الله عز وجل عنهم ذلك حيث يقول : ﴿وقالوا مال هذا الرسول

يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً ﴿١﴾ وقد أوحى الله عز وجل شبهتهم وأخزاهم في مقاتلتهم وبيّن أن تلبسهم مردود عليهم ، وأن طلبهم هذا شاهد على جهالاتهم وسخافة عقولهم ، لأن الرسول الملكي الذي يطلبون إما أن يأتيهم وينزل عليهم بصورته الملكية أو أن ينزل عليهم بصورة بشرية ، فلو جاءهم الملك بصورته الملكية لانخلعت قلوبهم من الرعب ، وهلكوا من شدة الخوف لأن النفوس البشرية غير مهيأة للتعايش في الدنيا مع الملائكة بصورهم الحقيقية ، ولو جاءهم الملك في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه لأن الناس حينئذ يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك فيزدادون في شبهاتهم ومشكلاتهم وضلالتهم ويخذلهم الله عز وجل فيقعون في خلط فوق خلطهم واشتباه مع اشتباههم ، والتباس زائد على التباسهم ، ومعنى : ﴿لَوْلا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي هلا أنزل على محمد ملك من ملائكة السماء يكون معه نذيراً ، ومعنى قوله ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم وأنزلنا عليهم ملكاً من السماء على صورته الملكية لانخلعت قلوبهم عند رؤيته وهلكوا ، ولم يؤخروا طرفة عين ، كما أن من دأب الله في الكافرين أنه إنما ينزل الملائكة على المجرمين بإبادتهم كما قال عز وجل : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم ولكننا لم ننزل عليهم الملك في صورته الملكية وأنزلناه في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه ، قال محيي السنة أبو محمد البغوي في قوله عز وجل : ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي خلطنا عليهم ما يخلطون وشبهنا عليهم فلا يدرون : أملك هو أو آدمي اهـ وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

به يَسْتَهْزِئُونَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠٠﴾ هو
 مواساة لرسول الله محمد ﷺ بأن ما يلاقيه من المشركين من التكذيب
 والاستهزاء به قد لقيه إخوانه المرسلون من مشركي أمهم وأن العاقبة الحسنی
 كانت لرسول الله ومن آمن بهم وأن المستهزئين الذي سخروا من المرسلين قد
 نزل بهم بأس الله وحاقت بهم عقوبته ، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحذيره
 للذين كذبوا رسوله ﷺ بعدة تأكيدات حيث قال في الآية الخامسة من هذه
 السورة الكريمة : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا
 به يستهزئون ﴾ ثم أكد لهم ذلك بلفت انتباههم إلى أنهم يعرفون ما حل بالأمم
 المكذبة بما يشاهدونه من الآثار وبما يسمعون من الأخبار حيث يقول عز
 وجل في الآية السادسة : ﴿ ألم يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي
 الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ ثم أكد ذلك في
 الآية العاشرة حيث يقول : ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين
 سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ثم يزيد الأمر تأكيداً فيقول في الآية
 الحادية عشرة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
 ومعنى ﴿ حاق ﴾ أي أحاط بهم وشملهم ولزمهم وقضى عليهم ، ومعنى قوله
 عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي
 قل يا محمد لمن كذبوك وجحدوا الحق الذي جئت به : اضربوا في الأرض
 وجولوا في مشارقها ومغاربها ثم اعتبروا بما تشاهدونه من آثار المكذبين
 الجاحدين المستهزئين بالمرسلين ، هذا وقد حاق بالمستهزئين برسول الله ﷺ ما
 توعدهم الله به فأنزل بهم عقوبته وكفاه شرهم ، وقتل باقي صناديدهم يوم
 بدر ، كما قال عز وجل : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِّلّٰهِ، كَتَبَ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةً، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

بعد أن ساق عز وجل أدلة التوحيد والبعث والرسالة وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، شرع هنا في تأكيد هذه الحقائق الثلاث في صورة بلاغية حيث أمر رسوله ﷺ بتوجيه السؤال للمشركين المكذبين بالبعث الجاحدين برسالة محمد ﷺ قائلا لهم على سبيل التبكيت والإلجاء: ﴿لِمَن مَّا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لمن الكائنات جميعا خلقا وملكا وتصرفا، قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِّلّٰهِ، كَتَبَ عَلٰى نَفْسِهِ الرَّحْمَةً، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: في الآية مسائل «المسألة الأولى» اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة، وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومتى كان كذلك فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة لأبد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى، وإذا ثبت هذا، ثبت كونه قادرا على الإعادة والحشر والنشر لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما، فوجب صحة الإعادة ثانيا، وأيضا ثبت أنه تعالى ملك مطاع، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده، ولابد من مبلغ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من الله تعالى إلى الخلق

غير ممتنع ، فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة ، ولَمَّا سبق ذكر هذه المسائل الثلاث ذكر الله بعدها هذه الآية لتكون مقررمة لمجموع تلك المطالب من الوجه الذي شرحناه ، والله أعلم . «المسألة الثانية» قوله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤال ، وقوله : ﴿قُلْ لِلّٰهِ﴾ جواب ، فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً ، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكرٌ ، ولا يقدر على دفعه دافع ، ولما بيَّنا أن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميع صفاتها ، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها ملك لله تعالى ومُلك له ومحل تصرفه وقدرته ، لا جرم أمره بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً ، ليدل ذلك على أن الإقرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة ، وأيضاً فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله ، وملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته بهذا المعنى ، كما قال : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ﴾ ثم إنه تعالى لما بيَّن بهذا الطريق كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية ، أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكأنه تعالى قال : إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم ، بل أبداً ينعم ، وأبداً يعد في المستقبل بالإنعام ، ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلك وأوجبه بإيجاب الفضل والكرم اهـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله : وقوله : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يقول : قضى أنه بعباده رحيم ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم الإنابة والتوبة ، وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة ، يقول تعالى ذكره : إن هؤلاء العادلين بي الجاحدين نبوتك يا محمد ، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم ، وإني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش

أن رحمته تغلب غضبه ، فقد روى البخاري ذلك في كتاب التوحيد من
صحيحه في أبواب حيث أوردته في باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي
الله من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي
ﷺ قال : لما خلق الله الخلق كتب في كتابه هو يكتب على نفسه ، وهو وضع
عنده على العرش : إن رحمتي تغلب غضبي . وأوردته في باب : وكان عرشه
على الماء من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :
إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي .
وأوردته في باب قوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ من
طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال : لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي .
وأوردته في باب قول الله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ من طريق
قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لما قضى الله الخلق كتب
كتاباً عنده : غلبت — أو قال : سبقت رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق
العرش . وأوردته في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وهو
الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة
رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو
عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي . وقد أوردته مسلم في صحيحه
من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : لما خلق الله
الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي . وفي
لفظ لمسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال
الله عز وجل : سبقت رحمتي غضبي . وفي لفظ لمسلم من طريق الحارث بن
عبد الرحمن عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لما
قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب

غضبي . ومعنى كون رحمة الله تغلب غضبه أو تسبق غضبه عز وجل هو أنه عز وجل يثيب على الأعمال الصالحة من المحسنين ويقبل التوبة عن المسيئين ويعفو عن السيئات كما قال عز وجل : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في الآية الرابعة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث يقول : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم . ﴾ وكما كتب عز وجل على نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً فقد حرم على نفسه المقدسة الظلم فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً فلا تظالموا . الحديث . قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله : فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم ثم قال : إن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب هذا ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها ، وإنما استحق الحمد لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه ، وكما أن الله منزّه عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً منزّه عن أفعال النقص والعيب . ثم قال رحمه الله : ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل وهو كتابة التقدير ، كما قد ثبت في الصحيح « أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » فإنه قال : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة ، إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ، ولكان قد حرم على نفسه كل

ما لم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم . ثم قال رحمه الله : ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه ألا يعذبهم . ومنه قوله في غير حديث : كان حقاً على الله أن يفعل به كذا . فهذا الحق الذي عليه هو أحقُّ على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن ، وكلمته السابقة كقوله : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وقوله : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ و﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخِّلَتْهُمْ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب . ثم قال رحمه الله : وكتابته على نفسه ذلك تستلزم إرادته لذلك ومحبه له ورضاه بذلك ، وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له ، وإرادته ومحبه للفعل توجب وقوعه منه ، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه ، فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر اهـ وقوله عز وجل : ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون اهـ وقوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون برسوله محمد ﷺ ولا يقرون بالبعث والنشور .

قال تعالى : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْجَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝﴾ .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض ملك لله عز وجل وحده لا شريك له وأشار إلى أن هذه الحقيقة يُقَرَّرُ بها المشركون الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى ونبّه العباد إلى أن مَرَدَّهُمْ جميعاً إلى الله عز وجل وأنه من رحمته أرسل الرسل وأنزل الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة أَكَّدَ عز وجل هنا أَنَّ الله وحده ما سكن في الليل والنهار ، وأنه لا تخفى عليه خافيةٌ مهما كانت في السماء أو في الأرض ، ثم أَمَرَ نبيه وسيد رسله وخاتم أنبيائه أن يوبخ المشركين وأن يَقْطَعَ كل أمل لهم فيما يحاولونه وَيَوْدُوْهُ من أن يميل رسول الله ﷺ إلى آلهتهم وأن يُعْلِمَهُمْ وَيُعْلِنَ لهم أنه أَمَرَ أن يكون أول من أسلم من أمته ، وأنه يخاف إن عصى رَبَّهُ عَذَابَ يوم القيامة وفي هذا كله تقريرٌ لحقيقة التوحيد وحقيقة الرسالة وحقيقة البعث بعد الموت وفي هذا شَبَهٌ بقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وهو شبيهه أيضاً بقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعِبِدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وفيه شَبَهٌ بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

المسلمين * قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ والعرب يستعملون «سكن» بمعنى استقر وحلَّ فيكون من السُّكْنَى فيشمل المتحرك والساكن ويستعملونه أيضا من السكون الذي هو ضدُّ التحرك وعلى هذا يكون فيه اكتفاء بأحد الضدين لدلالته على الآخر كما قال عز وجل : ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد فاكتفي بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر لأن السامع يعرف المراد قطعاً . ولا شك أن جميع الكائنات متحركها وساكنها مملوك لله عز وجل وحده لا شريك له ولذلك قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر المقرر أنَّ كُلَّ الكائنات المتحركة والساكنة لطيفة كانت أو كثيفة في أي زمان أو مكان هي لله تبارك وتعالى وحده ، فهو عز وجل الذي يُسْكِنُ الريح أو يحركها كما يُسْكِنُ الحر والبرد وعموم ما يَسْكُنُ أو يتحرك ، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : وقوله تعالى : ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قال ابن الأعرابي : معناه وله ما حلَّ في الليل والنهار ، وقال الزجاج : هذا احتجاج على المشركين لأنهم لم يُنْكِرُوا أن ما استقرَّ في الليل والنهار لله أي هو خالقه ومُدَبِّرُهُ فالذي هو كذلك قادرٌ على إحياء الموتى ، وقال أبو العباس في قوله تعالى : ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قال : إنما الساكن من الناس والبهائم خاصة قال : وَسَكَنَ : هَذَا بعد تَحْرُكِ وإِنَّمَا معناه والله أعلم : الخَلْقُ اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ أي كل دابة في السموات والأرض الجميع عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ وتحت قهره وتصرفه وتديره لا إله إلا هو ، ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضماثرهم وسرائرهم ، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشَّرع القويم وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله

المستقيم ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾. والمعنى: لا اتَّخَذَ وَلِيًّا إِلَّا اللَّهَ وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية، وقرأ بعضهم ههنا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي لا يأكل، وفي حديث سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: الحمد لله الذي يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ، ومنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين اهـ والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذَ وَلِيًّا﴾؟ للإنكار أي لا اتَّخَذَ غيرَ اللَّهِ وَلِيًّا لا بطريق الاستقلال ولا بطريق الاشتراك، والاستفهام الإنكاري مسلط على المفعول الأول لا على الفعل للإعلام بأن المنكر هو اتَّخَذَ غيرَ اللَّهِ وَلِيًّا لا اتَّخَذَ الولي مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ والمراد بالولي هنا المعبود، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، إن الله لا يهدي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ والعجيب الغريب أن تجد أن بعض المتسبين للإسلام يتخذون من دون الله أولياء ويسمونهم بهذا الاسم ويجعلون على قبورهم قبائباً، وينادونهم ويستغيثون بهم طالبن منهم جلب

النفع أو دفع الضرر كما كان يفعل أهل الجاهلية قبل الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته المسماة: شرح الصدور في تحريم رفع القبور:

أعادوا بها معنى سُوءٍ ومثله	يغوث وودّ ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من بحيرة	أهلت لغير الله جهلا على عمد اهـ

وقد ندد الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم بمن يتخذ غير الله وليا أي معبودًا كما في هذا المقام وكما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ، قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ.﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أكون أول من يخلص له التوحيد من هذه الأمة وأول المنقادين لأمره المصدقين بما أنزل عليّ من الكتاب وأنه نهاني أشد النهي وأؤكد أنه أشرك بالله شيئًا، وفي هذا قطع لطمع المشركين الذين يودون أن يزحزحوا رسول الله ﷺ عن جادة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له والدعوة إلى صراط الله المستقيم، وفي هذا تقرير

للتوحيد والرسالة على أكمل وجه ، ولاشك أن كل نبي هو أول المؤمنين من أمته ، كما قال عز وجل عن موسى عليه السلام : ﴿ قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ﴾ تقرير للبعث بعد الموت وتأكيد في تربية النفوس على الإيمان بذلك حتى يصير الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ملكة مستولية على مشاعر المؤمنين مركوزة أمام بصائرهم ليفعلوا الخير ويجتنبوا الشر ويفوزوا بجنت النعيم ، ومعنى : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ﴾ أي أنذر يا محمد أمتك وحذرهم من عذاب يوم القيامة لمن عصى الله عز وجل وبخاصة من ارتكب أكبر الكبائر وهو الشرك بالله ، وأعلمهم أن عذاب يوم القيامة عذاب شديد وأن يوم القيامة عظيم الهول فظيع الشأن لأنه يوم يجعل الولدان شيبا ، فالسعيد من صرف الله عز وجل عنه عذاب يوم القيامة ، ومن يصرف الله عنه عذاب يوم القيامة فقد نجاه وأنعم عليه وأحسن إليه وشمله برحمته ، ومن شمله الله عز وجل برحمته فقد فاز فوزا عظيما ظاهرا كما قال عز وجل : ﴿ فمن زُحِرَ حَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ فالفوز المبين الحق هو في دخول الجنة والنجاة من النار ، وقد اشتمل قوله تبارك وتعالى : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ من يُصْرَفُ عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . ﴿ على صور بلاغية حيث أكد الخوف بإن في قوله : ﴿ إني أخاف ﴾ وهو أفضل خلق الله أجمعين ثم فصل بين الفعل ومفعوله بالجملة الشرطية وهي قوله : ﴿ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة قوله : إني أخاف عذاب يوم عظيم على هذا المحذوف . وفي قوله تعالى هنا : ﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ مع قوله تعالى في سورة الجاثية : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾

وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز المبين ﴿ بالمجيء
بالواو في الأولى وحذفها من الثانية ، والمجيء بالضمير في الثانية وحذفه من
الأولى ، وليس في القرآن بهذا اللفظ غيرهما فهما من المتشابه الثاني ، مع بعد
موقعيهما في الكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، قُلْ لَا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن له ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم وأمر نبيه وحييه محمداً ﷺ أن يوبخ المشركين وأن يقطع كل أمل لهم فيما يحاولونه وَيَوَدُّونَهُ من أن يميل رسول الله ﷺ إلى أهلتهم ، وأن يُعْلِمَهُمْ ويُعلنَ لهم أنه أمر أن يكون أول من أسلم من أمته وأنه يخاف إن عصى ربّه عذاب يوم القيامة ، ضرب هنا مثلاً للحض على إخلاص التوحيد لله وحده والبراءة من كل معبود سواه بَيَّانٍ أنه إن مسَّ الإنسان ضُرٌّ لا يكشفه إلا الله وحده ، وإن مسّه خير فهو من الله وحده ولا يحفظه له أحد سواه تبارك وتعالى لأنه عز وجل هو وحده القادر على كل شيء النافع الضار الذي لا يعجزه شيء ولا يكون في الكون شيء إلا بقضائه وقدره وحكمته وعلمه ، حيث يقول هنا : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وقد روى الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يوماً فقال : يا غلام إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احفظ الله يَحْفَظْكَ ، احفظ الله تَجِدْهُ تَجَاهَكَ ، إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعَتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعُوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رُفِعَتِ الْأَفْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ . قال ابن جرير

الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بخير فهو على كل شيء قدير﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد، إن يُصِيبَكَ اللهُ ﴿بِضُرٍّ﴾ يقول : بِشِدَّةٍ في دنيائك، وَشَظَفٍ في عيشك وَضِيقٍ فيه، فلن يَكْشِفَ ذلك عنك إلا الله الذي أَمَرَكَ أن تكون أولَ من أَسْلَمَ لأمره ونبيه، وَأَدْعَنَ له من أهل زمانك، دونَ ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام ودُونَ كُلِّ شيء سواها من خَلْقِهِ ﴿وإن يَمْسَسْكَ بخير﴾ يقول : وإن يُصِيبَكَ بخير، أي برخاءٍ في عيش، وَسَعَةٍ في الرزق وكثرةٍ في المال فتقرَّ أنه أصابك بذلك «فهو على كل شيء قدير» هو القادرُ على نفعك وضررك وهو على كل شيء يريده قادرٌ، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة، التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول تعالى ذكره : فكيف تعبد من كان هكذا؟ أم كيف لا تخلص العبادة وتُقَرُّ لمن كان بيده الضرُّ والنفع والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة والعزة الظاهرة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ إثبات لصفة الفوقية والعلوِّ لله عز وجل على جميع خلقه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله تعالى ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى، النافين عن الله عز وجل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع إيمانهم ويقينهم بأن الله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وعلوُّ الله عز وجل على خلقه مركز في الفطر السليمة ثابت بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة فقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه المقدسة بأنه استوى على العرش في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة الرعد وفي سورة طه وفي سورة الفرقان وفي سورة السجدة وفي سورة الحديد، وقد وصف عز وجل كرسيه

بأنه وسع السموات والأرض وقال عز وجل : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وقال هنا : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وقال في سورة
النحل في وصف ملائكته : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وقال في عيسى عليه
السلام : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقال : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ويقول عز
وجل : ﴿تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾
وقال عز وجل : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقد روى البخاري
في كتاب التوحيد من صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : كانت
زينب تَفْخَرُ على أزواج النبي ﷺ تقول : زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى
من فوق سبع سماوات . كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال : فإذا سألتُم الله فسلوه الْفِرْدَوْسَ فإنه أوسط الجنة
وَأَعْلَى الجنة وفوقه عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة ، وقد ذكر الشيخ عليُّ
ابن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية على قول
الطحاوي رحمه الله : وهو مستغن عن العرش وما دونه محيطٌ بكل شيء
وفوقه ، وقد أعجزَ عن الإحاطة خلقه قال ابن أبي العز رحمه الله : وأما كونه
فوق المخلوقات فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ
فَوْقِهِمْ﴾ ثم قال رحمه الله : وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت
الفوقية الْمُطْلَقَةِ من كل وجه فله سبحانه وتعالى فوقية الْقَهْرِ وفوقية الْقَدْرِ
وفوقية الذات ، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تَنَقَّصَ وَعُلُوُّهُ تَعَالَى
مُطْلَقٌ من كل الوجه اهـ وقوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ
اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ
لِتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي
بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تقريع للمشركين بالله المكذبين بالرسالة المنكرين للبعث
وتوبيخ لهم على ردهم ما دعاهم إليه محمد ﷺ من وجوب الإتيان بالله

ورسوله واليوم الآخر مع أنه قد بَرَّهَنَ على دعواه بأعظم شهادة في الوجود وأكبر بينة وهي شهادة الله الملك الحق المبين الذي أيده بالقرآن الذي تحداهم بأقصر سورة منه ، المقرر لعموم رسالة محمد ﷺ وشمولها لمن تصل إليه من الإنس والجن من لدن بعثته ﷺ إلى يوم القيامة ، قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويحسدون نبوتك من قومك : أي شيء أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة ﴿ الله ﴾ الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ والغلط والكذب ، ثم قل لهم : إن الذي هو أكبر الأشياء شهادةً شهيدٌ بيني وبينكم بالمُحَقِّ منا من المُبْطِلِ ، والرَّشيد منا في فعله وقوله من السفه ، وقد رَضِينَا به حكماً بيننا . اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وكلُّ أحد يعلم أن الله أكبر شهادةً ، فلما قال : « قل أي شيء أكبر شهادةً » عَلِمَ أن الله أكبر شهادةً من كل شيء ، فقل له : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ولما قال : ﴿ الله شهيدٌ بيني وبينكم ﴾ كان في هذا ما يغنى عن قوله : إن الله أكبر شهادةً ، وذلك أَنَّ كَوْنَ الله أكبر شهادةً هو معلوم ، ولا يثبت بمجرد قوله « أكبر شهادةً » بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم فإن هذا مما يُعْلَمُ بالنص والاستدلال ، فينظر : هل شهد الله بصدقه وكذبهم في تكذيبه؟ أم شهد بكذبه وصدقهم في تكذيبه؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات : بكلامه الذي أنزله ، وبما بين أنه رسول صادق ، ولهذا أعقبه بقوله : ﴿ وأوحى إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ ﴾ فَإِنَّ هذا القرآن فيه الإنذارُ ، وهو آيَةٌ شهد بها أنه صادق ، وبالآيات التي يُظْهِرُهَا في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق ، وقوله في هذه

الآية : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ وكذلك قوله : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا ﴾ وكذلك قوله ﴿ هو أعلم بما تُفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم ﴾ فَذَكَرَ سبحانه أنه شهيدٌ بينه وبينهم ولم يقل : شاهدٌ علينا ، ولا شاهدٌ لي ، لأنه ضَمَنَ الشهادة الحُكْمَ فهو شهيدٌ يحكم بشهادته بيني وبينكم ، والحُكْمُ قَدْرُ زائدٌ على مجرد الشهادة ، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة . وأما الحاكمُ فإنه يحكم بالحق لِلْمُحَقِّ على المُبْطِلِ ويأخذ حَقَّهُ مِنْهُ ، ويعامل المحقُّ بما يستحقه والمبطلُ بما يستحقه . وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه وبين مُكَذِّبِيهِ ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه ، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق ، وتلك الآيات أنواع متعددة ويحكم له أيضا بالنجاة والنصر والتأييد ، وسعادة الدنيا والآخرة ، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب ، وشقاء الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ فيُظْهِرُهُ بالدلائل والآيات العلمية التي تُبَيِّنُ أنه حق ، ويُظْهِرُهُ أيضا بنصره وتأييده على مخالففيه ، ويكون منصورا كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ﴾ فهذه شهادة حُكْمٍ كما قَدَّمْنَا ذلك في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ اهـ وقوله تعالى : ﴿ أنئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ تأكيدٌ على إيجاب التوحيد وتحذيرٌ من الشرك بأبلغ وجوه التأكيد وأعظم طرق البيان حيث أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن ينكر على المشركين ادعاءهم لله شريكا مُورِدًا ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مفيدا أن من يدعى لله شريكا فهو شاهد زورٍ يجب على كل عاقل أن يحذر من مثل هذه الشهادة الفاجرة وأن يجتنبها وأن يخلص التوحيد لله وحده وأن يتبرأ من الشرك والمشركين .

قال تعالى: الَّذِينَ اتَّبَعْنَا هُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أنه شهد لرسوله ﷺ وأن شهادة الله هي أجل شهادة وأكبرها وأعظمها أردف ذلك هنا ببيان أن أهل العلم من أهل الكتب السابقة موقنون بمحمد ﷺ وأنه رسول الله وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بسبب صفاته التي جاءت في الكتب السماوية السابقة حيث كانت رسل الله صلى الله عليه وسلم يوصون أممهم به، ويحضونهم على اتباعه إذا بُعث، وقد وَقَفَ آخَرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خَطِيئًا يُشْرِكُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ يقول لهم: «يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى شهادة أهل العلم من أهل الكتاب الأول بتصديق محمد ﷺ في غير موضع من القرآن العظيم حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مُرْسَلًا، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ كما أشار الله تبارك وتعالى إلى معرفة أهل الكتاب أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وكما قال عز وجل

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ وقال هنا : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ وقد قال محمد ابن إسحاق في السيرة النبوية : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس قال : حدثني سلمان الفارسي من فيه وساق الحديث إلى أن قال : لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال : أقم عندي ، فأقمت عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كانت لي بقراتٌ وغَنِيمةٌ ، قال : ثم نزل به أمرُ الله ، فلما حُضِرَ قلت له : يا فلان ، إني كنتُ مع فلان فأوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلانٌ إليك ، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال : أي بُنَى والله ما أَعْلَمُهُ أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أَمْرُكَ به أن تأتيه ، ولكنه قد أَظَلَّ زمانُ نبي ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجرةً إلى أرض بين حَرَّين ، بينهما نخل ، به علاماتٌ لا تخْفَى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، الحديث . وقوله عز وجل : ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ تأكيد لتقرير ما ذكره تبارك وتعالى في الآية الثانية عشرة من هذه السورة الكريمة ببيان أن الذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون برسول الله ﷺ مهما جاءهم من الآيات ومهما تواترات على صدقه ﷺ من الشهادات ، إذ قد شهد الله عز وجل له وعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم بأنه النبي المبعوث بدين إبراهيم الذي يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخل بين لابتين ، في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة في علامات

أخرى لا تخفى ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره : ومن أشدُّ اعتداءً وأخطأً فعلاً وأحطلُ قولاً ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يعنى : ممن اختلق على الله شيئاً باطلاً واخترق من نفسه عليه كذبا ، فزعم أنَّ له شريكا من خلقه ، وإلها يُعبدُ من دونه ، كما قاله المشركون من عبدة الأوثان ، أو ادَّعى له ولدا أو صاحبة كما قالته النصارى ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يقول : أو كَذَّبَ بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم ، كذبت بها اليهود ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ يقول : إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل ، ولا يدركون البقاء في الجنان ، والمفترون عليه الكذب ، والجاحدون بنبوة أنبيائه اهـ وقد جمع المشركون واليهود والنصارى أفحش الظلم حيث كَذَّبُوا بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق ، وضمُّوا إلى هذا التكذيب افتراء الكذب على الله حيث كان المشركون إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، وحيث كان اليهود والنصارى يزعمون أن شريعتهم غير قابلة للنسخ وأن الله أمرهم وعهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار ، وقالت اليهود : عزيزُ ابنُ الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، ثم ذكر عز وجل مشهداً من مشاهد القيامة يُعَجِّبُ فيه رسول الله ﷺ من أن الكذب والافتراء يلزم أعداء الله حتى في عرصات القيامة إذ يحلفون بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وفي إيراد هذا

المشهد العظيم تقرير للحشر والبعث بعد الموت الذي أنكره المشركون أشد
 الإنكار مع ما تضمنه هذا المشهد من توبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس
 الأشهاد وبيان حيرتهم ويأسهم من شفاعة أصنامهم وأوثانهم لهم ، وقد كانوا
 يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله عز وجل ، كما قال تبارك وتعالى :
 ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا
 عند الله﴾ ولذلك يوبخهم عز وجل في هذا المقام وقد نزلت بهم الطامة
 والداهية التامة حيث يناديهم : ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ وكما
 قال عز وجل : ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾
 ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا
 مشركين﴾ أي وما كان جوابهم ومعذرتهم ومقالتهم إلا أن حلفوا بالله ربهم
 أنهم ما كانوا مشركين ، وظنوا أن كذبهم في عرصات القيامة ينفعهم ، قال أبو
 إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج في كتاب معاني القرآن وإعرابه : وتأويل
 هذه الآية تأويل حسن في اللغة لطيف ، لا يفهمه إلا من عرف معاني الكلام
 وتَصَرَّفَ العرب في ذلك ، والله جل وعز ذكر في هذه الأقايصص التي جرت
 في أمر المشركين وهم مُفْتَتِنُونَ بشركهم أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم
 وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وانتفوا منه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين
 ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يُحِبُّ غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه
 فتقول له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه اهـ وقد نقل المفسرون
 عبارة الزجاج هذه بالفاظ ، فقال محيي السنة البغوي في معالم التنزيل : وقال
 الزجاج : في قوله : ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف ، وذلك مثل الرجل
 يُفْتَنُ بمحبوب ، ثم يصيبه فيه محنة ، فيتبرأ من محبوبه ، فيقال : لم تكن فتنته
 إلا هذا ، كذلك الكفار فُتِنُوا بمحبة الأصنام ، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها ،
 يقول الله عز وجل : ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ ومحبتهم للأصنام ﴿إلا أن قالوا

والله ربنا ما كنا مشركين ﴿١﴾ اهـ وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : وقال أبو إسحاق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جدا ، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين واقتنائهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك ، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا ، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه ، فيقال : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه اهـ وقال الفخر الرازي : قال الزجاج : تأويل هذه الآية حَسَنٌ في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتَصَرَّفَ العرب في ذلك ، وذلك أن الله تعالى بَيَّنَّ كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم متهاككين على حبه ، فأعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتنائهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وتباعدا عنه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ، ومثاله : أن ترى إنسانا يحب غاويا مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه اهـ وقد ساق ابن الجوزي في تفسيره قول الزجاج بعبارة أخرى ، وقد أشار ابن تيمية رحمه الله إلى أن من شأن النفس الخائنة أن تدافع وتجادل الله بالباطل حيث قال رحمه الله : وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۚ﴾ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۚ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنكُم مَّشْرِكِينَ ۚ﴾ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿٣﴾ . وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة حتى يشهد عليه سمعُهُ وبصرُهُ وجوارحُهُ ، وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا

جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿ اهـ وقوله تعالى :
﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ قال ابن
جرير رحمه الله : ومعنى النظر في هذا الموضع النظر بالقلب لا النظر بالبصر
وإنما معناه : تَبَيَّنْ فاعلم كيف كَذَّبُوا في الآخرة . اهـ والمقصود تعجيب
رسول الله ﷺ وغيره من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم في
الدنيا ، ومعنى ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وغاب عنهم أصنامهم
وأوثانهم بعد أن زَيَّلَ الله بين الأصنام وعابديها وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى :
﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ إذ الأغلال في
أعناقهم والسلاسل يُسْحَبُونَ * في الحميم ثم في النار يُسْجَرُونَ * ثم قيل لهم
أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل
شيئاً ، كذلك يُضِلُّ الله الكافرين ﴿

قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ
 يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ
 وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا
 لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ
 مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أن أهل العلم من أهل الكتاب موقنون
 بمحمد ﷺ وأنه رسول الله حقًا وصدقًا وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم
 وبيّن تبارك وتعالى أن أشد الناس ظلمًا من افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته
 وذكر مشهدًا من مشاهد القيامة يُعَجِّب فيه رسول الله ﷺ من أن الكذب
 والافتراء من صفات أعداء الله حتى في عرصات القيامة ، مع ما يفيد ذكر
 هذا المشهد من تقرير النشر والحشر وتوبيخ المشركين وتقريرهم على رؤوس
 الأشهاد يوم القيامة شرع هنا في زيادة تقرير ما تضمنه المقام المتقدم ببيان
 حال المشركين عند سماع القرآن في الدنيا ، وبيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر
 الأكبر ، وما يلاقونه من الحسرة والندامة يوم القيامة ، حيث ذكر هنا مشهدًا
 من مشاهد الآخرة يُظْهِرُ فيه الكافرون حسرتهم على تكذيبهم بآيات ربهم
 ويتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا لِيُصَدِّقُوا رسول الله ﷺ وأعلم الله عز وجل
 رسوله ﷺ أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكذيب رسول الله ﷺ بعد
 معاينتهم نار جهنم بأبصارهم ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال
 ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ
 إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال أبو جعفر :

يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام من قومك يا محمد ﴿من يستمع إليك﴾ يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك وأمره ونهيه ولا يفقه ماتقول، ولا يؤعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغى له سمعه ليتفقهه فيفهم حُجَجَ الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يَسْمَعُ صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جَعَلَ على قلبه ﴿أَكَنَةً﴾ وهي جمع كِنَانٍ وهو الغطاء، مثل سِنَانٍ وأسنَةٍ، يقال منه: أَكَنَنْتُ الشيءَ في نفسي، وَكَنَنْتُ الشيءَ إذا غَطَّيْتَهُ، ومن ذلك ﴿يَبْئُضُ مَكْنُونٌ﴾ وهو الغطاء، ومنه قول الشاعر:

تَحَتَّ عَيْنِ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلٍ

يعنى: غطاؤهم الذي يكنهم «وفي آذانهم وقرا» يقول تعالى ذكره: وجعل في آذانهم ثِقَلًا وَصَمًا عن فهم ما تتلوه عليهم والإصغاء لما تدعوهم إليه، والعَرَبُ تفتح الواو من الوقْرِ في الأذن وهو الثَّقَلُ فيها، وتكسِرُها في الحمل فتقول: هو وقْر الدابة، ويقال من الحمل: أوقرت الدابة فهي موقرة، ومن السَّمْعِ وقَرتُ سمعه فهو موقور، ومنه قول الشاعر:

ولي هامةٌ قد وقَرَ الضَرْبُ سَمْعَهَا

وقد ذَكَرَ سماعاً منهم: وَقَرتُ أُذُنُهُ، إذا ثقلت فهي موقورة، وأوقرت النخلة فهي موقرة، كما قيل: امرأة طامث، وحائض، لأنه لاحظ فيه للمذكر، فإذا أريد أن الله أوقرها قيل: موقرة، وقال تعالى ذكره: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه» بمعنى: أن لا يفقهوه كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم أَن تَضِلُّوا﴾ بمعنى: أن لا تضلوا لأن الكنَّ إنما جُعِلَ على القلب لئلا يفقهه لا ليفقهه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء العادلون

بربهم الأوثان والأصنام الذين جَعَلْتُ على قلوبهم أكنةً أن يفقهوا عنك ما يسمعون منك ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾ يقول : كُلَّ حجة وعلامة تدلُّ أهلَ الْحِجَى والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿لا يؤمنوا بها﴾ يقول : لا يصدقون بها ولا يقرون بأنها دالة على ما هي عليه دالة ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يقول : حتى إذا صاروا إليك بعد معانيتهم الآيات الدالة على حقيقة ما جئتهم به «يجادلونك» يقول : يخاصمونك «يقول الذين كفروا» يعنى بذلك : الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتج بها عليهم ، وبيَّانه الذي بيَّنه لهم «إن هذا إلا أساطير الأولين» أي ما هذا إلا أساطير الأولين ، والأساطير : جمع إسطورة ، وأسطورة مثل : أفكوهة وأضحوكة ، وجائرٌ أن يكون الواحد «أسطاراً» مثل : آيات وأبائيت وأقوال وأقاويل ، من قول الله تعالى ذكره : ﴿وكتابٌ مسطورٌ﴾ من سطر يسطر سطرًا ، فلماذا كان من هذا فإنَّ تأويله : ما هذا إلا ما كتبه الأولون اهـ والمراد من قول الطبري رحمه الله : وجائرٌ أن يكون الواحد أسطارا هو أن تكون أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فأساطير جمع الجمع مثل أبائيت جمع آيات وآيات جمع بيت فأبائيت جمع الجمع وكذلك أقاويل جمع أقوال ، وأقوال جمع قول ، فأقاويل جمع الجمع ، ومعنى قوله عز وجل ﴿وهم ينهون عنه وَيَنْشُونَ عَنْهُ﴾ أي وهؤلاء المشركون الجاهلون ، المفترون على الله الكذب المكذبون بآيات الله ، المجادلون بالباطل الواصفون كلام الله الذي هو أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنه أساطير الأولين وخرافات المتقدمين ، هؤلاء الجاهلون قد انغمسوا في الكفر والضلال إلى الغاية القصوى ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بجريمة وصف القرآن بأنه أساطير الأولين بل بذلوا كل ما يطبقون في نهى الناس عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ مخافة أن تجذبهم حلاوة ما يسمعون منه إلى الدخول في الإسلام

كما ضَمُّوا إلى ذلك كذلك حِرْصَهُمْ على النأى والتباعد عن رسول الله ﷺ إظهاراً لغاية نفورهم منه وتأكيذاً لِنَهْيِهِمْ عنه ، ولقد كانت قريش تبذل قصارى جهدها في تنفير العرب عن رسول الله ﷺ ويصفونه بأنه ساحر وبأنه شاعر وبأنه مُعَلِّمٌ مجنون ، ويقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، ومعنى قوله : ﴿ وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ ﴾ أي ويتباعدون عنه ، وفي قوله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ ﴾ أسلوب من أساليب البديع وهو الجناس المُعَرَّف في علم البديع من علوم البلاغة بأنه تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى ، وهو أنواع منها : الجناس المضارع وهو ما يكون باختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعدَا تَحَرُّجًا ، إما في الأول نحو قولهم : ليل دامس وطريق طامس ، وإما في الوسط نحو قوله عز وجل هنا : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ وإما في الآخر نحو قوله صلى الله عليه وسلم : الخيل معقود في نواصيها الخير ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يُلْكُوكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وما يُتْلَفُ ولا يُعْطَبُ هؤلاء المكذبون الذين يَنْهَوْنَ عنه وينأون عنه إلا أنفسهم ولا يعود وبأل عملهم إلا عليهم وهم لا يُحْسُون بفداحة جُرمهم وفظاعة ما يحيق بهم وما يَجْزُهُ عليهم كفرهم بالله وصددهم عن سبيله حيث يحملون يوم القيامة أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِبْكُمْ قَالُوا أَطِيرُ الْأُولِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يُبَيِّنُ الله تبارك وتعالى فيه حال الذين كذبوا بالحق لما جاءهم وكانوا يَنْهَوْنَ عنه وينأون عنه ويُقرر حالة من حالاتهم المفزعة في عرصات

القيامة لتأكيد ما تضمنه ما حذرهم به الله عز وجل حيث قال في الآية السابقة: ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ والمخاطب في قوله عز وجل: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ كل من تتأتى منه الرؤية، للإشارة إلى بيان نهاية سوء أحوالهم وبلوغها الغاية القصوى من الشناعة والفظاعة حتى أصبحت لا يختص باستغرابها راءِ دُونَ راءِ بل كل من تتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وقد حُذِفَ جواب «لو» ثقة بظهوره، وإشارة إلى الذهاب فيه كل مذهب يعنى: لرأيت أمراً فظيعاً، وهولاً خطيراً، ومنظراً هائلاً وقد أفرد علماء البلاغة للحذف باباً في علم المعاني من علوم البلاغة، واعتبروه من أعظم أساليب الفصاحة حتى قال عبد القاهر الجرجاني: إنه بابٌ دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه تَرَكَ الذكر أفصح من الذكر الخ. . . ومعنى قوله: «وقفوا على النار» أي عرّضوا على النار، قال ابن جرير رحمه الله: وقيل «وقفوا» ولم يقل: أوقفوا، لأن ذلك هو الفصيح من كلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فقالوا ياليتنا نُرَدُّ ولا نُكذَّبُ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا: ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ يَتَمَنُّونَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى: ﴿بل بدأ لهم ما كانوا يُخفون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلى أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كَذَّبُوا على أنفسهم﴾ اهـ ومعنى

«بل» في قوله تعالى : ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ للإضراب الإيطالي أي ليس الحال كما زعموا، فهي بمعنى «كلا» والمعنى ليس الحامل لهؤلاء الكفرة على تمنيتهم وطلبهم الرجعة إلى الدنيا هو الرغبة في الإيمان بل حملهم على ذلك ما ظهر لهم من أن ما أضمره من الكذب على الله وزعمهم بأنهم ما كانوا مشركين لا ينفعهم وأنه لن ينجو إلا من آمن في الدنيا ومات على الإيمان وبين عز وجل أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لرجعوا إلى الكفر وأنهم متمرسون على الكذب، كما قال عز وجل قبل آيتين من هذه الآية ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوَابَهَا﴾ وفي هذه الآية دليل قطعي على شمول علم الله عز وجل لما كان وما يكون وما هو كائن وأنه عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون، وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . وَلَوْ تَرَى إِذْ يُوقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مشهدا من مشاهد القيامة يَبَيِّنُ فيه موقف الذين كفروا حين عرضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الحياة الدنيا دار العمل ليؤمنوا ويَبَيِّنَ العليمُ الخبيرُ أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه ، مما يدل على أنهم مَجْبُولُونَ على الكذب ، مطبوعون على الكفر ، مُعَوَّدُونَ لمخالفة الأمر والنهي يَبَيِّنُ عز وجل هنا : أن هؤلاء الكافرين لو رجعوا إلى الحياة الدنيا لرجعوا إلى الكفر وتكذيب المرسلين ولقالوا ورددوا ما كانوا يقولونه وَيُرَدَّدُونَهُ قبل معاينة النار من مقاتلهم : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا لا مَعَادَ بعدها وما نحن بمبعوثين ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ثم ذكر عز وجل مشهدا آخر من مشاهد القيامة يبين فيه موقف الذين كفروا حين يُعْرَضُونَ على ربهم وما يَتَوَلَّى إليه حالهم فقال عز وجل : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يُوقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ولو ترى يا من تتأتى منه الرؤية هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث بعد الموت المكذبين بأن العباد موقوفون بين يدي ربهم مجزيون بأعمالهم لو تراهم في موقفهم عند عرضهم على الله عز وجل يوم القيامة أي لرأيتهم في منظر تقشعر منه الأبدان ويشيب منه الولدان وقد سألهم ربهم سؤال توبيخ وتقريع قائلا

لهم : أليس هذا البعثُ والنشْرُ بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقاً؟
 فأجابوا قائلين : بلى والله إنه لحَقٌّ وقد أكدوا إقرارهم بالقسم إظهاراً للكمال
 يقينهم بحقيقته ، وإيداناً بصدور ذلك عنهم رغبة وطَمَعاً في نفعه ، فأياسُهُم
 عز وجل من رحمته وقَطَعَ أطماعهم في انتفاعهم بالإيمان في عرصات القيامة
 ما داموا قد ماتوا على الكفر بالله تعالى حيث قال عز وجل : ﴿ فذوقوا العذاب
 بما كنتم تكفرون ﴾ أي فَأَحْسُوا بطعم العذاب بسبب كفركم في الدنيا ، ولا
 معارضة بين قوله عز وجل هنا : ﴿ قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ،
 قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وبين قوله تبارك وتعالى ﴿ ولا يكلمهم
 الله يوم القيامة ﴾ لأن المنفى هو الكلام النافع لهم المشتمل على رحمتهم أو
 تكرمهم والمُثَبِّت هو الكلام المشتمل على توبيخهم وتقريعهم وإهانتهم قال
 محيي السنة الإمام البغوي في تفسير قوله عز وجل : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾
 يعني أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ إنه حق ، قال
 ابن عباس : هذا في موقف ، وقولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ في موقف
 آخر ، وفي يوم القيامة مواقف ، ففي موقف يقرون وفي موقف ينكرون اهـ وقد
 ذكر الله تبارك وتعالى عَرَضَ العباد على الله يوم القيامة لمحاسبتهم حيث يقول
 تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
 فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
 وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَنَانًا * فَيَوْمَئِذٍ
 تُعَرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَا أقرءوا
 كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ
 عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا
 مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَذِرْ مَا حَسَابِيَةَ * يَا
 لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَن مَّالِيهِ * هَلْكَ عَن سُلْطَانِيَةٍ * خَذَوهُ

فَعَلُّوهُ * ثم الجحيم صَلُّوهُ * ثم في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *
 إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وقد روى
 البخاري ومسلم من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ
 قال : مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ ، فَقُلْتُ : أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ
 كِتَابَهُ يَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَينْقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾
 فقال : إنما ذلك العَرَضُ ، وليس أحد يُحَاسَبُ يوم القيامة إلا هَلَكَ : وقوله
 تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ
 بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ،
 أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * وما الحياة الدنيا إلا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
 يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مَسْوقٌ لترسيخ حَقِيقَةِ البعث بعد الموت ، وَتَرْبِيَةِ مَلَكَةِ
 الإِيْمَانِ بِالْدارِ الْآخِرَةِ فِي النَفُوسِ ، وَعَرَضَ مَشْهَدَ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ يُظْهِرُ مَا
 يَلَاقِيهِ الْمَكْذِبُونَ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ وَمَا يَحْمِلُونَهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ مِنَ الْأَوْزَارِ
 وَالْآثَامِ مَعَ التَّكْيِيدِ عَلَى مَا جَلَبُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْخُسْرَانِ حَيْثُ ضَيَّعُوا
 عَلَى أَنْفُسِهِمْ نَعِيمَ الْجَنَاتِ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، وَرَضُوا بِبَعْضِ الْمُلَذَّاتِ وَاطْمَأَنَّنُوا
 بِهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . ومعنى قوله
 تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ أي قَدْ هَلَكَ وَوَكِسَ مِنْ
 كُفْرِ بَعْرِضِ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَذَّبَ بِالْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْحِسَابِ
 وَالْجَزَاءِ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ خَسِرَ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا
 فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَعْنِي تَعَالَى ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ قَدْ هَلَكَ وَوَكِسَ فِي بَيْعِهِمُ الْإِيْمَانَ بِالْكَفْرِ ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبُعْثَ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالشَّوَابَ وَالْعِقَابَ وَالْجَنَّةَ
 وَالنَّارَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي ذَلِكَ . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ

الساعة ﴿ يقول حتى إذا جاءتهم الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم ، وإنما أُدْخِلَتِ الألفُ واللامُ في ﴿ الساعة ﴾ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها ، وأنها مقصود بها قَصْدُ الساعة التي وصفت ويعني بقوله : ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير علم مَنْ تَفْجُوهُ بوقت مفاجأتها إياه يقال منه : بَغْتُهُ أَبْغَتْهُ بَغْتَةً ، إذا أَخَذْتَهُ كَذَلِكَ . ﴿ قالوا يَا حَسْرَتَنَا على ما فَرَطْنَا فيها ﴾ يقول تعالى ذكره : وَكَيْسَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ يَبِيعُهُمْ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِمَنَازِلٍ مِنْ اشْتَرَوْا مَنَازِلَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ النَّارِ ، فَإِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا إِذَا عَاينُوا مَا بَاعُوا وَمَا اشْتَرَوْا وَتَبَيَّنُوا خَسَارَةَ صَفْقَةِ بَيْعِهِمْ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَنْدُمًا وَتَلَهُفًا عَلَى عَظِيمِ الْغَبَنِ الَّذِي غَبْنُوهُ أَنْفُسَهُمْ وَجَلِيلِ الْخُسْرَانِ الَّذِي لَا خُسْرَانَ أَجَلَ مِنْهُ : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا على ما فَرَطْنَا فيها ﴾ يقول يَا نَدَامَتَنَا عَلَى مَا ضَيَعْنَا فِيهَا ، يَعْنِي صَفَقَتَهُمْ تِلْكَ . وَالْهَاءُ وَالْألفُ فِي قَوْلِهِ ﴿ فِيهَا ﴾ مِنْ ذِكْرِ الصَّفْقَةِ ، وَلَكِنْ اكْتَفَى بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ عَلَيْهَا مِنْ ذِكْرِهَا إِذْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ الْخُسْرَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي صَفْقَةِ بَيْعٍ قَدْ جَرَتْ . وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ : قَدْ وَكَيْسَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ بَيْعَهُمْ الْإِيمَانَ الَّذِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ مِنَ اللَّهِ رِضْوَانَهُ وَجَنَّتَهُ بِالْكَفْرِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ مِنْهُ سَخَطَهُ وَعَقُوبَتَهُ ، وَلَا يَشْعُرُونَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْخُسْرَانِ فِي ذَلِكَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً فَرَأَوْا مَا لَحَقَهُمْ مِنَ الْخُسْرَانِ فِي بَيْعِهِمْ قَالُوا حَيْثُ نَدَدْنَا : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا على ما فَرَطْنَا فيها ﴾ ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴿ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ ﴾ مَنْ ذَكَرَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ يَقُولُ : آثَامُهُمْ وَذُنُوبُهُمْ ، وَاجِدْهَا وَزَرَ يُقَالُ مِنْهُ : وَزَرَ الرَّجُلُ يَزِرُ إِذَا أَثِمَ قَالَ اللَّهُ : ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ فَإِنْ أُريدَ أَنَّهُمْ أَثِمُوا قِيلَ قَدْ وَزَرَ الْقَوْمُ

فهم يُوزَرُونَ، وهم مُوزَرُونَ، اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ تحذير وترهيب من الاغترار بالحياة الدنيا الفانية والانتقطاع لها، وترغيب في الأعمال الصالحة المورثة لجنات النعيم في الدار الآخرة الباقية، فإن متاع الحياة الدنيا أشبه باللهو واللعب إذا قيس بنعيم الآخرة قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ قال أبو جعفر : وهذا تكذيب من الله تعالى ذكره هؤلاء الكُفَّار المنكرين البعث بعد الممات في قولهم : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يقول تعالى ذكره مكذباً لهم في قائلهم ذلك : ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أيها الناس ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يقول : ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم وقرَّبت منكم في داركم هذه ونعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها والمنافس عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذَّها، أو تأتيه الأيام بفجائعتها وصروفها فتُمِرُّ عليه وتكدرُ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهو ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا ويورثه منه ترحًا، يقول : لا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يندمُ، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول وَلَلْعَمَلُ بِطَاعَتِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَبْقَى مَنَافِعُهَا لِأَهْلِهَا وَيَدُومُ سُرُورُ أَهْلِهَا فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الَّتِي تَفْنَى وَشَيْكَا، فلا يبقى لِعَمَالِهَا فِيهَا سُرُورٌ وَلَا يَدُومُ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يقول للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه والمسايرة إلى رضاه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول : أَفَلَا يَعْقِلُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ بِالْبُعْثِ حَقِيقَةَ مَا نَخْبِرُهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَهُمْ يَرُونَ مَنْ يُحْتَرَمُ مِنْهُمْ وَمَنْ يَهْلِكُ فِيَمُوتُ وَمَنْ تُنَوِّبُهُ فِيهَا النَّوَائِبُ وَتُصِيبُهُ الْمَصَائِبُ وَتَفْجَعُهُ الْفَجَائِعُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَ مَذْكَرٌ وَمَزْدَجَرَ عَنِ الرُّكُونِ إِلَيْهَا

واستعباد النفس لها ودليل واضح على أن لها مدبّرًا ومُصرّفًا يلزم الخلق إخلاص العبادّة له بغير إشراك شيء سواه معه اهـ وفي التزهيد في الدنيا والتحذير من أن يجعلها الإنسان كل همّه وفي الترغيب في الآخرة يقول عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْوَلَدُ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكُفَّارُ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُكَونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قال تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل مشهدا من مشاهد القيامة بيّن فيه موقف الذين كفروا حين عُرضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تمنّوا أن يُردّوا إلى الدنيا دار العمل ليؤمنوا ويبيّن عز وجل أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ثم ذكر عز وجل مشهدا آخر من مشاهد القيامة بيّن فيه موقف الذين كفروا عند عرضهم على ربهم يوم القيامة وذكر فيه إقرارهم بالحق ، وما يؤول إليه حالهم من الخسران والهلاك وسوء العذاب والحسرة والندامة ولفت تبارك وتعالى الانتباه إلى حقية البعث ورهبّ من الاغترار بالحياة الدنيا ورغب في الأعمال الصالحة المورثة لجنات النعيم شرع هنا في تقرير أن كفار مكة مقرّون في قرارة قلوبهم بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا لما يعرفونه من صدقه فإنهم ما جرّبوا عليه كذبا قط قبل أن يخبرهم بأنه رسول الله وقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، وأشار عز وجل إلى أن تكذيب قريش لرسول الله ﷺ هو من باب جحود الحق مع إقرار القلب بحقيقته ثم وصى رسوله ﷺ بأن رُسُلَ الله عليهم الصلاة والسلام صبروا على ما كُذِّبُوا وأودوا حتى أتاهم نصر الله ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ * ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ ومعنى ﴿قَدْ﴾ في قوله تبارك وتعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ هو التحقيق وتأكيد العلم بما ذكر في حيزها المفيد لتأكيد الوعيد، والأصل في قد أنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التحقيق كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاها * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أما إذا دخلت قَدْ على الفعل المضارع فإنها تستعمل كثيراً في التقليل نحو: قَدْ يَصْدُقُ الكذوبُ، كما تستعمل في التحقيق كما في قوله عز وجل هنا: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ ونحو قول الشاعر الهذلي أو عبيد بن الأبرص .

قَدْ أَتَرَكَ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلُهُ كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مَجَّتْ بِفِرْصَادِ

ولا تستعمل قد مع الفعل المضارع للتحقيق إلا عند كون الأمر في غاية الوضوح بحيث لا يحظر على البال إرادة التقليل، ويكون التعبير بالمضارع لنكتة بلاغية كإرادة التجدد أي قد علمنا ما يتجدد لك من الحزن والغم عندما يتجدد منهم ما يتجدد من سوء قولهم لك وتكذيبهم إياك، وقد كان رسول الله ﷺ يتأسف على ما يلاقيه من قومه من الأذى وعلى ما يقابلون به دعوته من أقوالهم القبيحة كقولهم: إنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو معلم مجنون، كما يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أن الذي يعلمه بشر أو أنه أساطير الأولين، وقد كان رسول الله ﷺ من شدة حرصه على إيمانهم يكاد يبخل نفسه من الحزن كما قال عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ﴾ كَشَفْتُ لحقيقة ما انطوت عليه نفوس المشركين

من أهل مكة وأنهم في قرارة قلوبهم يوقنون بأن محمداً هو رسول الله حقاً
وصدقاً وأن تكذيبهم له ﷺ هو من باب جحود الحق مع العلم بحقيقته عناداً
واستكباراً، كما قال عز وجل في فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا، فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقد أبرز أبوطالب هذه الحقيقة وأعلن أنه موقنٌ
بأن محمداً هو رسول الله وإنما يمنعه من الدخول في الإسلام ما يخشاه من
مسبة آبائه الذين ماتوا في الجاهلية حيث يقول في لاميته المشهورة:

فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ أَجِيءَ بِسُوءِ نَجْرٍ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبَ
لَدَيْنَا وَلَا يُعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
حَدِثُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحِمِيَّتُهُ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذَّرَا وَالْكَلاكِ
وكما قال أبو طالب في نونيته المشهورة:

ودعوتني وعلمتُ أنك صادق ولقد صدقتُ وكنتَ قبلُ أميناً
وعرضتُ ديناً قد علمتُ بأنه من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذاري سببه لوجدتني سمحاً بذاك مميناً
وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا
وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ مواساةً لرسول الله ﷺ وتسلياً من الله تبارك وتعالى
له عما يناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق بيان أن
إخوانه من المرسلين قد نالهم الأذى الشديد من أمهم فكذبوهم كما كذبت
قريش وألحقوا بهم من المكروه فصبروا على ما نالهم من التكذيب والأذى حتى
حكم الله بينهم فنصر رسلاً والذين آمنوا، وأهلك الكافرين، فاصبر كما
صبروا فإن نصر الله قريب، كما قال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ
وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

المجرمين ﴿ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي لا ناقض لما
حكم الله ، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، كما قال
عز وجل ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ * إنهم لهم المنصورون * وإنَّ
جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ
مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ولقد قصصنا عليك من أخبار الرسل مع أمهم الذين
كذبوهم وكيف نصرنا رسلنا على أعدائهم وأيدناهم على من كذبوهم وجعلنا
العاقبة الحسنی لعبادنا الصالحين ، وأخذنا أعداء الله أخذ عزيز مقتدر ، كما
قال عز وجل : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ *
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عَيْنُونَا فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ *
تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ
النَّاسَ كَانِهِمْ أَعْجَازٍ نَخْلٍ مَنْقَعٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ وقال عز
وجل : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ * فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَلَلْقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ * سَيَعْلَمُونَ
غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ * إِنَّا مُرْسِلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . إِلَى
قَوْلِهِ عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴾
وقال عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ
لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ وفي قوله
تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إشارة إلى أن ما قصَّ الله تبارك
وتعالى من قصص الأنبياء هو قصص بعضهم لا قصص جميعهم ، كما قال

عز وجل ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تأكيد وحض لرسول الله ﷺ على الصبر ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا، وأنه ليس بيد أحد من خلق الله هداية الكافرين وأن قلوبهم بيد الله وحده، يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن الجاهلين هم الذين لَا يُفَوِّضُونَ أمورهم إلى الله، ولا يستسلمون لأقدار الله، ومعنى قوله عز وجل ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي وإن كَانَ عَظُمَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ إِعْرَاضُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ عَنْكَ، وتكذيبهم لك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق، وشق عليك ذلك ولم تصبر على ما يصيبك من أذاهم فلا يخطر على بالك إجابتهم إلى ما يقترحونه من الآيات لأنك لو صعدت إلى السماء أَوْ هَبَطْتَ إِلَى أَعْمَاقِ الْأَرْضِ لتأتيهم بآية ليؤمنوا بها فلن يؤمنوا، وهذا ليس في استطاعتك ومقدورك فما عليك إِلَّا الصَّبْرُ، واحتساب ما يصيبك عند الله عز وجل ولو شاء الله عز وجل هدايتهم لهداهم أجمعين فأبعد الحزن عن نفسك ولا يشتد تحسُّركَ على تكذيبهم ولا تجزع على إعراضهم عنك لأن الجزع من صفات الجاهلين، لأنهم هم الذين إِذَا مَسَّهُمُ الْأَذَى جَزَعُوا، أما المؤمنون فإنهم إِنْ أَصَابَتْهُمْ الضَّرَاءُ صَبَرُوا، وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ النِّعْمَاءُ شَكَرُوا، وَأَنْتَ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومٌ مِنَ الْمَعَاصِي فَإِذَا وَرَدَ نَهْيُهُ عَنْ شَيْءٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى هُنَا : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي إِمْكَانَ

الوقوع فيه لما تقرر من القاعدة الأصولية أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، والنَّفَقُ في الأرض هو الطريق النافذ في باطن الأرض، والسُّلَم هو المصعد والدَّرَج، وجواب الشرط في قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ محذوف للعلم به تقديره : فافعل أي إنك لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله ، وقد صبر رسول الله ﷺ كما أمره الله عز وجل وحض أصحابه على ذلك وبشرهم بأن أمر الإسلام سيتم فقد روى البخاري من حديث خباب بن الارت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فقال : كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ. وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ، مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

بعد أن قرر فيما مضى أن على قلوب الكفار أكنة مانعة من الفقه وفي آذانهم وقرا حاجزا من السماع ووَاسَى رسوله ﷺ بضروب من المواساة، وحذره من أن يكبر عليه إعراض هؤلاء المعرضين عنه، أكد ذلك هنا بأن هؤلاء الكفار من قبيل الموتى الذين لا يجيبون من يناديهم، ولو أراد الله عز وجل إحياء قلوبهم بالإيمان لأحيّاها فهو وحده القادر على أن يجمعهم على الهدى لو شاء، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: لا يكبرنَّ عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك وعن الاستجابة لدعائك، إذا دعوتهم إلى توحيد ربهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهل لهم اتباع الرُّشد، دُونَ من ختم الله على سمعه فلا يَفْقَهُ من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعَاتِهَا فَهَمَّ كما وصفهم به الله تعالى ذكره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يقول: والكفار يبعثهم مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا

يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حُجَجَ الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزعرون عما هُم عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم، ثم قال رحمه الله: وأما قوله: ثم إليه يُرْجَعُونَ. فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئاً فيثبُ هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعده أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحداً منهم مثقال ذرة اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيان لشدة عنادهم وفرط جهلهم وبلوغهم الغاية في الضلال والطغيان حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من المعجزات وما جاءهم من الآيات البينات التي تحر له صم الجبال، حتى اجترأوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات واقترحوا أن تمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم كما ذكر ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما اقترحوا أن تُنْزَلَ عليهم الملائكة أو يكلمهم الموتى أو يُفْجَر لهم من الأرض ينبوعاً أو يكون له بيت من ذهب أو يرقى في السماء أو يأتيهم بالله عز وجل كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرؤه، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يعجزه أن ينزل آية، وأنه قادر على خرق نظام الكون إذا اقتضت حكمته ذلك، لكن

هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أنهم لو اقترحوا آية ثم لما جاءتهم لم يؤمنوا بها
أهلكهم الله عز وجل ، كما قال تبارك وتعالى هنا : ﴿ قل إن الله قادر على أن
ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وما منعنا أن نرسل
بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما
نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل في قصة المائدة حيث
يقول : ﴿ قال الله إن منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا
أعذبه أحدا من العالمين ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية
من ربه ﴾ دليل ظاهر على بطلان دعوى التفريق بين «نزل» و«أنزل» ، حيث
زعم بعض المشتغلين بعلوم أصول التفسير أن نزل تكون فيما نزل بالتدرج
وأنزل تكون فيما نزل جملة ، لأن الآية لا تنزل بالتدرج وقد أشرت إلى ذلك في
غير هذا الموضع أيضا ورددت على قائل هذه المقالة بهذه الآية وبقوله تبارك
وتعال : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وبينت أن
نزل وأنزل تأتي بمعنى واحد ، ونحو ذلك مهمل وأمهل ، ومنه قوله تبارك
وتعالى : ﴿ فمهمل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ ، و﴿ لولا ﴾ بمعنى هلا ،
والمقصود من قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا
أمام أمثالكم ﴾ لفت انتباه الناس ولا سيما هؤلاء المعاندين الجاحدين
المقترحين للآيات إلى أن الله عز وجل قد أقام الآيات في أنفس الناس وفيما
يشاهدونه من دواب الأرض وطيور السماء حيث خلق من كل جنس منها
زوجين اثنين ذكرا وأنثى في تركيب عجيب ، وحيث فاوت بين هؤلاء الخلائق
في صورهم ومداركهم وطبائعهم وأعطى كل شيء منها خلقه ثم هدى ،
فترى كل جنس منها يألف جنسه ، وكل عالم منها يتوالد ويتكاثر في عالمه ،
وكل هذه الأمم من الإنس والطير والدواب تتشابه في أمور كثيرة كمعرفة
طعامها وشرابها وسائر ما به قوامها وبقاء جنسها ، فالناس يتفاوتون في

أشكالهم وألوانهم وطبائعهم والدواب تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها، والطيور تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها ومع تباعد المواطن التي قد توجد فيها هذه الخلائق من الناس والدواب والطيور فإن الله عز وجل قد جعل لكل فرد منها أجهزة لطعامه وشرابه وبوله وبرازه فللناس والدواب والطيور قلب وكبد ورثان وكذلك سائر أجهزة الهضم وأجهزة التنفس وأجهزة للهجوم على حاجتها وأجهزة للدفاع عن أنفسها، وكل جهاز من هذه الأجهزة عالمٌ دقيقٌ عجيبٌ عظيمٌ، وكلها خاضعة للنظام الذي جعله لها فاطر السموات والأرض الذي خلق كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. ففي هذا التماثل والتشابه بين العوالم البشرية والعوالم الحيوانية من الدواب والطيور آيات بيناتٌ شاهداتٌ بأن الذي صنعها هو الله الحي القيوم الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الذي لا يعجزه أن يُنزل آية متى اقتضتها حكمته البالغة ومشيتته التامة التي لا راد لها، ولا يشك في ذلك إلا الجاهلون الذين لا يعلمون، وقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى بعض هذه العوالم فيما قصه من قصة النمل والنحل والهدد وغيرها، وفي قوله ﴿بجناحيه﴾ مع أن قوله ﴿يَطيْرُ﴾ يغني عنها، لدفع ما قد يتوهم من أن الطيران قد يقصد به السرعة على حد قول قريظ بن أنيف:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا.

قال الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه: وقال: ﴿يَطيْرُ بجناحيه﴾ على جهة التوكيد، لأنك قد تقول للرجل: طَرَّ في حاجتي أي أسرع اهـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: فإن قال قائل: فما وجه قوله: ﴿ولا طائر يَطيْرُ بجناحيه﴾ وهل يَطيْرُ الطائرُ إلا بجناحيه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟ قيل: قد قدّمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا

الكتاب بلسان قوم وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ، ويستعملونه في منطقهم خاطبهم ، فإذا كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا : كلمت فلانا بفمي ومشيت إليه برجلي وضربته بيدي ، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامهم ويستعملونه في خطابهم اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ جملة اعتراضية للفت الانتباه إلى أن القرآن الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الأمي محمد ﷺ آية بينة وحجة كافية للدلالة على أنه رسول الله حقا وصدقا ، فقد اشتمل على تبيان كل شيء ينير للإنسانية طريقها ويرشدها إلى منهج رشدتها ووجه الناس إلى النظر في آيات الله الكونية في النفوس والدواب والطيور مما لم تكن تعرفه العرب والعجم ولا سيما أهل مكة الأميين ، وكما قال عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي ثم يحییهم بعد مماتهم يوم القيامة ليجزي كل نفس بما كسبت ويقتص للجلحاء من القرناء ، والمقصود تأكيد الحشر والنشر وأن الحياة بعد الموت والرجوع إلى الله يوم القيامة ليس قاصرا على بني آدم وكما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ . قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط : وفي الحديث إن الله ليؤدِّي الحقوق إلى أهلها حتى يَفْتَصَّ للشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ نَطَحَتْهَا قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وهذا يبين أن الجلحاء من الشاة والبقر بمنزلة الجماء التي لا قرن لها . وفي حديث الصدقة : ليس فيها عَقْصَاءٌ وَلَا جَلْحَاءٌ ، هي التي لا قرن لها اهـ وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أن ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها

بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ تأكيد لما أفاده قوله عز وجل : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ بيان أن هؤلاء الجاحدين الكافرين قد سُلِبَتْ منهم لطائف السمع والبصر والكلام وإن بقيت معهم صور آذانهم وألسنتهم وأعينهم فهم صم بكم عمى ، كما قال عز وجل : ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ وقوله ﴿في الظلمات﴾ عبارة عن العمى ولا شك أن الأصم الأبكم إذا كان بصيرا ربما يفهم شيئا بإشارة غيره وإن لم يفهمه بعبارته وربما يعبر عما في نفسه بإشارته لانعدام عبارته أما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فإن باب الفهم والتفهم مُنْسَد عليه تماما ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ تأكيد لمضمون قوله عز وجل قريبا : ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

بعد أن بين عز وجل كمال عراقة المكذبين وتمام استغراقهم في الجهل والضلال ووصفهم بأنهم صُمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات شرع في تفريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم على تكذيبهم بآيات الله وكفرهم به واتخاذهم الأوثان والأصنام شركاء له عز وجل فأمر رسوله ﷺ بأن يُيَكِّتَهُمْ ويوبخهم ويلقِمَهُم الْحَجَرَ بما لا سبيل لهم إلى إنكاره فيقول لهم : أخبروني إن حَلَّتْ بكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفرزعون حينئذ إلى أصنامكم وأوثانكم وتدعونها لكشف الضر ودفع العذاب عنكم أم تفرزعون إلى الله وحده وَتَنْسَوْنَ أصنامكم وأوثانكم؟ ولا جدال عندهم في أنهم كانوا دائما لا يفرزعون في النكبات التي تصيبهم إلا إلى الله وحده كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زَيَّنَ لِّلْمُتَفَرِّقِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فلما أنجاهم إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ الآية . وكما

قال عز وجل : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه
تَجْتَئِرُونَ . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ وكما قال
عز وجل : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى
البرِّ إذ هم يشركون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وإذا مسَّ الناسُ ضرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ
مُنِيئِينَ إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ وكما قال
عز وجل : ﴿وإذا مسَّ الإنسانُ ضرًّا دَعَا رَبَّهُ مِنبِئًا إليه ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه
نسي ما كان يَدْعُو إليه من قبلُ وجعل الله أنداداً ليُضِلَّ عن سبيله ، قل تمتع
بِكفرِكَ قليلاً إِنَّكَ من أصحاب النار﴾ وقال عز وجل هنا : ﴿قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ
آتَاكُم عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُم السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بل إِيَّاهُ
تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ والعربُ إذا
أرادت الاستخبار عن شيء قالت للمخاطب : أَرَأَيْتَ ، بمعنى أَخْبِرْنِي ،
وإذا كان المخاطبُ اثنين أو اثنتين قالت العرب : أَرَأَيْتُمَا ، وإذا كان المخاطبُ
جماعة قالت العرب : أَرَأَيْتُمْ فإذا أرادت تأكيد الخطاب وزيادة لفت انتباه
المخاطب زادت الكاف وفتحت التاء فتقول : أَرَأَيْتَكَ وَأَرَأَيْتُكُمْ كما قال عز
وجل : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ وكما قال هنا : ﴿قل أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أي
قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين : أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُم عَذَابُ اللَّهِ أَوْ
أَتَتْكُم السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إِنْ أَصَابَتْكُمْ عِقَابُهُ مِنْ
اللَّهِ فِي دُنْيَاكُمْ أَوْ جَاءَتْكُم السَّاعَةُ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ أَتَفْرَعُونَ حِينَئِذٍ إِلَى أَوْثَانِكُمْ
وَأَصْنَامِكُمْ وَتَدْعُونَهَا لِكَشْفِ الضَّرِّ وَالْعَذَابِ عَنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ
وَزَعْمِكُمْ أَنَّ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ؟ وقوله عز وجل :
﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي
إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ فِي الشَّدَائِدِ أَصْنَامَكُمْ وَأَوْثَانَكُمْ وَلَا تَفْرَعُونَ إِلَيْهَا لِدَفْعِ الضَّرْرِ
عَنْكُمْ بَلْ تَفْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لِيَكْشِفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ لَعَلَّكُمْ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ

القادر على كشف الضر عن عباده، وهو سبحانه لا يكشف الضر إلا بمشيئته وحكمته، فقد يكون من الحكمة أن يكشف العذاب الدنيوي عنهم وقد يكون من الحكمة ألا يكشف العذاب الدنيوي عنهم كما أنه لا يكشف عذاب الآخرة عن المشركين أبدا، قال الزجاج «بل» استدراك، وإيجاب بعد نفي، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ فِي حَالِ الشَّدَائِدِ إِلَّا إِيَّاهُ، وفي ذلك أعظم الحجة عليهم، لأنهم قد عبدوا الأصنام اهـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مُكَذِّبًا لِهَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِهِ الْأَوْثَانُ: مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ الْإِلَهِةِ وَالْأَنْدَادِ، إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ بِمُسْتَجِيرِينَ بِشَيْءٍ غَيْرِ اللَّهِ فِي حَالِ شِدَّةِ الْهَوْلِ النَّازِلِ بِكُمْ مِنْ آلِهَةٍ وَوُثْنٍ وَصَنْمٍ، بَلْ تَدْعُونَ هُنَاكَ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَبِهِ تَسْتَغِيثُونَ، وَإِلَيْهِ تَفْرَعُونَ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ يقول: فَيَفْرُجْ عَنْكُمْ عِنْدَ اسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ وَتَضَرَّعِكُمْ إِلَيْهِ عَظِيمِ الْبَلَاءِ النَّازِلِ بِكُمْ إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْرَجَ ذَلِكَ عَنْكُمْ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَمَالِكٌ كُلِّ شَيْءٍ، دُونَ مَا تَدْعُونَهُ إِلَٰهَا مِنْ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يقول: وَتَنْسَوْنَ حِينَ يَأْتِيَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَكُمْ السَّاعَةُ بِأَهْوَالِهَا مَا تُشْرِكُونَهُ مَعَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ، فَتَجْعَلُونَهُ لَهُ نَدًّا مِنْ وَثْنٍ وَصَنْمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ وَتَدْعُونَهُ إِلَٰهَا اهـ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقرير للرسالة ومواساة للرسول ﷺ بَيَّانٍ أَنَّهُ ﷺ لَيْسَ بِدَعَا مِنَ الرِّسْلِ وَأَنَّ إِخْوَانَهُ الْمُرْسَلِينَ قَدْ كَذَبْتَهُمْ أَمَّهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يَبْتَلِيهِمْ عِنْدَ تَكْذِيبِهِم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لِيَتَضَرَّعُوا إِلَى

الله عز وجل ويرجعوا إليه ، ويقلعوا عن الشرك وتكذيب المرسلين لكنهم لم
 يفزعوا إلى الله ليكشف الضر عنهم بل كانوا يتنادون في الضلال والغي ولا
 يتأثرون بالزواج التي تنزل بهم بسبب قسوة قلوبهم وتحجر أفئدتهم وانطماس
 بصائرهم وانقيادهم للشيطان الذي سَوَّلَ لهم وأملى لهم ، وَزَيَّنَ لهم سُوءَ
 أَعْمَالِهِمْ فاستحسنوها ، وفي هذا إمامة إلى أن كفار قريش لا يفزعون في الضراء
 إلا إلى الله وحده لكنهم كانوا إذا كشف الله الضر عنهم نَسُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
 وَأَشْرَكُوا فِي الْعِبَادَةِ أَصْنَامَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ بخلاف من أشار الله عز وجل إليهم
 هنا من الأمم السابقة حيث كانوا لا يفزعون إلى الله عند نزول البأساء والضراء
 بهم ، والمراد بالبأساء : الأهوال والشدائد والدواهي والحروب والمراد بالضراء
 الأمراض والأوجاع والآفات والأسقام والآلام ، ومعنى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾
 أي سلطنا عليهم هذا العذاب من بأس الله ليتضرعوا إلى الله ويفزعوا إليه
 ليرفع العذاب عنهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا
 تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي فَهَلَّا
 تضرعوا إلى الله عز وجل عندما جاءهم بأس الله ونزلت بهم عقوبته التي
 أحلها بهم للتذكير والتخويف ، لكنهم لم يتضرعوا إلى الله ولم تَلِنْ قُلُوبُهُمْ
 خوفا منه عز وجل بل قست قلوبهم وتحجرت أفئدتهم فأقاموا على تكذيبهم
 لرسول الله وكفرهم بآيات الله وأصروا على عنادهم واستكبروا عن أمر ربهم
 استهانة بعقاب الله واستخفافا بأمره عز وجل ، وَحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
 القبيحة فاستحسنوها ، واستمرؤوها وانغمسوا فيها وغفلوا عما ذُكِّرُوا به من
 البأساء والضراء ، ولم يتضرعوا إلى الله تبارك وتعالى ليرفع الضَّرَّ عنهم ولم ينبؤوا
 إليه انقيادا للشيطان الذي سَوَّلَ لهم وأملى لهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا
 نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا
 أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي فلما اشتدت غفلتهم ، وَتَرَكُوا مَا وَعِظُوا

به ، ولم ينبئوا إلى الله عز وجل ولم يتضرعوا ، أَمَلَيْنَا لَهُمْ واستدرجناهم فرفعنا
البأساء والضراء عنهم ، وفتحنا عليهم استدراجاً منا لهم أبواب كل ما كنا
سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء فبدلنا مكان الضيق
سعة ومكان المرض صحة ومكان الشدة رخاء ، فازدادوا كفراً وطغياناً ،
وَفَرِحُوا بما أوتوا ولم يتنبهوا إلى أن ذلك استدراج من الله عز وجل وكيدٌ لهم
ومكرٌ بهم فلما صاروا إلى حال حَسَبُوا فيها أن هذا النعيم لن يزول عنهم
وبلغوا الغاية في المتاع واشتد تعلقهم بملاذهم وشهواتهم أخذهم الله عز
وجل أخذ عزيز مقتدر فأنزل بهم عذابه فجأةً فإذا هم هالكون يائسون من
رحمة الله ، لا يستطيعون الإجابة ولا يتمكنون من التوبة والإنابة ، وهذا المقام
في كتاب الله تبارك وتعالى شبيه بقوله عز وجل : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي
إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يَضَرَّعُونَ ﴾ * ثم بَدَّلْنَا مكان السيئة
الحسنة حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آبَاءُنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا
يشعرون ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي استؤصلوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد بسبب ظلمهم
وكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ولله عز وجل الحمد والثناء على انتصاره لأوليائه
وقطعه لدابر أعدائه قال العلامة ابن منظور في لسان العرب : وقطع الله
دابرهم أي آخر من بقي منهم ، وفي التنزيل : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا ﴾ أي استؤصل آخرهم ، ودَابِرَةُ الشَّيْءِ كدابرهِ ، وقال الله تعالى في
موضع آخر : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾
قوله : قطع الله دابرهِ قال الأصمعي وغيره : الدابرُ : الأصل أي أذهب الله
أصله ، وأنشد لَوْعَلَةَ :

فَدَى لِكَمَا رَجَلِيَّ أُمِّي وَخَالَتِي غَدَاةَ الْكُلَابِ إِذْ تُحْزِرُ الدَّوَابِرُ
أي يقتل القوم فتذهب أصولهم ولا يبقى لهم أثر اهـ وقال الزجاج رحمه

الله : وقوله : ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَمْدَ
الله عز وجل نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ، لأنه جل وعز
أرسل إليهم الرسل ، وَأَنْظَرَهُمْ بَعْدَ كُفْرِهِمْ ، وَأَخَذَهُم بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ،
فَبَالَغَ جَلَّ وَعَزَّ فِي إِنْذَارِهِمْ وَإِمْهَالِهِمْ ، فَحَمِدَ نَفْسَهُ لَأَنَّهُ مَحْمُودٌ فِي إِمْهَالِهِ مَنْ
كَفَرَ بِهِ وَانْتَظَرَهُ تَوْبَتَهُ اهـ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ * قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ . وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بأن يُقرِّعَ قريشا ومن معهم من الكفار ويوبخهم على تكذيبهم بآيات الله ويُقيمَ عليهم الحجة الدامغة بأنهم في شدائدهم لا يفزعون إلا إلى الله وحده وينسون أصنامهم وأوثانهم ، مما يقطع بأن آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا ، أمر رسوله ﷺ بتكرير تقريرهم وتبكيتهم وتوبيخهم مرة ثانية وثالثة إلزاما لهم بعد إلزام وإقامة للحجة بعد الحجة وبرهانا بعد البرهان ، لينقطعوا عن الشرك بالله من كل وجه ولتستبين سبيل المجرمين وينسدَّ كلُّ طريق للشرك كلية مع تعجيب رسول الله ﷺ من عدم تأثر بعض هؤلاء بما عاينوا من الآيات الباهرة والحجج القاهرة الظاهرة ، ويؤكد وظائف المرسلين ، تأكيداً للرسالة حيث يقول عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ * قل أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ * وما نرسل المرسلين إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ * والذين كَذَبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ قال ابن جرير الطبري : القول في تأويل قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ قال أبو جعفر : يقول تعالى ذكره

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام المكذبين بك: أرايتم أيها المشركون بالله غيره إن أصمكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فطبع عليها، حتى لا تفقهوا قولاً، ولا تبصروا حجة، ولا تفهموا مفهوماً، أي إله غير الله الذي له عبادة كل عابد ﴿يأتيكم به﴾ يقول: يرث عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى رده عليكم إذا شاء، وهذا من الله تعالى ذكره تعليم نبيه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعا، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء، ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجاج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينبوا ﴿ثم هم يصدفون﴾ يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجاج، وتنبهنا إياهم بالعبر، عن الأذكار والاعتبار يُعْرِضُونَ. يقال منه: صدف فلان عنى بوجهه فهو يصدف صدفا وصدفا أي عدل وأعرض ومنه قول ابن الرقاع:

إذا ذكرن حديثاً قلن أحسنه
وهن عن كل سوء يتقى صدفاً
وقال لبيد:

يُروى قوامح قبل الليل صادفة أشباه جن عليها الرئط والأرز
فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ فوحد الهاء وقد مضى الذكر قبل بالجمع فقال: ﴿أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾؟ قيل: جائز أن تكون الهاء عائدة على السمع فتكون موحدة لتوحيد السمع، وجائز أن تكون معنيهاً بها: من إله غير الله يأتيكم بما

أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة فتكون مُوَحَّدة لتوحيد ما ، والعربُ تفعل ذلك إذا كُنَّت عن الأفعال وَحَّدَت الكناية ، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفاعيل ، كقولهم : إقبالُكَ وإدبارُكَ يعجبني ، اهـ ولا شك أن كفار قريش ومن كان على شاكلتهم كانوا مقرين بأن الله عز وجل هو الذي جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وأنه لا يملكها أحدٌ سواه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال فإني تُصْرَفُونَ ﴿ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ إنذار للمشركين بعد إنذار وتخويف لهم عقب تخويف وترهيب إثر ترهيب ، فبعد أن خوفهم بأخذ أسماعهم وأبصارهم والختم على قلوبهم خَوْفُهُمْ مرة أخرى بعذاب عام شامل يأتيهم بغتة أو جهرة يُبِيدُ القوم الظالمين وينجو منه القوم المؤمنون ، ومعنى الآية : قل لهم يا محمد : أخبروني أيها المشركون الجاهلون المكذبون إن جاءكم عقابُ الله وحلَّ بكم عذابه مفاجأة دون أن تَقْدَمَهُ أمارات أو علامات أو جاءكم عذاب الله بعد أن تَقْدَمَتَهُ أمارات وتحذيرات وعلامات عايتتموها قبل أن يحل بساحتكم العقاب الشديد والعذاب المبيد الذي لا يعاقب الله به إلا القوم الظالمين الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ولم يخلصوا العبادة للحي القيوم النافع الضار ، فظلموا بذلك أنفسهم حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وقد جرت سنة الله تبارك وتعالى في أخذه لأعداء

المرسلين أن يأخذ بعضهم بغتةً وأن يأخذ بعضهم جهرةً لحكمته البالغة كما قال عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فَأَخَذَهُمْ بِخَسْفِ الْأَرْضِ بِهِمْ أَوْ بِمَجِيءِ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ بِأَخْذِهِمْ فِي تَقْلِبِهِمْ كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنْ بَابِ أَخْذِهِمْ بِغَتَةٍ ، أَمَا الْأَخْذُ عَلَى تَخَوُّفٍ وَهُوَ التَّنْقِصُ بِتَسْلِيْطِ الْأَمْرَاضِ وَالنَّكَبَاتِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ الْمَبِيدِ فَهُوَ مِنْ بَابِ أَخْذِهِمْ جَهْرَةً وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بِمَعْنَى النَّفْيِ أَيْ لَا يَهْلِكُ بِعَذَابِ اللَّهِ الْمَبِيدِ إِلَّا الْقَوْمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ حَيْثُ وَضَعُوا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَكَذَّبُوا الْمُرْسَلِينَ . وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أَيْ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِيُرْغَبُوا عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَيَخَوْفَوْهُمْ وَيَحْذَرُوهُمْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، قَالَ الزَّجَاجُ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَيْ لَيْسَ إِرْسَالُهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا النَّاسَ بِمَا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ ، وَإِنَّمَا يَأْتُونَ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا يُبَيِّنُ اللَّهُ بِهِ بَرَاهِينَهُمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُمُ التَّبَشِيرُ وَالْإِنْذَارُ أَهـ وَقَدْ أَشْرْتُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَنَّ الْبَشَارَةَ هِيَ الْخَبَرُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى الْبَشَرَةِ سِوَاهُ كَانَ بِالْخَيْرِ فَتَنْطَلِقُ أَسَارِيرُ الْوَجْهِ فَرَحًا أَوْ كَانَ بِالشَّرِّ فَتَنْكَمِشُ بَشَرَةُ الْوَجْهِ وَتَنْقَبِضُ حَزَنًا قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَالتَّبَشِيرُ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَهـ فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْبَشَارَةُ مَعَ النَّذَارَةِ فِي سِيَاقٍ كَانَتِ الْبَشَارَةُ فِي الْخَيْرِ وَالنَّذَارَةُ فِي التَّخْوِيفِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرِّ كَمَا فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ رَسَلْنَا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرسول ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * ﴾ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ ونظائر ذلك . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بيان لأهم صور التبشير والإنذار وذلك بإعلام المؤمنين الصالحين أنهم قد أحرزوا أنفسهم من الخوف والحزن عند لقاء الله مع الحياة الطيبة في الدنيا ودخول جنات النعيم في الدار الآخرة ، وإعلام المكذبين بآيات الله ورسله أنهم قد خسروا أنفسهم بما جلبوه لها من الخوف والحزن عند لقاء الله حيث يذوقون سوء العذاب بسبب فسقهم عن أمر الله وتكذيبهم بآيات الله ورسله عليهم الصلاة والسلام وسُلوُك مسلك الترغيب والترهيب في دعوة الخلق إلى الخالق وتعريفهم بما ينفعهم وما يضرهم هو أفضل مناهج التربية والتعليم لأنه مبني على معرفة أحوال النفس الإنسانية وما يؤثر فيها ، وما تتأثر به من الرجاء أو الخوف ، والوعد أو الوعيد ، وقد سلك القرآن العظيم هذا المسلك القويم وكذلك سلكه رسول الله ﷺ وقد سلكه من قبله ﷺ جميع الأنبياء والمرسلين إذ لا تكاد تخلو النصوص الواردة في كتاب الله أو عن رسله عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله من أسلوب الترغيب والترهيب والتبشير والتحذير ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، ولتستبين السبيل أمام العباد لينهج العقلاء أهل الخير والصلاح سبيل الفلاح ، وليعرف المنحرفون أنهم ضلوا سواء السبيل ، وكما قال الشاعر :

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجِكَ تَنْهَجُ طريقان شتى مستقيم وأعوج

ومن صور التبشير والتحذير قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴿ وقد لُوْحِظَ أن القرآن الكريم قد يقدم الترغيب على الترهيب وقد يقدم الترهيب على الترغيب بحسب مقتضيات الأحوال إذ لكل مقام ما يناسبه من المقال ، وهو لونٌ من ألوان إعجاز القرآن .

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ. وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أن المشركين قالوا: ﴿لولا نَزَلَ عليه آية من ربه﴾ وساق عز وجل الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه عز وجل له القدرة الشاملة على إنزال ما يشاء من الآيات وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن إنزال الآيات إنما يكون بمشيئته وحكمته لا بحسب أهواء الجاهلين ومقترحاتهم وتوَعَّدَهُم بالعقوبة إن استمروا على عنادهم وبينَ عز وجل وظيفة أنبيائه ورسله وأنها مقتصرة على تبليغ الرسالة وتبشير من أطاعهم بالنعيم المقيم وإنذار من عصاهم بالعذاب الأليم وأن الرسل ليس بأيديهم أن يتصرفوا في الكون كما يشاءون وأنهم لا يستطيعون خرق نظام السموات والأرض، أمر نبيِّه وحبيبه وسيد رسله محمداً ﷺ أن يخبر الجاهلين أن التصرف في الكون وخزائنه هو لله وحده وليس مفوضاً إلى أحد من خلقه وأن يخبرهم أنه ﷺ لا يعلم الغيب الذي استأثر الله عز وجل بعلمه وأن يوبخهم على ما اقترحوه عليه من بعض الآيات كأن يرقى في السماء مُبَيَّنًّا لهم أن ذلك إنما يطلب منه لو كان قد أخبرهم بأنه مَلَكٌ لأن الرقيَّ في السموات من شأن الملائكة، وأن يخبرهم ﷺ بأنه متبع لما جاءه من الوحي من عند الله وأن وظيفته ﷺ مقصورة على اتباع الوحي حيث يقول عز وجل هنا: ﴿قُلْ

لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن
 أتبع إلا ما يوحى إليّ قال أبو اسحاق الزجاج رحمه الله : وقوله : ﴿ قل لا
 أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ لولا نَزَلَ عليه آية من
 ربه ﴾ فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خزائن الله التي بها يَرْزُق وَيُعْطِي وأنه
 لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى وما سيكون إلا بوحي من الله
 عز وجل : ﴿ ولا أقول لكم إني مَلَكٌ ﴾ أي المَلَكُ يُشاهد من أمور الله عز
 وجل ما لا يشاهده البَشَرُ، فَأَعْلَمَهُمْ أنه يتبع الوحي فقال : ﴿ إن أَتَّبِعُ إلا ما
 يوحى إليّ ﴾ أي ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى وفيما سيكون فهو بوحي
 من الله ، فأما الإنباء بما مضى فأخبارٌ بقصص الأمم السالفة والأخبار بما
 سيكون كقوله : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم
 سَيَغْلِبُونَ . في بضع سنين ﴾ فوجد من ذلك ما أنبأ به ، ونحو قوله : ﴿ والله
 يعصمك من الناس ﴾ فاجتهدوا في قتله ، فلم يصلوا إلى ذلك وقوله :
 ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ وما يُرَوَى من الأخبار عنه بما يكون أكثر من أن
 يُحْصَى اهـ وقال ابن جرير الطبري رحمه الله : القول في تأويل قوله : ﴿ قل لا
 أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أَتَّبِعُ
 إلا ما يُوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون ﴾ قال أبو
 جعفر : يقول تعالى ذكره : قل لهؤلاء المنكرين نُبُوءَتَكَ : لست أقول لكم إني
 الربُّ الذي له خزائن السموات والأرض فأَعْلَمُ غُيُوبَ الأشياء الخفية التي لا
 يعلمها إلا الربُّ الذي لا يَخْفَى عليه شيء فتكذبوني فيما أقول من ذلك لأنه
 لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له مُلْكٌ كل شيء ، وييده كل شيء ، ومَنْ لا
 يخفى عليه خافية وذلك هو الله الذي لا إله غيره ﴿ ولا أقول لكم إني مَلَكٌ ﴾
 لأنه لا ينبغي لِلْمَلَكِ أن يكون ظاهرا بصورته لأبصار البَشَرِ في الدنيا فَتَجَحَّدُوا
 ما أقول لكم من ذلك ﴿ إن أَتَّبِعُ إلا ما يُوحى إليّ ﴾ يقول : قل لهم : ما أَتَّبِعُ

فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وَخِيَ الله الذي يوحيه إليَّ وتنزيله الذي يُنزله عليَّ فأَمْضِي لُوحِيهِ ، وأتتمر لأمره وقد أُتيتكم بالحجج القاطعة من الله عُدْرُكُمْ على صحة قولي في ذلك ، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه ، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة فما وجه إنكاركم ذلك؟ وذلك تنبيه من الله تعالى ذكره نَبِيَّهُ ﷺ على موضع حجته على منكري نبوته من مشركي قومه . ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ يقول تعالى ذكره : قل يا محمد لهم : هل يستوي الأعمى عن الحق والبصير به ، والأعمى : هو الكافر الذي قد عَمِيَ عن حجج الله فلا يَتَّبِعُهَا فَيَتَّبِعُهَا ، والبصير : المؤمن الذي قد أبصر آيات الله وَحُجَجَهُ ، فاقتدى بها واستضاء بضياءها ، ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ يقول لهؤلاء الذي كذبوا بآيات الله : أفلا تتفكرون فيما أحتج عليكم به أيها القوم من هذه الحجج فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه ، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربكم وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾ بيان وإرشاد إلى أن قلوب الناس ليست سواء عند تلقي الإنذار فالعُمي الصُّمُّ البُكْمُ الذين ختم الله على قلوبهم لا ينتفعون بإنذار المنذرين ومن ليسوا كذلك من الناس قد ينتفعون بالإنذار ويتأثرون بالموعظة فيدخل في قلوبهم الخوف من الله عز وجل ، وينزجرون عما يُنْهَوْنَ عنه ، ويقفون عند حدود الله لعلهم ينجون من عذابه يوم القيامة الذي لا ينفع فيه وليٌ ولا شفيع إلا بإذن الله ورضاه كما قال عز وجل : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمنُ ورَضِيَ له قولاً ﴾ وكما قال عز وجل :

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجل ﴿ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أذن له﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يوم لا يغني مؤلى عن مؤلى شيئاً ولا هم ينصرون﴾ إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم ﴿وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ تنبيه إلى أن من انتفع بالإنذار وانقاد لأمر الله واستجاب لرسوله ﷺ فإنه يكون ذا مكانة ومنزلة عالية عند الله عز وجل بغض النظر عن فقره وغناه ونسبه وحسبه ، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وتنديد بالجاهلين الذين يقيسون الناس بمنازلهم الدنيوية فيزدرون الفقراء ومن لا نسب لهم ولا حسب حيث كان هؤلاء الجاهلون يطلبون من رسول الله ﷺ إبعاد فقراء المسلمين عن مجلسه ، ويسمونهم الأشرار ويسخرون منهم ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : في نزلت : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ قال : نزلت في ستة : أنا وابن مسعود منهم . وكان المشركون قالوا له : تُدني هؤلاء؟ ثم ساق مسلم من حديث سعد رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لستُ أَسْمِيَهُمَا فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يجعل هؤلاء المؤمنين جُلَسَاءَهُ وَأَخِصَّاءَهُ حيث قال : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرطاً﴾ واحتقار الفقراء خُلِقَ الجاهلين من المتقدمين والمتأخرين كما قال عز وجل عن قوم نوح

عليه السلام: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ وطلبوا من نوح عليه السلام طردهم فردَّ عليهم فقال: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون﴾ ويا قوم من ينصрни من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون* ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلَكٌ ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلُّون﴾ قال وما علمي بما كانوا يعملون* إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون* وما أنا بطارد المؤمنين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تُبْعَد عن مجلسك هؤلاء الفقراء الصالحين الداعين ربهم ليلا ونهارا وصباحا ومساء الذين أخلصوا قلوبهم وأسلموا وجوههم لله عز وجل لا يعبدون إلا الله ولا يذْعُونَ أحدا سواه، ومعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم﴾ فتكون من الظالمين﴾ أي إنما حساب عباد الله من الأغنياء والفقراء على الله وحده وليس الرسول بمسئول عن حسابهم على أعمالهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ كما أنه ليس على الرسول إلا البلاغ من الترغيب والترهيب، فهو مسئول عما أنيط به كما أن الأمة مسئولة عما أنيط بها فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما قدمه لنفسه من عمل صالح، ولا يتحمل إلا وزر ما اجترحه من الأعمال، وليس الغنى أو الفقر هو المعيار الذي يقاس به الإنسان فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإنما أرزاق العباد بيد الله وحده يُوسِّع على من يشاء ويضيِّق على من يشاء امتحانا وابتلاء فلا يدل غنى الغني على رضا الله عنه ولا يدل فقر الفقير على سخط الله عليه، ولذلك قال: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأَعْلَمَ

بالشاكِرِينَ ﴿ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ لِيَقُولُوا أَهْلَؤَلَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : اخْتَبَرْنَا النَّاسَ بِالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْعِزِّ وَالذُّلِّ ، وَالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ كَيْ يَقُولَ مَنْ أَضْلَاهُ اللَّهُ وَأَعْمَاهُ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ لِلَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُمْ : ﴿ أَهْلَؤَلَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بِالْهُدَى وَالرُّشْدِ وَهُمْ فَقَرَاءٌ ضَعْفَاءٌ أَذْلَاءٌ ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ أَقْوِيَاءُ اسْتَهْزَأَ بِهِمْ وَمَعَادَاةَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ أَهْ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمَائِهِ وَيَعْتَرِفُ بِالْوَهْيِيَّةِ وَرَبُوبِيَّةِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ . قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ۝ .

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض قبائح الجاهلين حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية يخرق بها نظام الكون ، وحيث طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء من مجلسه ، وبعد أن نهى الله عز وجل حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمداً ﷺ أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، مشيراً بذلك إلى عظيم منزلتهم عند الله عز وجل شرع هنا في حض رسول الله ﷺ على زيادة تكريم المؤمنين ، وتبشيرهم بما يدخل السرور على قلوبهم بغض النظر عن فقرهم وغناهم وأياسَ المشركين من أن يتمكنوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى باطلهم وعبادة غير الله وأمرَ رسوله ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات أنه ﷺ ليس بيده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده ، وأن يقول لهم : لو كانت الآيات التي تقترحونها بيدي لآيتكم بها ، ولكنها بيد الله الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين ولا يظلم أحداً ، وهو أعلم بالظالمين ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِلَى

قوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي فَأَكْرِمْهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ ، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال : ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلا منه وإحسانا وامتنانا ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٌ أَبْجَهَالَةً﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل اهـ وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يُصَدِّقُونَ بتزييلنا وأدلتنا وحججنا فيُقِرُّونَ بذلك قولاً وعملاً ، مُسْتَرِشِدِينَكَ عَنْ ذُنُوبِهِمُ التي سلفت منهم بيني وبينهم ، هل لهم منها توبة ؟ فلا تؤيسهم منها ، وقل لهم : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَمْنَةُ اللَّهِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أَنَّ يَعَاقِبَكُمْ عَلَيْهَا بعد توبتكم منها . ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ يقول قاضي ربكم الرحمة بخلقهم ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٌ أَبْجَهَالَةً﴾ ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴿ثُمَّ قَالَ رَبُّهُ اللَّهُ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٌ أَبْجَهَالَةً﴾ أَنَّهُ مِنْ اقْتَرَفَ مِنْكُمْ ذَنْبًا فَجَهِلَ بِاقْتِرَافِهِ إِيَّاهُ ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ﴾ فإنه غفور ﴿لِذَنْبِهِ إِذَا تَابَ وَأَنَابَ وَرَاجَعَ الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الْعَوْدَ إِلَى مِثْلِهِ مَعَ النَّدَمِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ﴾ ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه اهـ وقال الزجاج رحمه الله : ومعنى يعملون السوء بجهالة أي ليس بأنهم يجهلون أنه سوء ، لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءاً ، ولم يوقع سوءاً ، وقولك : عمل فلان كذا وكذا بجهالة يحتمل أمرين ، فأحدهما أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروهاً ، والآخر أقدم عليه على بصيرة ، وعلم أن عاقبته مكروهة ، فأثر العاجل فجعل جاهلاً ، فإنه أثر القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة فهذا معنى : ﴿مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٌ أَبْجَهَالَةً﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجيء أن مرتين مرة مع الشرط ومرة

مع الجزاء : ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّقٍ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يقال : إنها أعيدت لطول الكلام ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ونظيره : ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ، ألا ترى تأكيد قوله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بأنَّ غيرُ تأكيد ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ له بأن ؟ وهذا ظاهر لاختفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولتستبين سبيلُ المجرمين ﴿أَيُّ هَٰذَا نُبَيِّنُ وَنُفَصِّلُ وَنَمِيزُ لِلنَّاسِ أَعْلَامَنَا وَحُجَجَنَا وَأَدَلَّتْنا لِيَتَّضِحَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمَ لِيَسْلُكَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَلِتَسْتَبِينَ السَّبِيلَ الْمَعْرُوجَةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ ، لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنِ بَيْنَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَةٍ وَلئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ الْمُبَشِّرِينَ الْمُنذِرِينَ وَلِيَرْتَدَّعَ الْمَكْذِبُونَ الْجَاهِلُونَ الَّذِي يَصِفُونَ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ بِأَنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، مَعَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، مِمَّا جَدَّ وَيَجِدُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيُرْسِمُ أَحْسَنَ الْمَنَاجِيزِ ، وَيَهْدِي الْمُسْتَقِيمِينَ إِلَى سُوءِ الصِّرَاطِ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تنديد بالمشرِّكين وأصنامهم وما يعبدون من دُونِ اللَّهِ ، وتحذير شديد من مسلكهم وتقريع بأنهم سلكوا الطريق المعوج تقليدا لأهوائهم وأهواء آبائهم ، فهم يعبدونها على محض الهوى والتقليد الأعمى والضلال البحت لا على سبيل البينة والحجة والبرهان ، فهم يعبدون ما يصنعون ، ويدعون من الأحجار ما ينحتون فلو كان لهم أدنى مسكة من عقل ما عبدوها ، وهم لا يضرعون إليها عند الشدائد بل يضرعون إلى الله وحده

ويقرون بأن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مملوكة لله عز وجل حيث كانوا يقولون في تلبيتهم بالحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وكانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قطع لأطماع بعض المشركين الذين كانوا يطمعون في أن يميل رسول الله ﷺ إلى باطلهم، وفي قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تأكيد على أن عبادة غير الله هي سبيل المجرمين، وأنها مبنية على الهوى المحض، وأن من سلكها فهو ضال عن سواء السبيل، وليس من المهتدين الراشدين المفلحين الفائزين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ تحقيق لما عليه رسول الله ﷺ من سبيل الهدى والرشاد وما يسلكه من الصراط المستقيم وما يهتدي به من البرهان البين والحجة الواضحة التي هداه إليها ربه تبارك وتعالى كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ تأكيد لقبح طريق المشركين المكذبين بالبينات التي جاء بها رسول الله ﷺ أي وكذبتكم بربي وربكم الذي جعلني على بينة منه، ولم تكتفوا بمعجزة القرآن وهو الآية العظمى والحجة البالغة واستعجلتم نقم الله وعذابه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي ليس بيدي شيء من الآيات التي تقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده وما أخبركم به من إهلاك أعدائه الذين كذبوا رسله هو القصص الحق، والحكم بيده وحده وهو الذي يفصل بين رسله وأعدائهم وهو خير الفاصلين، فإنه لا يظلم

مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وقوله تبارك
 وتعالى : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي
 قل يا محمد لهؤلاء المكذبين الجاهلين المقترحين للآيات : لو كانت الآيات التي
 تقترحونها بيدي لايتكم بها ولأجبتكم فيما طلبتم مني ، والمقصود من ذلك
 تأكيد نفي أن تكون الآيات بيد رسول الله ﷺ ، وليس في هذا ما يدل على أنه
 لو كان العذاب بيده لأنزله بقريش ، لأنه لا ذكر في هذا المقام لاستعجالهم
 العذاب ، وقد عُلِمَ أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يستأني بهم لعل الله
 يهديهم أو يخرج من أصلاهم من يعبد الله وحده فقد روى البخاري ومسلم
 في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث الصديقة بنت الصديق أم
 المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليكم يومٌ كان
 أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال : لقد لقيتُ من قومك ما لقيت ، وكان أشدَّ ما لقيتُ
 منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم
 يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا
 بِقَرْنِ الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرتُ فإذا فيها
 جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد
 بعث الله إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملكُ الجبال فسَلَّمَ
 عليَّ ثم قال : يا محمد ، ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أُطبِّقَ عليهم الأخشبين
 فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلاهم من يعبد الله وحده ، لا
 يشرك به شيئا ، وفي لفظ لمسلم : فناداني ملكُ الجبال ، وسَلَّمَ عليَّ ، ثم قال :
 يا محمد إن الله قد سَمِعَ قولَ قومك لك ، وأنا ملكُ الجبال ، وقد بعثني ربك
 إليك ، لتأمرني بأمرك ، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبِّقَ عليهم الأخشبين ، فقال
 له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرجَ الله من أصلاهم من يعبد الله وحده ، لا
 يشرك به شيئا وقوله عز وجل : ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ تحذير من الظلم ،

ووعيد شديد للظالمين ، والظلم في الأصل هو وضع الشيء في غير موضعه ،
وأبشع الظلم هو الشرك بالله ، وتكذيب المرسلين ، والظلم ظلمات يوم
القيامة ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . .

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات بأنه ﷺ ليس عنده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده، لأنه عز وجل هو القادر على كل شيء وهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين وهو وحده الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال عباده وهو أعلم بالظالمين، شرع هنا في تقرير كمال علمه عز وجل وبيان اختصاص المقدورات الغيبية به تبارك وتعالى وأنه عز وجل استأثر بمفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، وأن جميع الكائنات مسجلة في كتاب عند الله عز وجل، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء كما أطلع رسوله المصطفى وحيه المجتبي ﷺ على أشراط الساعة وأماراتها وما يكون في بعض مواقف القيامة، وكما يعلم الإنسان حمل المرأة بانتفاخ بطنها وانقطاع طمثها ونحو ذلك، وفي ذلك يقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ومعنى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي وعند الله خزائن الغيب قد استأثر سبحانه بها، وبما يتوصل به إليها، وقد فسر رسول الله ﷺ مفاتيح الغيب التي استأثر الله عز وجل بعلمها بأنها الخمس الواردة في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَازَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ فقد روى البخاري في

باب الاستسقاء من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما
قال : قال رسول الله ﷺ : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم
أحد ما يكون في غد ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا
تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء
المطر ، وأورده في تفسير سورة الأنعام من طريق سالم بن عبد الله عن أبيه أن
رسول الله ﷺ قال : مفاتيح الغيب خمس : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل
الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس
بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ وأورده في كتاب التوحيد من طريق عبد
الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : مفاتيح الغيب
خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في
غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض
تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ، أما ما ثبت عن رسول الله
ﷺ أنه أوتي مفاتيح خزائن الأرض فإن المقصود منه أن أمته ﷺ تفتح أكثر
المعمورة وتملك خزائن كسرى وقيصر كما أشار أبو هريرة رضي الله عنه إلى
ذلك فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال : بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وبيننا أنا نائم
رأيتني أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي قال أبو هريرة فقد
ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تلغثونها أو ترغثونها أو كلمة تشبهها ، وأخرجه
مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : قال قال رسول الله ﷺ :
بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وبيننا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن
الأرض فوضعت في يدي . قال أبو هريرة : فذهب رسول الله ﷺ وأنتم
تنتلونها . ومعنى تنتلونها : تستخرجون ما فيها ، ومعنى تلغثونها : أي
تأكلونها ، ومعنى ترغثونها : أي ترضعونها وقد أخرج البخاري ومسلم في

صحيحهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلي حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها، هذا والمقصود من قوله ﷺ في حديث عقبة بن عامر: والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى أي والله ما أخاف على مجموعكم، فليس المراد نفي وقوع الشرك في أفراد من أمتة ﷺ، وإنما المراد أن تنافسهم على الدنيا هو أخطر عليهم، وأشد ضرراً على مجموعهم، لأنه يضر الصالحين والطارحين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات برّيها وبخريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصري.

فلا يخفى عليه الذرُّ إمّا تراءى للنواظر أو توارى اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقة في الصحاري والبراري ولا في الأمصار والقرى إلا الله يعلمها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ يقول: ولا شيء أيضاً مما هو موجود أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسومٌ عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها، ويعنى بقوله: ﴿مبين﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رسم فيه على ما رسم اهـ والمقصود بيان كمال علمه وقدرته ولفث الانتباه إلى عجائب خلقه بضرب أمثلة ينتفع بها من له أدنى مسكة من عقل، وقدم ذكر الورقة

لأنها تشاهد في جميع أنحاء الأرض ولا يعلم عددها ووقت وجودها وفنائها وحركاتها وسكناتها إلا الله وحده ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة وهو الحبة ثم ذكر مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه قد كتب جميع حركات خلقه وسكناتهم في الكتاب المبين ، وأن كل شيء يجري بمقدار كتبه في اللوح المحفوظ ، كما ذكر عز وجل أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ ، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ وقد سماه الله تبارك وتعالى أم الكتاب حيث يقول عز وجل : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وإنه في أم الكتاب لدينا لَعَلِّي حكيم ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ وقد أشار الله تبارك إلى أنه كتب مقادير الخلائق في هذا الكتاب بعلمه وحكمته لا لضلال أو نسيان ، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء . وقد سَمَّى رسول الله ﷺ اللوح المحفوظ الذكر فقد روى البخاري رحمه الله في كتاب بدء الخلق من صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض . وأخرجه في كتاب التوحيد عن عمران بن حصين قال : إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم ، فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قِيلْنَا ، جئناك

لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ، قال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ، ثم أتاني رجل فقال : يا عمران أدرك نأقتك فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم ، وقال أبو داود في سننه : حدثنا جعفر بن مسافر الهذلي ثنا يحيى بن حسان ثنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه : يا بُنَيَّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات على غير هذا فليس مني . كما أخرج البخاري في كتاب النكاح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله إني رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاقٍ . الحديث . وقد أخرج مسلم عن جابر قال : جاء سراقه بن مالك بن جُعشم قال : يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأننا خُلِقْنَا الآن فيما العمل اليوم أفما جفت به الأقلامُ وجرت به المقادير أم فيما نستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، الحديث كما أخرج الترمذي في سننه وقال : هذا حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك

إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا
بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفِعَت الأَقلام وجفت الصحف ، ولا شك أن
الإيمان باللوح والقلم من عقائد أهل السنة والجماعة ولذلك قال الإمام أبو
جعفر الطحاوي في عقيدته المشهورة: ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه
قد رُقِمَ .

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

بعد أن أعلم عز وجل عباده أن مفاتيح الغيب بيده وحده لم يعطها لملك مقرب ولا لنبي مرسل وأنه لا يعلمها إلا هو عز وجل ، وَقَرَّرَ بذلك كمال علمه ، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه قد أحاط به علما وأحصاه عددا ، لا يخفى عليه رطب ولا يابس ، وأن ذلك قد كتبه عز وجل في كتاب مبين ، شرع هنا في لفت انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم ، وما يُجْزِيهِ عليهم من أدلة قدرته ، وقهره لخلقه ، وعلوه على عباده ، وأكد أن مردّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم ويحكم بينهم بعلمه وعدله وهو أسرع الحاسبين ، لأنه القادر على حساب جميع الخلائق في وقت واحد كحساب نفس واحدة كما أن بعث جميع الخلائق في وقت واحد كبعث نفس واحدة وذلك على الله يسير وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ قال الزجاج رحمه الله: وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي يُنِيمُكُمْ فَيَتَوَفَّى نفوسكم التي بها تُمَيِّزُونَ ، كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ومعنى: ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يُنَبِّئُكُمْ من نومكم فيه في النهار ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم اهـ والنوم يسمى الوفاة الصغرى والموتة الصغرى

وقد جعل الله تبارك وتعالى النوم آية من آياته ليكون تذكراً للإنسان بالموتة الكبرى كما جعل الاستيقاظ من النوم تذكراً للبعث بعد الموت ، حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ وقد نَصَبَ الله تبارك وتعالى أمام الأعين آيات كثيرة تذكر بالآخرة وما فيها ، وإلى ذلك يشير عز وجل في قوله : ﴿أفأنتم النار التي تورون﴾ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نحن جعلناها تذكراً ومتاعاً للمقوين ﴿أي جعلنا نار الدنيا تذكراً لنار الآخرة . كما جعل الله تبارك وتعالى الروح - وقد يطلق عليها لفظ النفس - آية من آياته واستأثر تبارك وتعالى بعلم حقيقتها وكيفيتها إعلالاً بكمال قدرته وعلمه ولم يُطْلَعْ أحداً من خلقه إلا على قليل من آثارها ، فهي في الجسم دليل حياته وإذا فارقت الجسم مات وفارق الحياة . وقد تُسَلَّبُ بعض خصائصها من الجسم كالتمييز وهو ما يُفْقَدُ من الإنسان ويُقْبَضُ منه عند النوم فيرفع القلم عن النائم حتى يستيقظ ولا يؤاخذ بما يفعله أثناء نومه مع أن النائم قد يرى حُلماً يعقله في نومه ويميزه ويذكره إذا استيقظ من نومه ، كما أن الجنين عند ما يُخْرُجُ من بطن أمه حياً يكون لا تمييز له كما قال عز وجل : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ . وقد تفارق الروحُ الجسد كالشهداء وقد سباهم الله عز وجل أحياء ، ونهى عن تسميتهم أمواتاً فقال عز وجل : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولا تحسبن الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وقد وصف رسول الله ﷺ الروح بأنها تُقْبَضُ عند النوم وتُرْسَلُ عند الاستيقاظ من النوم وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل

الأخرى إلى أجل مسمى ﴿ قال : وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يُمَسَّكُ فلا يرسل إلى بدنه وهو الذي قضى عليه الموت ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى ، وهذا إنما يكون في شيء يقوم بنفسه لا في عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت ، والأحاديث الصحيحة توافق هذا ، كقول النبي ﷺ : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وقال لما ناموا عن صلاة الصبح : إن الله قبض أرواحنا حيث شاء . وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وهو أسرع الحاسبين ﴿ فهذا تَوَفُّها بالنوم إلى أجل الموت الذي ترجع فيه إلى الله ، وإخبارُ أنَّ الملائكة تتوفاها بالموت ثم يُرَدُّونَ إلى الله ، وَالْبَدَنُ وما يقوم به من الأعراض لا يُرَدُّ إنما يُرَدُّ الرُّوحُ ، وهو مثل قوله في يونس : ﴿ ثم رُدُّوا إلى الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن إلي ربك الرجعى ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ وتوفى الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه ، وإلا فالعَرَضُ القائم بغيره لا يُتَوَفَّى فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى ، بل تزول وتعدم كما تُعَدَّم حركته وإدراكه اهـ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأخيا وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور وأخرجه من حديث

أبي ذر رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال :
باسمك نموت ونحيا ، وإذا استيقظ قال : الحمد الذي أحيانا بعدما أماتنا
وإليه النشور . وأخرجه مسلم في صحيحه من حيث البراء رضي الله عنه أن
النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال : اللهم باسمك أحيأ وباسمك أموت ،
وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ،
ويؤثر أن رسول الله ﷺ شبه النوم بالموت والبعث بالاستيقاظ من النوم عندما
أمره الله بالجهر بالدعوة فقال لقريش : إن الرائد لا يكذب أهله ، فقد أثر أنه
قال لهم في هذا المقام : والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ،
ولتُحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا . كما ذكر
ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ وكذلك صاحب السيرة الحلبية
وغيرهما ، ولم أقف لهذا الأثر على سند متصل . وقد أكد الله تبارك وتعالى أن
الروح من أمر الله ، وأن الله تبارك وتعالى قد استأثر بعلم حقيقتها وكيفيتها
حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من
حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا مع النبي ﷺ في حرت
وهو متكئ على عسيب ، إذ مرَّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن
الروح فقال : ما رَأَيْتُمْ إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشيء
تكرهونه ، فقالوا سلوه فَسَأَلُوهُ عن الروح ، فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم
شيئا ، فعلمت أنه يوْحَى إليه فقامت مَقَامِي ، فلما نزل الوحي قال :
﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾
وفي قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ بعد ذكر كون الروح من أمر الله
وحده لَفَتْ انتباه الناس إلى أن قوله تعالى في هذا المقام : ﴿ وهو الذي يتوفاكم
بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ بعد قوله عز وجل : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب

لا يعلمها إلا هو ﴿ الآية يشير إلى بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مع الإشارة إلى تمام الارتباط بين كل آية وما يليها ، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ومعنى قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ أي والله هو الغالب لجميع عباده العالي فوق جميع خلقه ، وقد اقتضت حكمته أن يبعث عليكم ملائكة ، منهم مَن وكلهم بحفظ أبدانكم بسبب أمر الله لهم بذلك كما قال عز وجل ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ ومنهم ملائكة موكلون بحفظ أعمالكم يحصون عليكم ما تفعلونه كما قال عز وجل : ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ومنهم ملائكة موكلون بقبض أرواح العباد وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ملائكة الرحمة هم الذين يقبضون أرواح المؤمنين وأن ملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمَّلَ به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحولُ بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي

فجعلوه بينهم أي حكمًا فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، ففاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة . ولا معارضة بين قوله تعالى هنا : ﴿توفته رسلنا﴾ وكذلك قوله : ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم﴾ إذ قد يراد بالواحد الجنس ، ومعنى : ﴿وهم لا يُفَرِّطُونَ﴾ أي وهؤلاء الحفظة لا يغفلون ولا يتوانون ولا يُضيعون وقوله عز وجل : ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقُّ ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ . أي ثم رَدَّهم الله تبارك وتعالى بعد الموت ليقفوا بين يدي ربهم الإله الملك الحق الخالق الذي لا إله غيره الذي له الحكم وحده يوم القيامة ، وله وحده القضاء بين عباده ، قال ابن جرير رحمه الله في قوله : ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يقول : وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين اهـ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لست عليكم بوكيلٍ . لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

بعد أن لفت الله عز وجل انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم وما يُجْريه عليهم من أدلة قدرته ، وقهره لخلقه ، وعلوّه على عباده وأكد أن مَرَدَّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش ومن على شاكلتهم مرة أخرى بلفت انتباههم إلى أنهم إذا وقعوا في ورطة في ظلمات البر والبحر توجهوا بالضراعة إلى الله وحده ونسوا أصنامهم وأوثانهم وأخلصوا الدعاء جهرا وسرا وتذللّا لله وحده فإذا نجاهم الله من ورطتهم وكشف عنهم ضرهم رجعوا إلى شركهم وعبادة أصنامهم وأوثانهم ، ثم حذّره بأنهم لن يفلتوا من عذاب الله إذا أَرَادَهُ بِهِمْ ، وبيّن لهم أنهم ليسوا بِمَنْجَا من عذاب الله في أية لحظة وعلى أي حال فهو القادر على أن يرسل عليهم حاصبا من السماء أو أن يخسف بهم الأرض أو أن يُسَلِّطَ بعضهم على بعض فيقتل بعضهم بعضا ، ثم وأسى رسوله وحببيه وسيد خلقه محمدا ﷺ وبين له أنه على الحق وأن ما جاء به من عند الله هو الحق ، وأن قلوب العباد بيد الله وحده وأن العاقبة الحسنى ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وفي ذلك يقول : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

ومعنى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْ أَنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين واسألهم على سبيل التقرير والتوبيخ والتقرير: مَنْ تَلْجَأُونَ إِلَيْهِ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْبَرِّ أَوْ كُنْتُمْ فِي الْبَحْرِ وَأَحَاطَتْ بِكُمْ الظُّلُمَاتُ وَنَزَلَ بِكُمْ الضُّرُّ وَأَسْرَفْتُمْ عَلَى الْهَلَاكِ، إِنَّكُمْ لَنْ تَضَرُّعُوا إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ إِذْ تَدْعُونَهُ حِينَئِذٍ جَهْرًا وَسِرًّا وَتَتَعَهَّدُونَ بِأَنْكُمْ سَتَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَتَقُولُونَ: لَأَنْ خَلَّصَنَا اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ وَكَشَفَ عَنَّا هَذَا الضُّرَّ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُصِينَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَقْرِيرِ الْجَوَابِ مَعَ كَوْنِهِ مِنْ وَظَائِفِهِمْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ الْمَتَّعِينَ الَّذِي لَا جَوَابَ غَيْرَهُ وَلِتُوبِيخِهِمْ عَلَى نَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ وَكُفْرَانِهِمْ لِلنِّعْمَةِ فَقَالَ: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُخْبَرَ قَرِيشًا وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ بِأَنْهُمْ لَنْ يَفْلَتُوا مِنَ اللَّهِ، وَلَنْ يَهْرَبُوا مِنْ عِقَابِهِ فِي الْبَرِّ أَوْ فِي الْبَحْرِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ حَاصِبٍ أَوْ حِجَارَةٍ أَوْ سَحَابٍ عَارِضٍ يَمْطُرُهُمْ بِعَذَابٍ اللَّهُ كَالَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِ هُودٍ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مَطَرًا مِنْهُمَا كَالَّذِي سَلَطَهُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ أَوْ كَسَفَا مِنَ السَّمَاءِ يَوْمَ الظُّلَّةِ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ، أَوْ أَنْ يُخَسِّفَ بِهِمُ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أَوْ أَنْ يَسْلُطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَهَذَا الْمَقَامُ قَدْ سَاقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ نِظَائِرَ كَثِيرَةً وَصَرَّفَ فِيهِ الْآيَاتُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ وَلِذَلِكَ ذِيلُهُ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أَفَأَمْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمِتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى
فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به
تبيعا ﴿ وكما قال عز وجل : ﴿ هو الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا
كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّيْنَهُمَا بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فلما أنجاهم إذا هم يَتَّبِعُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ
يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلَا هُوَ
مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ يَشْرِكُونَ ﴾ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من
صحيحه : حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن
جابر رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث
عليكم عذابا من فوقكم ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ
بوجهك ، قال : ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يُلْسِكُكُمْ
شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
هذا أهون أو هذا أيسر ، وقال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة
من صحيحه : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو : سمعت
جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : لما نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ قال :
أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك فلما نزلت : ﴿ أو
يُلْسِكُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : هاتان أهون أو أيسر وقال
في كتاب التوحيد من صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا حماد بن زيد
عن عمرو عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على

أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴿ قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ
 بوجهك ، فقال : ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك قال : ﴿ أو يلبسكم شيئا ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا أيسر وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه العقوبات أربعة أنواع
 حيث عدّ قوله عز وجل : ﴿ أو يلبسكم شيئا ﴾ عقوبة من هذه العقوبات
 كما عدّ قوله عز وجل : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ عقوبة أخرى حيث
 قال رسول الله ﷺ كما جاء في رواية البخاري من طريق علي بن عبد الله
 هاتان أهون أو أيسر وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها
 ومغارها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر
 والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة ، وألا يسلط عليهم
 عدوا من سوا أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد : إني إذا
 قضيت قضاء فإنه لا يردّ وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة ، وألا
 أسلط عليهم عدوا من سوا أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم
 من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها
 ويسبي بعضهم بعضا . كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن
 أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا
 مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ، ودعا ربّه طويلا
 ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم : سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين
 ومنعني واحدة ، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا
 يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها -
 والمقصود أن الله تبارك وتعالى استجاب لرسوله ﷺ فلن يسلط على أمته
 عذاب استئصال يأتيها من فوقها أو من تحت أرجلها ، وهذا لا يمنع أن

يخسف الله بواحد أو أكثر من هذه الأمة أو أن ينزل عذاباً من السماء على واحد أو أكثر من هذه الأمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي وكذبت قريش بما جاءهم به الصادق الأمين محمد ﷺ من القرآن العظيم والذكر الحكيم الذي صرّفنا فيه من الآيات لعلمهم يتذكرون وضربنا لهم فيه من كل مثل لعلمهم يرتدعون عن غيهم وضلالهم ، وقد بلغ هذا الذكر في الحقيقة أعلى الدرجات ، لكن قلوبهم الجاحدة عميت عن المسارعة إلى قبول هذا الحق ، فأخبرهم أيها الرسول الكريم أنك لست بمستول إلا عن تبليغهم رسالة ربك ، وأما هدايتهم فليست بيدك ، وَلَسْتُ بِمُسيطر على قلوبهم قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يعنى قريشاً وهو الحق أي الذي ليس وراءه حق ، ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست عليكم بحفيظ ، وَلَسْتُ بِمُوكِّلٍ بكم ، كقوله : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ أي إنما عليّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة اهـ وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ هذه الجملة القليلة الحروف قد شملت من المعاني ما تعجز الأقلام عن تسطيره من الحكمة البالغة والمعجزة الظاهرة وأصدق الأمثال السائرة ولم يسمع نظيرها في غير القرآن الكريم ، وقد اشتملت على الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فكل خبر يلفت انتباه الناس لا بد وأن يُعْرَفَ في المستقبل صدقه أو كذبه ، وقد اشتملت أخبار القرآن العظيم وأخبار الرسول الكريم ﷺ على أمور دنيوية وأخروية ، ولم يتخلف خبر عن مواعده إذا جاء أجله ، كالإخبار عن القتال بين فارس والروم وغلبة الروم في قوله عز وجل : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ، اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ

ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ وقد وقعت ، وكالإخبار عما يقع يوم بدر ، وقد وقع ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿ وسوف تعلمون ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِىَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوَاً وَعَرِثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

بعد الترغيب في مجالسة الصالحين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وزيادة تكريمهم بتبشيرهم بفضل الله عليهم بأنه من عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ، شرع في التهيب من مجالسة من يستهزئ بكتاب الله ، ويكفر به أو يخوض في حديث يريد به إيذاء رسول الله ﷺ مُبَيَّنًا رفع الإصر عن الذي يجلس في مثل هذا المجلس ناسيا هذه الوصية ، مرشدا له بالقيام من مثل هذا المجلس عند التذكر ، وأن الذين يخشون ربهم لا يتحملون شيئا من أوزار الفاسقين ، حيث يقول عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ والمخاطب بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ هو كل فرد فرد من آحاد أمة محمد ﷺ ويدخل في عمومهم رسول الله ﷺ دخولا أوليا ، ومعنى «يخوضون في آياتنا» أي يندفعون فيها على غير بصيرة فيستهزئون بها ويكذبونها ، وأصل الخوض هو المشي في الماء

الضحل القليل على الأرض لا عُمَقَ له، ويستعمل في كل مندفع في شيء على غير بصيرة لأن الخائض لا يرى موضع قدمه في المخاضة، فهو يضع قدمه حيث لا يدري وقد يقع في الهاوية، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: والخوض: المشي في الماء، والموضع مخاضة وهي ما جاز الناس فيها مشاة وركبانا، وجمعها المخاض والمخاوض أيضا، عن أبي زيد، وأخضت في الماء دابتي وأخاض القوم أي خاضت خيلهم في الماء، وفي الحديث: رُبَّ متخوض في مال الله تعالى؛ أصل الخوض: المشي في الماء وتحريكه ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه، أي رُبَّ متصرف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، والتخوض تَفَعَّلَ منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن، وفي حديث آخر: يتخوضون في مال الله تعالى. والخوض: اللبس في الأمر، والخوض من الكلام: ما فيه الكذب والباطل، وقد خاض فيه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ وخاض القوم في الحديث وتخاضوا أي تفاوضوا فيه، وأخاض القوم خيلهم إخاضة إذا خاضوا بها الماء، والمخاض من النهر الكبير: الموضع الذي يتخضض ماؤه فيخاض عند العبور عليه: ويقال المخاضة بالهاء أيضا. اهـ وما يدل على أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴿هو للعموم وإن كان واردا بلفظ الواحد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ قال ابن كثير. رحمه الله وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وَإِذَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس

أحد معهم ناسيا ﴿فلا تقعد بعد الذكر﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ ولهذا ورد الحديث : رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله : ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال : إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم ، وكذا قال مقاتل بن حيان ، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله : ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم﴾ الآية ، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتهم على ذلك فقد ساوَيْتموهم فيما هم فيه اهـ ولا شك أن قوله تعالى : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قد نزل بمكة قبل الهجرة ، ولم يكن في مكة إلا المؤمنون والكافرون فلم يكن أحد من المؤمنين إذا جلس مع من يخوضون في آيات الله يرضى أبدا عنهم أو يوافقهم ، ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أما قوله تعالى : ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره﴾ الآية فقد نزل بالمدينة وقد كان فيها مؤمنون وكفار ومنافقون ، ولا شك أن المنافقين كانوا يفرحون بما يصدر عن الكفار من الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ، لذلك شَدَّدَ الله عز وجل النكير على من يجلس مع من يخوضون في آيات الله ويوافقهم بقلبه ، وإن أظهر الإسلام وهو منافق فقد حكم بأنه مُساوٍ ومماثلٌ لهؤلاء الكافرين الخائضين حيث قال عز وجل : ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴿ومذهب عامة أهل السنة والجماعة جواز وقوع النسيان من رسول الله ﷺ في بعض الأفعال وإن كان معصوما من نسيان ما أمر بتبليغه حتي يُبلِّغهُ صلى الله عليه وسلم ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إنما أنا بشرٌ مثلكم أنسى كما تنسون ،

فإذا نسيْتُ فذكّرْوني . وإسناد التَّنِيْسَةِ إلى الشَّيْطَانِ في قوله تبارك وتعالى ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ هو ظاهر في حق غير المعصوم من الشَّيْطَانِ من الداخلين في عموم الخطاب مع لفت الانتباه إلى الأدب في إسناد الخير إلى الله عز وجل وإسناد الشر إلى الشَّيْطَانِ على حد قوله تبارك وتعالى في قصة أيوب عليه السلام : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وليس على المؤمنين الذين يتقون ربهم شيء من أوزار الخائضين الظالمين لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فلكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، وإنما نهيْنَا المؤمنين عن الجلوس مع الخائضين وأمرناهم بالقيام من مجلس هؤلاء حتى يَكُفُّوا عن الخوض في آيات الله ، لما في ذلك من ردع هؤلاء الخائضين ، ويُعْتَبَرُ هذا القيام نوعاً من أنواع العقوبة والتعزير كما يدخل فيما يسمى بالحرب النفسية في هذا العصر الحديث ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًَا غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ الآية حضُّ لرسول الله ﷺ وللمسلمين على الصبر على ما يلاقونه من تعنت الكفار وأذاهم ، وترغيب في الإعراض عنهم بعدم الحزن على ما يصيبهم من استهزاء المشركين بهم ، وأن على المسلمين أن يُؤَالُوا تذكير هؤلاء الكفار ووعظهم وترهيبهم مما توعدهم الله عز وجل به أعداءه من الشراب الحميم والعذاب الأليم ، وهذا المقام الكريم شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى الخائضين في آياته بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ، وفي هذا تقييح لمنهجهم وتنفير من سلوكهم ، واللَّعِبُ ضد الجدِّ ويقال لكل من عمل

عملا لا يُجدي عليه نفعاً إنما أنت لاعب ، واللَّهُوُ ما تشاغلَتْ به عما هو
 أجدى عليك منه ، وشرُّ اللعب واللَّهُو أن يَعْصُ الإنسان بالنواجذ على
 أسباب تهلكته في العاجلة والآجلة ، وأن يجعل ذلك ديناً له ومنهجاً يحارب به
 من يدعوه إلى سعادة دنياه وأخراه ، وهذا العمل لا يكون إلا من مغرور ، ولما
 كان هؤلاء الخائضون في آيات الله المستهزون بشريعة الله قد اختاروا أسباب
 شقوتهم ، ولم تتعلق آمالهم بغير الحياة الدنيا الزائلة الفانية وصفهم الله عز
 وجل بأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ، لأن مَنْ لهاً بمتاع
 زائل عن النعيم السرمدي الذي لا يفنى ولا يزول وهو مع هذا صائر إلى أن
 يرتن بعمله هذا في سجن جهنم خالداً مخلداً فهو لا شك مغرور وقد أمر الله
 رسوله ﷺ ودعاة الهدى أن يُحذِّروا هؤلاء المغرورين من عذاب الله فقال عز
 وجل : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا
 شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾ ومعنى ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا
 كَسَبَتْ ﴾ أي أن ترتن وتحبس نفس بما اجترحت من الخوض في آيات الله
 والاستهزاء بشريعة الله قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي دَعَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ
 وَأَمَلَهُمْ قَلِيلاً فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ، ولهذا قال : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي
 ذكر الناس بهذا القرآن ، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمَ يوم القيامة ، وقوله
 تعالى : ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي لثلاً تُبْسَلَ ، قال الضحاك عن ابن
 عباس ، ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي : تبسل : تُسَلَّم وقال الوالبي عن
 ابن عباس : تفتضح ، وقال قتادة : تحبس ، وقال مرةً وابنُ زيد تُؤْخَذُ ، وقال
 الكلبي : تُجْزَى ، وكلُّ هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها
 الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله : ﴿ كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وليّ ولا شفيع ﴿أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها، كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ الآية وكذا قال ههنا: ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ اهـ والمراد بالحميم هنا هو الماء الذي بلغ أقصى درجات الحرارة وما يسيل من عرق أهل النار وقيحهم وصديدهم كما قال عز وجل ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي قد انتهى حره، وكما قال عز وجل: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي بلغت الغاية في حرارتها وكما قال: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كالمُهْل يغلى في البطون كغلي الحميم﴾ وكما قال: ﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بباء كالمُهْل يشوي الوجوة، بش الشراب وساءت مُرتفقاً﴾ وكما قال عز وجل ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

بعد أن ساق الله عز وجل صوراً مشرقة مقررّة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن البعث بعد الموت حق فالساعة آتية لا ريب فيها وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها جميع السور المكية شرع هنا في توبيخ الذين يتخذون من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر قاطعاً كل طمع يُراوِدُ قلوبَ المشركين الذين يحرصون على ردة المسلمين عن دين الإسلام مُشَبِّهاً حيرة المشركين وانقيادهم للشياطين بحيرة من أضلته الشياطين عن الصراط المستقيم وأوقعته في المهامِ المهلكة وجرفته عن سواء السبيل فلا يهتدى لمسلِك يدفع عنه شراً أو يجلب له خيراً ، لأنه انحرف عن هدى الله عز وجل الذي يهdy به من يشاء إلى الحياة الطيبة وجنات النعيم ، شارحاً معالم سبيل الهدى والنجاة ، بأنه الاستسلام لرب العالمين ، وإقامة الصلاة وتقوى الله الذي إليه الحشر والنشر ، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء ، عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير ، وفي ذلك يقول : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . ﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

أي قل يا محمد أنت ومن معك من المؤمنين لهؤلاء المشركين الذين يطمعون في ردتكم عن الإسلام ويحاولون أن تنصرفوا عن دينكم الأبلج إلى باطلهم اللجلج : أنعبد من دون الله حجرا أو خشبا أو ما شابههما من أصنام وأوثان لا تقدر على نفعنا أو ضرنا ، ولا تملك لنا أو لغيرنا أو لأنفسها جلب خير ولا دفع شر ، ونترك عبادة الملك الحي القيوم الذي بيده وحده النفع والضرر والحياة والموت الذي تفزعون إليه وحده عند الشدائد وتقرون بأنه هو لا غيره الذي يُنَجِّيكُم من ظلمات البر والبحر ، إننا لن نفارق ديننا أبدا ولن نعبد غير الله عز وجل ولن نرتد على أعقابنا بعد أن هدانا الله عز وجل لدين الإسلام ، والمقصود من قوله عز وجل : ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ﴾ هو الردة عن دين الإسلام والاستفهام للتوبيخ والإنكار أي لن ندعو غير الله الذي لا إله بحق سواه ، ولن نرتد عن ديننا أبدا ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أشد ثباتا على تمسكهم بدين الإسلام من الجبال الرواسي ، وقد سأل هرقل أبا سفيان : هل يرتد أحد عن دين محمد بعد أن يدخل فيه ، فأجابه أبو سفيان - وكان يومئذ مشركا - لا يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له : سألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سَخَطَةً لِدِينِهِ بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بِشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ ، لا يَسَخُطُهُ أَحَدٌ . وقد ضرب الله تبارك وتعالى هنا مثلا لمن أشرك بالله تبارك وتعالى تقييحا لفعله واستهجانا لسلوكه وتنفيرا من الوقوع في مثل ما وقع فيه فقال : ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا ﴾ كما ضرب له مثلا في سورة الحج حيث يقول : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا فُكِّنَا خَرًّا مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿ فَاَلْمَثْلُ الْأَوَّلُ يُشَبَّهُ الْمَشْرَكَ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي لَعِبَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَزِينَتْ لَهُ تَرْكُ سَبِيلِ الْهُدَى ، وَجَرَّتْهُ إِلَى الضِّيَاعِ فِي الْمَقَاوِزِ وَالْمَهَامَةِ ، فَتَفَرَّقَتْ بِهِ السُّبُلُ وَصَارَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَجَّهُ ، وَحَارَ فِي أَمْرِهِ ، وَتَرَدَّدَ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ يَسِيرُ وَازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ عِنْدَمَا بَدَأَ يَسْمَعُ أَصْوَاتًا يَعْرِفُ أَصْحَابَهَا تَنَادِيَهُ مِنْ جِهَاتٍ شَتَّى : أَقْبَلَ إِلَيْنَا لِنَهْدِيكَ إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى ، وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ تَنْبِيهُ إِلَى أَنْ بَعْضُ دَعَاةِ الضَّلَالَةِ قَدْ يَسْمُونُ ضَلَالَتَهُمْ هُدًى ، مَعَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْهُدَى مُحْصُورٌ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ وَدِينِ الْمُرْسَلِينَ ، فَمَنْ دَعَا إِلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ فَهُوَ دَاعٍ إِلَى الضَّلَالَةِ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى التَّمَسُّكِ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ دَاعٍ إِلَى الْهُدَى ، أَمَّا الْمَثَلُ الثَّانِي الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَشْرِكِ فَهُوَ تَشْبِيهِهُ بِمَنْ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَفَتْهُ الطَّيْرُ فَمَزَقَتْهُ وَالتَّهَمَّتْهُ فَإِنْ سَلِمَ مِنَ الطَّيْرِ أَلْقَتْ بِهِ الرِّيحُ فَسَقَطَ فِي الْحَضِيضِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي الصَّحَاحِ : وَاسْتَهْوَاهُ الشَّيْطَانُ اسْتِهَامَهُ أَهْ وَقَالَ الْفَيْرُوزُ أَبَادِي فِي الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ : وَاسْتَهَوْتُهُ الشَّيَاطِينُ : ذَهَبَتْ بِهِوَاهُ وَعَقَلَهُ أَوْ اسْتِهَامَتُهُ وَحَيْرَتُهُ أَوْ زِينَتْ لَهُ هَوَاهُ أَهْ وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿ بَيَانٌ لِأَهَمِّ مَعَالِمِ طَرِيقِ الْهُدَى وَالنَّجَاةِ وَتَكْذِيبِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ دَعَاةِ الْهُدَى وَهُوَ يَدْعُو إِلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْثَانَ ، الْقَائِلِينَ لِأَصْحَابِكَ : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، فَإِنَّا عَلَى هُدًى : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ ، ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ يَقُولُ : إِنَّ طَرِيقَ اللَّهِ الَّذِي بَيَّنَّهُ لَنَا وَأَوْضَحَهُ ، وَسَبِيلَهُ الَّذِي أَمَرْنَا بِلِزُومِهِ ، وَدِينَهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا فَبَيَّنَّهُ هُوَ الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةُ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا ، لَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ

التي لا تضر ولا تنفع ، فلا نترك الحق ونتبع الباطل وأمرنا ربنا ورب كل شيء تعالى وجهه لنسلم له : لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية ، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنناد والآلهة ، ثم قال ابن جرير رحمه الله في تأويل قوله : ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ : فتأويل الكلام : وأمرنا بإقامة الصلاة ، وذلك أدائها بحدودها التي فرضت علينا ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ يقول : واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له ، فخافوه واحذروا سخطه بأداء الصلاة المفروضة عليكم ، والإذعان له بالطاعة ، وإخلاص العبادة له ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يقول : وربكم رب العالمين هو الذي إليه تُحْشَرُونَ فَتَجْمَعُونَ يوم القيامة ، فيجازي كل عامل منكم بعمله وتُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إثبات وتأکید على أن حشر العباد إلى الله تبارك وتعالى يوم القيامة حق لا ريب فيه ، فنبه بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ على أنه لا بد من البعث والجزاء لأنه لو لم يكن بعث ولا جزاء لكان خلق السموات والأرض عبثا ولعبا وباطلا وخاليا من الحكمة لأنه لو لم يكن جزاء ولا حساب لاستوى الصالحون والفجار وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي إن يوم الحساب كائن لا محالة لأنه لو لم يكن حساب ولا بعث لكان خلق السموات والأرض وسائر العوالم عبثا ولعبا ، لأنها تكون حينئذ إنما خلقت للفناء ولا يخطر هذا إلا ببال الجاحدين الأشقياء فهلاك ودمار في جهنم لهؤلاء الجاحدين المكذبين بالبعث بعد الموت ، إنه لو

لم يكن بعث ولا حساب لاستوى الصالح والمفسد، والتقى والفاجر، ولا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما فستان بين من يغضُّ طرفه إن بدت له جارته وبين من ينهب النساء للخنا والفجور، وستان بين من يمدُّ يد المساعدة والإنفاق للفقراء والمساكين وبين من يمدُّ يده لنهب أموال اليتامى والمستضعفين، وليس كلُّ من يعمل شرا يعاقب عليه في الدنيا فقد لا يقع المجرم في قبضة من يقيم العدل عليه في الدنيا، إذ قد يرتكب جرمه دون أن يطلع عليه أحد من الناس فاقترضت حكمة الحكيم الخبير أن يقيم العدل بين عباده يوم القيامة وأن يجزي كل نفس بما كسبت، والكفار مقرون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض فإذا لم يُقَرُّوا بالبعث والجزاء كان ذلك منهم إنكاراً لحقيقة خلق السموات والأرض، ولذلك قيَّد هنا خلق السموات والأرض بقوله: ﴿بالحق﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سَبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ، قَوْلَهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ، عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.﴾ مزيد تأكيد لحقيقة الحشر والنشر وأنه كائن لا محالة ببيان أنه سهل يسير على الله الذي إذا أراد شيئاً إنما يقول له: كن فيكون، وهو تبارك وتعالى قد أخبر بأن البعث كائن، وقوله عز وجل حق لا مرية فيه ولا شك، وهو تبارك وتعالى مَلِكُ يوم الدين وَمَالِكُهُ، وأنه تعالى إذا أمر إسرائفيل بالنفخ في الصور فنفخ فيه وَدَعَا الْعِبَادَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ خَرَجُوا مُسْرِعِينَ إِلَى الدَّاعِي كأنهم جراد منتشر، قد أحياهم عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مرة للإفناء ومرة للإنشاء أي نفخة للصعق ونفخة للبعث حيث يقول عز وجل: ﴿وَنفخ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخ فِيهِ أُخْرٰى فإِذَا هُمْ قِيَامٌ

ينظرون ﴿ وَالصُّورُ هُوَ الْقَرْنُ وَالْمَرَادُ بِهِ : بوقٌ يُنفخُ فيه ، قال الترمذي حدثنا
سُوَيْدُ بْنُ نَصْرٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ أَخْبَرَنَا سَلِيمَانُ التِّيمِيُّ عَنْ أَسْلَمِ
الْعَجَلِيِّ عَنْ بِشْرِ بْنِ شَغَافٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : جَاءَ
أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَا الصُّورُ ؟ قَالَ : قَرْنٌ يُنفخُ فيه . قال أبو عيسى
هذا حديث حسن ، وقد روى غير واحد عن سليمان التيمي ولا نعرفه إلا من
حديثه اهـ . والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع الصفحة

- تفسير قوله تعالى: «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن» الآية ٣
- تفسير قوله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا» الآيتين ٨
- تفسير قوله تعالى: «وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته» الآيات الخمس ١٤
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط» الآيتين ١٩
- تفسير قوله تعالى: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا» الآيات الأربع ٢٤
- تفسير قوله تعالى: «الذين يتربصون بكم» الآيات الثلاث ٣٠
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين» الآيات الأربع ٣٥
- تفسير قوله تعالى: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم» الآيات الخمس ٤٠
- تفسير قوله تعالى: «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء» الآيات التسع ٤٦
- تفسير قوله تعالى: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون» الآيات الأربع ٥٢
- تفسير قوله تعالى: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون» الآيات الأربع ٥٨
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم» الآيتين ٦٣
- تفسير قوله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون» الآيات الأربع ٦٩
- تفسير قوله تعالى: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة» الآية ٧٥

٨١	تفسير سورة المائدة
٨٩	تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» الآية
٩٥	تفسير قوله تعالى: «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» الآية
١٠١	تفسير قوله تعالى: «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» الآيتين ..
	تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم»
١٠٧	الآية
	تفسير قوله تعالى: «واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به» الآيات
١١٣	الخمس
	تفسير قوله تعالى: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر
١١٩	نقييا» الآيات الثلاث
	تفسير قوله تعالى: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا» الآيات
١٢٥	الثلاث
١٣٠	تفسير قوله تعالى: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه» الآيتين .
	تفسير قوله تعالى: «وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم»
١٣٥	الآيات السبع
١٤١	تفسير قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا» الآيات الخمس
	تفسير قوله تعالى: «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير
١٤٦	نفس» الآية
	تفسير قوله تعالى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض
١٥١	فسادا» الآيتين
	تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة» الآيات
١٥٧	الثلاث
١٦٣	تفسير قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» الآيات الثلاث
	تفسير قوله تعالى: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر»
١٦٨	الآيتين

- تفسير قوله تعالى: «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله» الآيات
 الثلاث ١٧٤
- تفسير قوله تعالى: «وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم» الآيات الثلاث ١٨٠
- تفسير قوله تعالى: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم»
 الآيتين ١٨٦
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء»
 الآيات الثلاث ١٩٢
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله
 بقوم يحبهم ويحبونه» الآيات الخمس ١٩٧
- تفسير قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله» الآيات
 الأربع ٢٠٣
- تفسير قوله تعالى: «لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم» الآيتين ٢٠٩
- تفسير قوله تعالى: «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم»
 الآيات الثلاث ٢١٤
- تفسير قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة
 والإنجيل» الآيات الأربع ٢٢٠
- تفسير قوله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم» الآيات
 الأربع ٢٢٦
- تفسير قوله تعالى: «قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا»
 الآيات الست ٢٣٢
- تفسير قوله تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين
 أشركوا» الآيات الخمس ٢٣٨
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا
 تعتدوا» الآيات الثلاث ٢٤٤
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب
 والأزلام رجس» الآيات الأربع ٢٥٠

- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ليلبسونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم» الآيتين ٢٥٥
- تفسير قوله تعالى: «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة» الآيات الأربع ٢٦٠
- تفسير قوله تعالى: «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» الآيات الثلاث ٢٦٥
- تفسير قوله تعالى: «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام» الآيات الثلاث ٢٧٠
- تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية» الآيات الثلاث ٢٧٦
- تفسير قوله تعالى: «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم» الآيتين ٢٨٢
- تفسير قوله تعالى: «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي» الآيات الخمس ٢٨٨
- تفسير قوله تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين» الآيات الخمس ٢٩٣
- تفسير سورة الأنعام** ٢٩٩
- تفسير قوله تعالى: «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور» الآيتين ٣٠١
- تفسير قوله تعالى: «وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم» الآيات الأربع ٣٠٧
- تفسير قوله تعالى: «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم» الآيات الخمس ٣١٣
- تفسير قوله تعالى: «قل لمن ما في السموات والأرض قل لله» الآية ٣١٨
- تفسير قوله تعالى: «وله ما سكن في الليل والنهار» الآيات الأربع ٣٢٣
- تفسير قوله تعالى: «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو» الآيات الثلاث ٣٢٩

- تفسير قوله تعالى : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» الآيات
 ٣٣٤ الخمس
- تفسير قوله تعالى : «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه»
 ٣٤٠ الآيات الأربع
- تفسير قوله تعالى : «وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا» الآيات الثلاث ٣٤٦
- تفسير قوله تعالى : «قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون» الآيات الثلاث ٣٥٢
- تفسير قوله تعالى : «إنما يستجيب الذين يسمعون» الآيات الأربع ٣٥٨
- تفسير قوله تعالى : «قل أرايتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة» الآيات
 ٣٦٤ الست
- تفسير قوله تعالى : «قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على
 قلوبكم» الآيات الأربع ٣٧٠
- تفسير قوله تعالى : «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب»
 ٣٧٦ الآيات الأربع
- تفسير قوله تعالى : «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم» الآيات
 ٣٨٢ الخمس
- تفسير قوله تعالى : «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو» الآية ٣٨٨
- تفسير قوله تعالى : «وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار» الآيات
 ٣٩٤ الثلاث
- تفسير قوله تعالى : «قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا
 وخفية» الآيات الخمس ٤٠٠
- تفسير قوله تعالى : «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى
 يخوضوا في حديث غيره» الآيات الثلاث ٤٠٦
- تفسير قوله تعالى : «قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا» الآيات
 ٤١٢ الثلاث